

الطبعة
الثانية

رواية

نور عبد المجيد

لاسكالا

نور عبد المجيد

لاسكالا





سما

دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية

15 ش يوسف الحمدي متفرع من شارع المستكن - باب اللوق - القاهرة

تليفون: 202 24517300 - 2 01271919100

email: samanasher@yahoo.com

Web-site: publishing@sama-publishing.com

دار نور

دار نور للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
الشيخ زايد

تليفون: 2 01001406227

email: noorabdulmajeed.darnoor@gmail.com

Web-site: www.noorabdulmajeed.com

مكتبة دار نور



ali@daroj-eg.com

تصوير وتصميم الملاف: هانا هجدي

لاستكمال

نور عبد المجيد

الطبعة الأولى: بتكيسر

1437هـ 2016م

نشرة لثلاث أشهر إصدار إدارية الشؤون الفنية

دار الكتب المصرية

عبد المجيد نور

لاستكمال: رواية /

نور عبد المجيد - القلمية دار نور للنشر والتوزيع

دار سما للنشر والتوزيع 2016

472 ص. 13.7x18.5 سم - (لاستكمال)

المدك 4-045-781-977-978

1 - القلمية المصرية

دار للنشر

رقم هجدي: 25624/2015

المدك 4-045-781-977-978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

دار «نور» للنشر والتوزيع. ودار سما للنشر والتوزيع

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب

بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير

أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط

إهداء

إلى «الأم» الذي أنبني وأظنّه أحسن تأديبي!!

بسم الله العزيز المنتقم

السيد القنطور:

أعوام طويلة أنتظر عنك أخبارًا سعيدة، أعوام طويلة وعبونٌ حولك
نواليبي بأخبارك، لكن دون خبر سعيد واحد..

أصلي كل يوم وأدعو الله كثيرًا، وأسأله كيف رغم خشوع صلاتي
وحرقة تضرعي لا أسمع عنك ما يرضيني..

بالأمس أخبروني عنك الخبر السعيد!!

أخبروني أنك سقطت، وأن سرَّ أسفارك الكثيرة في الشهور القليلة
الماضية ما عاد سرًّا..

أخبروني أن المرض ينهش جسدك، وأنتك تموت..

لم أكتب لك لحظتها فقط؛ لأنني كنت طوال يومي ساجدة لله أشكره
وأسبح بحمده..

تأخر النبأ كثيرًا، لكن لا بد وأن لتأخره حكمة..

نتمجّل الخير لكن وحده الله يرسل الهدايا في وقت معلوم!!

تأخر النبأ ليصلني، والكره عملاق اشتدَّ غودًا، ليقضي على آخر نائم
الرحمة في صلري..

تأخر النبأ لترتوي أوصالي به قطعة تلو الأخرى..

هل تراه السرطان كان يستجمع قواه كل هذه الأعوام ليعرف كيف
يهاجم رجلاً مثلك ويقضي عليه؟!

أدعوه ألا يفعلها في ضربة واحدة، أناشده أن يغزوك قطعة قطعة،
ويجرحك كؤوس الألم رشفة رشفة..

أخبروني أنك أجريت جراحة كبيرة، تم فيها استئصال جزء كبير من
الأمعاء..

أصابني الذعر، وأنا حول نفسي أدور وأسال: هل تموت؟!

هدأت، وأنا أستعيد أسماء وقصص قتلة ومرترقة التاريخ..

هم يا سيدي يحيون طويلاً ويتعذبون كثيراً، أما قال ربك في كتابه:

﴿وَلَا يَخْصِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا تُعْلِي لَهُمْ
لِيَزْدَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١).

اليوم أكتب إليك بعد كل هذه الأعوام التي ظننتني غبتُ فيها عن
خارطة الأرض..

أنا هنا حية أرزق، هنا أرقبك تتألم، وانتظر موتك لأرتدي أشهى
ثيابي، وأضع زخات من أغلى عطوري..

يوم نموت؛ أكتب أحلى قطعة موسيقية وأسميها «موت الغندور»!!

لم أنسك يوماً، وما أظنك نسيتني!!

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٨.

رسائلي ستتوالى إليك، وأعلم أنك ستفتحها وتقرأها، وأنتك أبدا لن
نجيب عليها..

تألم، تألم كثيرا وطويلاً..

ثم تألم أكثر وأكثر، علّني أشفق عليك، وأخبرك عن الدواء...

دعنا الآن فقط نحتفل، ونتتشي كلُّ بطريقته..

أنت بأمّلك في الشقاء، وأنا بأمّلك في الموت والانتظار..

هل عرفت من أنا؟!

كان الضجيج عاليًا والمدرجات تهتز بهدير الحضور، تعلم أنه ليس كثيرون منهم يعنيه أمرها في شيء لكن ما يعنيها كثيرًا أن تختتم أسبوع البطولة هذا العام بالحصول على كأس الجمهورية.

أربع ميداليات من الذهب في الأسبوع الماضي تجعلها مؤهلة للحصول عليه إن اجتازت اليوم بنجاح.

ساعات التدريب الطويلة، والتنقل من نادٍ إلى نادٍ، ومن حمام سباحة إلى الآخر.

رائحة الكلور التي أصبحت في أنفاسها وطيات ثيابها، صرخات مدربيها التي تركت صوته مبحوحًا في نهاية أسبوع البطولة.

كل هذا يجعلها تصارع المياه، وتتقدم لتحصل على كأس الجمهورية للسباحة..

«ثلاثين ثانية» تريد أن تحطم هذا الرقم، تريد أن تحطمه بعد ثلاثة أعوام لم يستطع أحد فيها أن يحطمه، هو عام مختلف، وعدها والدها ألا يركضا في نوادي الجمهورية العام القادم.

يريدها أن تفرغ للاستذكار أكثر وهذا يكفيها.

كل من يلهثون معنا وخلفها في الماء الآن يريد أن يسبقها؛ لأنه يحب السباحة، يحب الفور، يحب النجاح، وحدها فقط تنقطع أنفاسها؛ لأنها تحب العرض الذي قدمه لها..

«أحصلي على كأس الجمهورية، ونكتفي بالتمارين الأسبوعية حتى حصولك على الثانوية العامة»!!

زاد ضربها في الماء، تريد أن تنفرغ أكثر ليس للاستذكار، بل لتمارين الباليه في مدرستها..

تعبت من الركض بين تمارين السباحة في الفجر والمساء، وبين الموت على خشبة قاعة التدريبات في مدرستها وفي معهد الباليه، لكن يبقى دومًا هناك شيء نريده حتى نرى الموت ذاته حياة في السعي إليه وشيء آخر نرى الحياة معه موتًا، وإن كان في الموت فيه نجاتنا!!

نجاتها اليوم أن تحصل على كأس الجمهورية..

بأعوام عمرها الستة عشر، بقوتها، بصوت الموسيقى الذي يسكن أذنيها، بصورة «التوتوز» في قدميها، بكل شوقها إلى خطوات «البولكا»، ورقصات النمسا التي أدتها في حفل المدرسة السنوي كانت تضرب المياه..

يخبرها مربيها أن تمارس الباليه جعلتها أكثر تميزًا وتقدمًا في السباحة، وتمنت لو تخبره أن ما جعلها كذلك هو رغبتها في التفرغ للباليه.

تريد أن ترضي والدها حتى الذرة ليمنحها وقتاً أطول مع الباليه خلال العام القادم.

اقتربت من خط النهاية، وأصبح صباح كل من في المدرجات باسمها.

رفعت رأسها لثانية صغيرة لا تصدق أن كل هؤلاء أصبحوا يهتفون باسمها، رأت وجه والدها ووجه مدربها ينثني على ركبتيه يردد «عاش، عاش، عاش»، بل تموت إن خذلتهم..

زاد لعلمها في الماء حتى وصلت، ولمست بكفها خط النهاية.

كان الصباح عاليًا، والهدير يصل أطراف السماء، واستدارت بسرعة تنظر إلى الـ «أوميجا»، حطمت الرقم القياسي، عبرت الخمسين «حرة» في سبع وعشرين ثانية.

رأت مدربها يركض نحوها حاملاً في يده الروب، وهو يبكي.

كانت تلهث كقط مذعور، وحين ارتمت بين ذراعي والدها، وعادوت النظر إلى ساعة الأوميجا علمت أنها حصلت على كأس أفضل سباحة في الجمهورية.

بعينها جابت مدرجات الحضور.

كيف يصفقون لها بهذا الجنون رغم أن منهم آباء وآمهات لمنافسين لها، في نصرها هزيمتهم وفي نجاحها تأخرهم.

صاح مدربيها يقول: «اللعبة الحلوة تنسينا انتماءاتنا وتحيزنا،
في لحظة لا نملك إلا أن ننحني للمعجزة وإن كانت عدونا!! أنت
المعجزة، حطمت الرقم القياسي».

بعد دقائق أعلنوا نهاية البطولة وتوزيع الكؤوس.

صاح رئيس اتحاد السباحة يعلن فوز يسر الغندور بكأس الجمهورية،
وتقدمت ترفع يدها بالكأس عاليًا، واستدارت تنظر إلى والدها الذي
كان يرقبها في زهو كبير.

حققت له ما أراد، ستخرج من هنا، وتضع هذا الكأس بين يديه
قربانًا من قرابين كثيرة تقدمها له..

نُرى لو كانت «أوليجا» هنا، هل كانت تقف وتصفق وتطفق
الدمعات من عينيها.

«أوليجا بارشينكوف» ليتها هنا!!

لماذا كلما ذكرتها تشعر بسكين تعصر قلبها دون رحمة.

لماذا كلما ذكرتها تمنى لو تلقى بكل شيء من يدها، وتسقط على
الأرض، وتبكي كما لم يبكي إنسان.

لأنها أمها!! لأنها تحبها!!

أم لأنها تخلت عنها وتركتها؟!

كيف يتساوى الحب والألم؟!

متى يتساوى الشوق والغضب؟!

مبزال وجهها الجميل يسكن ضراء عينيها، ما زالت كلماتها تلك
الليلة تظن في أذنيها في كل لحظة..

«كوني صادقة، كوني صادقة لا مع الآخرين، بل مع نفسك!!
الصدق مع النفس وحده طريق انقوة والنجاة»!!

ثمانية أعوام لم تر أمها، ثمانية أعوام، والكلمات ترن في أذنيها،
وتجلجل في جنبات روحها، ورغم هذا تشعر أنها ما زالت لا تفهم..
جذبها مدربيها من ذراعها ليعيدها إلى جمهور بطولة السباحة، وسار
بها بعيداً..

انقضى الموسم، وانتهى كل شيء..

ستخرج وتتاول لوحاً كبيراً من «الشيكولاتة» التي كانت محرمة
عليها طوال أسبوع البطولة.

ستعود إلى منزلها في الدقي ويضعها والدها في فراشها، ويخرج
كما يفعل كل مساء لتبقى وحدها في ظلام غرفتها، ترقب ظلام الليل،
وتحلم لو تدخل عليها أمها كما فعلت تلك الليلة رغم ثقها أنها أبداً
لن تفعل.

ماتت أوليجا كما أخبروها؟!

لا لم تمت!! هي التي تشتعل موتاً وألماً..

تجهل کل شیء، ومحرم علیها حتی ذکر اسمها علی شفتیها.

اسمها؟

ماذا كان اسم أمها؟

أوليجا أم ناتاشا؟

حين وضع «الغندور» نفسه في سيارته، وأمر سائقه بالتوجه إلى شقة وسط البلد التي اعتاد أن يأخذها إليها كان وجهه متورداً ضاحكاً على عكس عادته، ما إن انطلق السائق العجوز في طريقه حتى أخرج له سيده ورقة مالية كبيرة منحها له قائلاً:

- أصبحت يسر بطلّة الجمهورية في السباحة.

التقطها الرجل في صمت بعد كلمة «مبروك» صغيرة خفيفة لا لون لها ولا نغمة.

الغندور يعلم أن سائقه لا يحبه، لكن ما عسى هذا الحب في شيء أن يعنيه.

«عم غريب» سائقه من «دمرو» منذ ستة عشر عاماً، يأتّمه على كل خطوة يخطوها هو أو ابنته، أجمل ما فيه أن لسانه مقطوع، مرات كثيرة فكر في طرده من العمل، بل هي مرة واحدة.

نعم مرة واحدة!

ذاك اليوم الوحشي يوم اختفاء «أوليغا».

يشك كثيرًا أنها معه ذهبت، حاول كثيرًا أن يخرج منه باعتراف، كان يريد القبض عليها، أخذت كل ماله الذي كان يحتفظ به في خزانة غرفته، ما زال يثق في علمه بوجهتها.

كان غريب يحبها كثيرًا كما يحب ابنتها الآن، وكما لا يهوى أحدهما الآخر.

هدده بالطرد، أعلن له أنه سيبغ عنه الشرطة، ويتهمه بالسرقة.

لم تهتز شعرة في رأس غريب البيضاء.

أحنى رأسه في هدوء يخبره أنه سينتظره في السيارة؛ ليأخذه إلى قسم الشرطة.

كاد الغندور أن يجن يومها، لكنه ما فعل شيئًا، وكيف يفعل، وهاتفه دق بعد لحظات.

حادثه أخوه، وقال في هدوء:

«أنا في طريقى إليك، غريب لم يسرقك، لا تخلط بين امتنانه لها وولائه لنا، لا نأمن سواه على ابتنا، لن يترك العمل لديك، فلتذهب أوليجا وما سرقت إلى الجحيم، ومنذ اللحظة سأعلن وتعلن أنت للجميع وفاتها، هل تفهم؟!»

اختنق صوته بالدمع لحظتها، وقال، كأنه يرجوه أنه فقط يريد أن يعلم أين ذهبت؟!!

أغلق الغندور الكبير الخط بعد أن قال: «وهل يمثل لنا فارقاً في أي تربة يغفو من مات؟!»

من خلف ظهره، وعلى مقعده الخلفي، نظر إليه عصمت في غيظ، ما زال يتمنى لو يسأله عنها، لكن يعلم أنه لو ذبحه، أو ذبح نفسه على قدمي سائقه، ما قال كلمة.

ليس هذا وقت الذكريات، هو يوم النصر..

أثبتت ابنته اليوم أن دمائها من تلك الدماء الملوثة تغسل.

رغم أنها ما زالت ترقص الباليه، رغم أنها ما زالت كلما فتح عليها باب غرفتها وجدها تقف كالبلهاء على رأس أصابعها، إلا أنها بحصولها على بطولة الجمهورية أثبتت أن دمائها قابلة للتطهر!!

لم يكن يصدق أبداً أنها ستحصل على البطولة، يريد أن يراها سباحة لا راقصة، يكره أن يرى عضلات ساقها تنموان، لكن فعلتها!! حصلت على البطولة، وتنتظر أن يحافظ على عهده..

لن يفعل!!

سيترك لها شهوذاً، ويعود إليها بقصة جديدة.

أوقف غريب السيارة في ذات المكان، وقال في صوت لا يخلو من الاشمئزاز رغم انخفاضه:

- سيد عصمت، نحن هنا.

هبط السيد من السيارة، وتوجه نحو المحل القريب، ربما لا يكره سائقه كثيرًا، في الحقيقة هو يحترمه، والاحترام لا يتنافى مع الكره أبدًا، بل أحيانًا هما في اطراد كبير.

حين بدأ في شرب الخمر، حين بدأ في ابتياع القناني، وأخذها إلى شقة طلعت حرب أمره يومًا بشراء ما أراد.

غاب غريب لحظات، وعاد بيدين خاويتين، سأله لحظتها لما عاد؟! «هل رفعوا السعر؟! هل نسيت ما قلت؟! أتريدني أن أكتب لك الأسماء في ورقة؟»..

بقي ينظر إليه لحظات، ثم قال ما لم ينسَ حتى الآن، قال، ورأسه مرفوع:

«سيد عصمت، قبل أن أعمل سائقًا لديكم كنت مؤذنًا كما تعلم، لا أحمل الخمر، وإن كان لك، أفعل أشياء كثيرة، أنتظر كأمس غل بيت، أعلم ما يدور فيه، لكن إلا أن أحمل الخمر».

بقي مشدومًا لحظات يفكر، وينظر إلى كفه الممدود نحوه بالنقود ومفاتيح السيارة، لا يريد أن يفعل ويغضب ويطرده، فهذا يفتح عليه أبوابًا كثيرة هو لا يريد مجابته.

شعر لحظتها أنه يحترم الغريب كما يدعونه، أرخى عينيه، ثم فتح باب السيارة؛ ليلتقط منه النقود ويمضي نحو محل الخمر قائلًا:

«ادخل سيارتك يا مكين!! ليست الخمر أعظم الذنوب، ولا النساء في هذا الزمن يا رجل!!».

منذ ذاك اليوم، وغريب يقف في سكون في ذات المكان؛ ليهبط السيد، ويعود حاملاً قناني خمره، ويتحاشى كلاهما النظر في عيني الآخر عندها، حتى لا يذكر أحدهما لحظات لا تُنسى!!

حين عاد الغندور، ودخل إلى السيارة واضعاً قنانيه إلى جواره، ابتسم في مرارة، ليس غريب وحده الأحق المجنون.

من يبيعون الخمر دوماً يضعونه في أكياس سوداء رغم كون محلاتهم في الشارع مفتوحة والأضواء على أبوابها تخطف الأبصار.

يضعون قناني الخمر في أكياس سوداء لئلا يراها أحد، بينما يمشون في الأرض برؤوسهم الأكثر سواداً وظلمة دون خجل أو خوف.

حين وصلت السيارة إلى شارع «طلعت حرب» في منطقة وسط القاهرة، وحين غادر سيارته أمام باب إحدى العمارات القديمة، نظر بطرف عينيه إلى سائقه الذي هز رأسه في هدوء كأنه يخبره أنه يعلم ماذا يريد.

في طريقه إلى باب البناية كان يهمس في هاتفه الصغير قائلاً:

- أحضرت الخمر معي والمزات يا إلهام، أديرى الموسيقى وأشعلي الشموع ولنحتفل!!



ليست كل الليالي سواء..

قد تشترك الليالي في ظلمتها، في بردها، أو دفئها لكن هناك شيئاً كبيراً إن حضر أصبحت الليالي شيئاً آخر.

شيء غاب عن قلبها الصغير منذ أعوام، شيء ما بقي منه شيء إلا هذه الأشلاء الصغيرة التي تخبئها في حذاء «البونتييه» ومايوه «اليوبار» وكولون التمرين..

شيء ترى منه ظلالاً غائمة في عيون شاهيناز مدربة الباليه في مدرسة «مصر للغات» وتحلم أن تراه في عيون عميدة معهد الباليه.

ما زال أمام يسر الكثير لتضمها إحدى الماجدتين!!

«ماجدة عز الدين»، أو «ماجدة موسى» رائدة مصر للغات.

ما زال أمامها حفلات كثيرة تؤديها، ومسابقات كثيرة تدخلها؛ ترى إحداها إلى صدرها تضمها..

فلتنس عناقهما هذه الليلة؛ ولتكتف بهذا الشيء الذي أطل على ظلمة ليلتها..

الفرح!!

هل يسكنها الفرح حقاً، أم حملته أمها معها في حقائبها يوم رحلت؟!!

حصلت على بطولة الباحة، تحررت من رائحة «الكلور» التي ملأت أنفها وأنفاسها، واندست بين أنسجة جلدها، هل حقاً هي بهذا النجاح فرحة؟!

بطرف عينيها الواسعة، نظرت يُسر إلى الساعة الموضوعة على جدار غرفتها.

يجب أن تنام!!

نامت ليالي كثيرة طويلة في موعدها، تريد أن تبقى متيقظة قليلاً. تريد أن تحتفل بانتصارها وتحررها.

نهضت عن فراشها الصغير، ورفعت يديها الصغيرتين مرتبة سريرها، وأدخلت ذراعها إلى منتصف السرير؛ لتسحب كيساً بلاستيكيًا، أخرجت منه كيساً صغيراً وردياً من الحرير الخالص المنقوش.

في عينيها تترقرق دموع قاومتها بقوة.

لن تبكي هذه الليلة، هذه الليلة فقط لا تريد أن تبكي، وهي تضمه إلى صدرها.

لكن يبقى الدمع أكبر خائن تحتضنه بقوتك كلها في عينيك، ليغادر وقت ترجوه البقاء!!

من خلف الدمعة التي سقطت على وجنتيها معلنة خيانتها لعينيها، فتحت كيس الحرير الصغير، وأخرجت قطعة الذهب الصغيرة التي تخبئها بداخلها منذ أعوام.

وضعتها في كفها، ونظرت إليها في لهفة، وشهقت شهقة بكاء كبيرة، جيوش من الدمع أعلنت عليها العصيان.

عادت تحاول أن تنظر من خلف سيوف الغادرين ورماحهم، هو قرط من الذهب كل قطعة من قطعتيه من الذهب الخالص المصبوب على هيئة حذاء «الباليرينا» تخرج منه شريطتان صغيرتان من الذهب على كل شريطة منهما حجران من الألماس الصغير، لم ترهما يفارقان أذني «أوليجا» يوماً حتى كانت تلك الليلة.

الليلة التي تغيرت بعدها كل الليالي.

كانت هنا على هذا الفراش تنام، طفلة في الثامنة من عمرها، أيقظتها أمها في الثلث الأخير من الليل، وبعد أن فتحت عينها في ذهول، وضعت الأم كفها على فمها الصغير، وهمست في ذلك الظلام الدامس تخبرها أنها تحبها كثيراً..

لم تفهم أبداً، حاولت أن تحرر شفيتها من كف أمها لكنها لم تستطع، عادت تخبرها أنها سترفع كفها عن فمها فقط إن وعدتها بعدم الحديث..

أرخت جفניה، كأنها تعدها بالصمت، في تلك اللحظة رفعت عن شفيتها، وحملتها بقوة من كلتا ذراعيها لتجلسها على حافة فراشها..

بدأ الذعر يسكنها حين رأت أمها تبكي للمرة الأولى في أعوام عمرها الثمانية آنذاك..

نظرت إليها، وأمسكت بوجهها بين كفها الباردتين، وهمست تقول:

- أحبك كثيرًا، بحجم ما أحببت الباليه، بحجم ما أحب وطني
وأشواق إليه، لا شيء عندي أمنحك إياه سوى وعد بأن أعود، سأعود
يومًا، وأحكي لك قصتي كاملة.

لم تفتح فمها بكلمة، وكيف تفعل؟ وقد وعدت أمها بالصمت..
كانت تستمع إلى همسات أمها، وتشعر أن دخانًا كثيفًا يخرج من
حروفها..

رأتها تمد أصابعها إلى أذنيها، وتخلع هذا القرط الذي ما فارق
أذنيها يومًا، وضعت في كفها الصغير، وعادت تهمس:

- هو هدية أمي، احتفظي به، عديني أن تحتفظي به، وعديني أن
تكوني صديقة مع نفسك، وحده الصدق مع النفس فيه القوة والنجاة،
هل تعديني؟!

عندما هزت رأسها بالإيجاب، ضمتها إلى صدرها، وهمست تقول:
«قولي أعدك يا أمي، قولها!!»

حين رددت كلمات عهدها لها، نهضت الأم عن فراشها، ثم عادت
إليها تقول:

- اسمي ليس أولينجا، أنا ناتاشا بافلوف، بريئة من كل الذنوب عدا
ذنب الغباء، احفظي عهدك، وسأجذك، ومستعلمين الحقيقة يومًا، كما
وعدتني أعدك، عودي إلى فراشك، ولا تغادري غرفتك الآن أبدًا، هل
تفهمين؟!

لم تكن تفهم لكنها هزت رأسها في خوف، وانزلت على فراشها
لتُخَكِّمَ أمها حولها الغطاء.

حين وضعت قبلة على رأسها، شعرت بدمعها يبيل جبهتها، همست
عندها تقول «أحبك كثيرًا».

كان عناقها في تلك اللحظة أقوى من كل عناق أعوامهما معًا،
وهمست تردد عليها:

«اسمي ناتاشا بافلوف وسأعود، في الغد القريب أعود!!».

غابت أمها في الظلام، ولم يبق منها سوى آثار دمعاتها على جبهة
يُسْر، وهذا الكيس الوردي الصغير.

غابت هي أيضًا في النوم بعدها بقليل.

غابت، وعندما عادت في الصباح، علمت أن أمها ليست في المنزل،
ساعدها والدها في ارتداء ملابسها، حين سأله عنها لم يجب، وعندما
أعادت السؤال أخبرها أنها ستجدها عند عودتها من المدرسة...

ظنت أن هذا ما كانت تعنيه أمها عندما قالت في الغد أعود.

غد أوليجا بعيد، أبعد مما كانت تظن!!

ثمانية أعوام مرت وانقضت، وغد أمها الذي أخبرتها عنه في الظلام
لم يأت بعد.

عند عودتها من المدرسة، كان في البيت ريح مسمومة لم تفهمها.

عند عودتها مع أحد جيرانهم، وجدت غريب يجلس في صالة البيت، وأيضاً عمها بهجت يجلس ورأسه مُتَّكس على الأرض.
كان واضحاً أنه غاضب وحزين، كأنهم بفأس اجتثوا رأسه ليتدلى فوق كتفيه.

ألقت بحقيبة مدرستها، وصاحت تبحث عن أمها.
حين فعلت رفع ثلاثتهم رؤوسهم معاً ينظرون نحوها، لا أحد أجابها سوى عمها الذي قال في هدوء:

- ماتت أمك، وتم دفنها، وأنت في المدرسة!!

كأن الفأس ضربت رأسها هي هذه المرة، دون وعي، أو شعور
صاحت وركضت نحو غرفتها، أحضرت كيس الحرير، وعادت إليه
تبكي بكاءً مريراً لتخرج قرط الذهب..

أمها لم تمت، كانت في غرفتها، منحتها القرط الذي لم يغادر أذنيها
لحظة، ضمتها وأخبرتها أنها ستعود..

نظرت إلى عمها، وهي تنتحب قائلة:

- لم تمت، أنت تكذب!!

حين قالت تلك الكلمة، رفع كفه، وهوى به على وجهها في قسوة
لتسقط على الأرض، ويسقط قرط أمها، ويتبعثر..

ظنت والدها سيهّب ويلطم وجه أخيه، ظنته حتى يلومه، لكن لا أحد فعل شيئاً، وحده غريب تقدم نحوها؛ لينهض بها، وحين حاول التقاط قرط الماس، صاح العم يقول:

- لا تفعل، وحدها تأتي به.

استدار نحوها يأمرها أن تلتقطه من تحت حذائه.

حين تجمدت مكانها، نهض عن مقعده، وأمسك برأسها بين أصابعه، وقال في صوت هادر:

- سرقت أمك كل ما لديكم، وهربت مع رجل آخر، نقول إنها ماتت إكراماً لك ولنا، لن يسمعك مخلوق يتحدثين عنها بعد اليوم، التقطتي قرطها الملوث من الأرض، وامنحيه لغريب بيدك ليذهب الآن ويبيعه. كانت تنظر إليه في ذهول، وهي تتلوى من ألم شعرها بين كفيه، ورغم الألم، بكت تقول:

- وعدتها أن أحفظ به، إن ضاع لن أجدها، ولن تجدني..

عاد بجبروت الأرض، وبقسوة سكانها، يلوي شعرها بين ذراعيه قائلاً:

- تلتقطينه وتمنحينه لغريب، وتقولين «أمي ماتت».

صاحت تستغيث بوالدها قائلة:

.. لم تمت..

شعرت بكفه يلطمها من جديد، وأشار إلى باب بيتهم قائلاً:

- اخرجني خلفها، ولا تعودى إذن.. لا أحد هنا يريدك!!
صدمها والدها حين استغاثت به، أخبرها أن الكلمة لأخيه، وأن
كبيرنا إن قال؛ نطيع، وإن لم نطع؛ الموت في الانتظار!!
كان غريب يبكي في صمت، وكان العم يكرر عليها قوله، وهو
يقول:

- الآن تختارين، الآن!!

أين تذهب، هي حتى لا تعرف كيف تصل منزل مدرسة الباليه، وإن
وصلت هل حقًا تحتفظ بها؟!

سكنها خوف كبير، وكسر بهجت بلطماته وصيحاته تلك بداخلها
ما بقي من كبرياتها، انحنت تلتقط القرط، ومنحته لغريب، وصاح عمها
يسألها أين أمك؟!

في سكون قالت:

- أمي ماتت..

سقطت غائبة عن الوعي حين سمعته يطلب من غريب بيعه، والعودة
بشمه إليه!!



من يحب الإنسان؟ من يحب حقًا؟!

إن وجد من يطابقه في كل صفاته أصابه الملل، وإن صادف من يضاده في كل شيء قتله الضجر!!

حين ولد عصمت، كان هو في العاشرة من العمر، كره أخاه منذ اللحظة الأولى..

في البداية كره هذا المخلوق الصغير الذي لا يكف عن الصراخ، ولا يكف والداه عن الاهتمام به وحمله وإطعامه، وحين اشتد عوده كرهه؛ لأنهما دائماً يقفان في صفه إن بكى، ويطربان إن ضحك..

لم يأت أخوه مشابهاً له في شيء، هو على صغر سنه كان يعشق الزراعة، والركض في جمع المحاصيل..

لم يشعر يوماً أن الشمس تأكل جبهته، أو أن الجلاب الذي يرتديه كما يفعل والده ينتقص من وسامته أو هيئته، بل ما نظر إلى المرأة، أو سأل عن النوسامة يوماً!!

حين اشتد عود عصمت أصبح لصيقاً بأمه، لا يبارح ذراعيها، يردد ما يراه على شاشة التلفزيون، ويشير بأصابعه إلى شوارع القاهرة، ويوتها ويكي معلناً رغبته في الحياة على أرضها..

لم يره بهجت يرتدي الجلباب يومًا، لم يره يحمل الفأس كما كان يفعل، مرة واحدة في طفولته ذهب إلى إحدى أراضيهم الزراعية، وكاد الجرار الزراعي أن يقتله بالخطأ..

أصابته هysteria حادة من البكاء، وأقسمت أمه ألا يدخل حقلاً، ولا يحمل فأناً بعد أن كاد يموت..

ليته مات صغيراً قبل أن يحمل إليهم عار زواجه من الروسية البلهاء التي بكى كالأطفال مهدداً بقتل نفسه إن لم يتركوه يتزوجها..

هل يظنه رضى لرغبته إرضاء له؟ فعلها بهجت الغندور زهداً فيه لا حباً..

حين فكر في الأمر، رأى أن زواجه من أجنبية قد يكون أفضل كثيراً من مصرية تنجب له عشرة أطفال، ثم تستدير لتسكب في أذنيه حمماً عن نصيبه في أرض أبيهما وثروته..

بعد تفكير، رأى أن تفكير واهتمامات الروسية قد يكون مختلفاً، امرأة من بلاد بعيدة لن ترضى أبداً أن تكون فقراً، أن تحيا في «كفر الشيخ»!!

لكن يبدو أن كل النساء حين تقترب القصة من الملايين تتطابق صفاتهن..

حين أخبره أخوه بالقصة في لحظة ضعف أيضاً، وجدها في صالح عائلة الغندور لا ضدها..

امرأة هاربة وراقصة، هي امرأة ضعيفة لن تقف أبدًا، وتطالب بـمال أو ثروة، وإن فعلت يكفي التلويح لها من بعيد؛ لتعود كالغأر إلى جحر أطماعها، وتغلق بابه عليها في سكون..

لم يحب أوليجا أبدًا حين رآها، ظنّها تكون أكثر انكسارًا، كان رأسها دومًا مرفوعًا في كبرياء، حتى سرقت وهربت لم ير في عينيها دمة واحدة..

ذاك اليوم الذي جاءت وحدها إليه تشكو من زوجها، وكيف أنها عرفت أنه لا يعمل كان يومًا فاصلاً بينه وبينها..

أخبرها في قسوة أنه لا يصدق أنها ليست بالذكاء الذي توقعه فيها، لا يصدق أنها أحبت وتزوجت وعاشت رجلاً لها منه ابنة عمرها أربعة أعوام، ولم تكن تعلم أنه لا يعمل ولا يريد أن يعمل..

لم يكن يتصور أبدًا أن ترفع رأسها إليه وتخبره أنها تطلب منه تجهيز منزل لها هي وزوجها في قريتهم، وأنها مع عصمت سيتوليان أمر نصيبه في الأرض..

أخبرته أنها «مزارعة» وتعلم في شئون الزراعة الكثير..

جن جنونه، وفقد وعيه، وصاح في صوت مبحوح يسألها هل تعرف الزراعة كما تعرف الرقص؟! هل تريد أن تحيا في «دمرو» لتساعد زوجها في العمل؟ أم تراها تخشى اقتضاح أمرها وأمر جريمتها في المدينة الكبيرة..

في تلك اللحظة فقط، رأى في عينيها أطيا ف دمة، في تلك اللحظة وحدها رأى فيهما أطيا ف هزيمة، ظنها خوقاً، لكن أوليجا بعد لحظات من ذهولها، انحت تحمّل حقيبتها الصغيرة، وقبل أن تغادر بيته نظرت إلى عينيها في قوة، وقالت كذب جريح «الخطأ الوحيد أنني ظنته رجلاً»..

لم تدخل بيته يوماً بعدها، ولم يقو عصمت حتى على عتابه، لكن كان واضحاً أنها أخبرته..

نقيضه في كل شيء هو أخوه، لا يقوى على مواجهة، ولا يحتمل عبء شيء، حتى الحب الذي بكى من أجله يوماً حين أصبح بيتاً ومسئولية، مات بين يديه..

هربت منه الروسية بعد أعوام، سرقت نقوده، وهربت تاركة هذه النسخة الصغيرة منها، والتي تنسب إلى الغندور..

عصمت لا يعنيه في شيء، ولا يخيفه وجوده قيد أنملة، ما زال في جيبه نقود، وعلى بابه سيارة، هو لا يريد من الحياة شيئاً آخر..

ما أصبح يعنيه هو ابنته، ستكبر، وتزوج، وتأتي برجل ليس كأماها، لا جريمة هو هارب منها ولا عار يكسر عنقه، ستأتيه يوماً برجل قد يكون كل ما يدفعه للزواج بها علمه بثروة أبيها، قد يجعل من نفسه بطلاً بمطالبته بثروتها وثروة أبيها، وإن لم يفعل في حياتهما، قد بقيم الدنيا ولا يقعدما على رأس فريد وحيد..

يعلم أن ولده مثله قوي بصير، لكن هو لا يريد الدخول في ترهات وقصص سوداء حونه وحول اسم القندور..

حين تبلغ الفتاة الثامنة عشر يزوجها فريد..

بهجت أنشأ صغيره رجلاً لا شيء في رأسه سوى الحفاظ على أرضهم وعرضهم..

حين حصل على شهادة الثانوية العامة، أخبره في حسم أن لا جامعة ولا ذهاب إلى الإسكندرية..

الجامعة هنا في دمرو، الجامعة في أراضيهم ومزارعهم السمكية، لم يقل فريد «لا» أبدًا..

وحدها أمه قالتها..

تشبهه «قدري» في كل شيء إلا فقرها..

اختار أن يتزوجها فقيرة معدمة لتبعه كشاة ضعيفة، لكن الفقر ليس دافعاً لخلق الضعفاء..

قدري أخت لرجلين؛ أحدهما مات في محاولة للهجرة غير الشرعية على شواطئ إيطاليا، وبقيت هي الصغرى لـ «هادي» أخيها الأكبر الذي تدوب فيه حباً وعشقا..

منذ تزوجها بهجت وعيناها لا تغفل لحظة، حين أخبرها أنه لا يريد.. سوى طفل واحد، وإن كل شيء في الحياة إن كان له شريك فسد، هزت أسها بالموافقة، ولم تنجب سوى فريد..

حين أجرى له عصمت توكيل الإدارة والبيع والشراء وجدها تعلم..
حين أحضر غريب وجدها تعلم أنه لن يتركه؛ لأن ولده سيلتحق
بطب القاهرة، يقظة دوماً وعيناها مفتوحة، لا يعيها سوى جنونها
بأخيها، علّمت فريد عشق ابنته..

علمته أن يحلم بالزواج منها، ويعلم أنها تريد لأخيها الثراء، وتراه
بنصيب عصمت منه أولى..

حين وقف بهجت، وأخبرهم أن فريد لن يتزوج سوى يُسر رضخ
ولده، بينما أرخت زوجته رأسها لكنه يعلم أنها لن ترضخ للأمر
بسهولة..

ما زالت تجمع فريد بخديجة، ما زال يراها تشتري لها أشياء كأنها
ابتها التي تعدها للزواج..

يعلم أنه سيتصر، وأن يُسر متزوج ولده، لكنه يعلم أيضًا أن الأمر
لن يكون سهلاً..

لن يكون سهلاً أبدًا حتى يموت، بل يصبح أصعب بعد أن تصبح
يُسر زوجة ولدها..

المرأة التي تطابقه في صفاته تخيفه، والأخ الذي يناقضه يشقيه!!
بهجت الغندور يحمل بين أصابعه خيوطًا كثيرة، إن لم يحركها
بحساب وبصيرة سقط اسم الغندور، وهو حدث إن حدث جلل
وعظيم!!

فليبقَ عصمت وحده في القاهرة يعربد مع نائه، وقتاني الخمر حتى النهاية..

أخبره أنه سيزوج ابته لوحيده عند حصولها على الثانوية العامة، ويعود بها إلى قريتهم..

تقول قدريّة إن الفتاة لن تقبل، حتى إن وافق عصمت، لكن ثروة الغنادرة ستبقى لهم، وها هو يصنع من ولده غندور كبيرًا جديدًا..

غندور ليس فيه من ملامح أخيه شيء، أما الصغيرة، فهو يثق أنها منذ تلك اللحظة التي لطمها فيها على وجهها وعت الدرس جيدًا..

في هدوء رفعت شاهينز مدربة الباليه كفها تشير إلى الفريق شارة
انتهاء التمرين، وأمرتهم بالعودة إلى فصولهم الدراسية بعد تبديل
ملابسهم..

يستعدون لإقامة الحفل السنوي، ويجب أن تخبرهم من ستختار
للمرقص المنفرد..

حلّم كل فتاة أن يتم اختيارها لرقصة «الصولو»..

أكثر من فتاة تستحق أن تؤدي رقصة منفردة ووحدها هي تعلم أن
أكثرهن استحقاقًا هي «يُسر الغندور»..

ليس أبدًا لكفاءتها فحسب، ولكن أيضًا؛ لأنها تلمس في قلبها وترا
لا يكف عن النبض كلما لمحتها عيناها حتى خارج غرفة التدريب..

منذ وفاة أمها المفاجئة من ثمانية أعوام وشيء في عيون هذه الفتاة
تكسر..

ما زالت تذكر ذلك اليوم الذي غابت فيه وحادثهم والدها على هاتف
المدرسة يبلغهم أنه سيأخذها إلى «كفر الشيخ» ثلاثة أيام للعرّاء..

تحبها شاهيناز، تحب والدتها التي كانت تحرص على متابعة أدائها
في الباليه، بل كثيرًا ما ساعدتهم في التمرين..

كانت تخرج معها للتسوق لبسات القريق، وفي إحدى الحفلات السنوية كانت معها في كل التمارين حتى فازت المدرسة في ذلك العام بتكريم من معهد الباليه..

عادت الصغيرة بعد الأيام الثلاثة إلى المدرسة، وعندما ضمتها إلى صدرها، همست في أذنيها أنها ستكون لها أمًا لكن الصغيرة من خلف دمعة رقصت في عينيها أخبرتها أن أوليها ما زالت أمها وستبقى..

علمت أن والدها حارب استمرارها في تمارين الباليه لكنها ذهبت إلى بيته ورجته طويلاً أن يترك الصغيرة تفعل الشيء الوحيد الذي بقي لها، تعهدت له أنه أبداً لن يشعر بشيء، لن ترسل تطلب منه شراء ملابس أو أحذية..

لن تكون هناك تمارين خارج مواعيد المدرسة، طلبت منه أيضاً ألا يخبر الصغيرة بلقائهما..

لا تريدها أن تشعر أنها مميزة أو أنها تستثنى عن سواها لكن في أعماقها تفعل..

تحبها كما أحببت أمها، هي فقط تشعر أن الصغيرة لا تعرف موهبتها الحقيقية..

يُسَرُّ بالبرينا جيدة لكن موهبتها الكبيرة في صوتها، سمعتها مرة تغني أغنية علمتها إياها أمها، كانت الأغنية باللغة الروسية، لكنها ما زالت تذكر كيف تولدت روحها، وهي تسمع صوته..

ذاك اليوم كانت الصغيرة تجلس وحدها في قاعة تدريب الباليه تنتظر وباقي الفريق..

لم تشعر بها حين دخلت، كانت تغني تلك الأغنية..

لن تنسى أبداً أنها تذكرت ما يقال عن «مزامير داوود»، وارتباطها بالصوت البالغ الحسن..

حاولت كثيراً مع أوليها، ومع يُسر نفسها أن تضمها إلى فريق الغناء، لكن كليهما رفضت..

كلتاهاما بالباليه مجنونة، الأم لأنها يوماً كانت تمارسه والصغيرة؛ لأنها تشعر أنها تحقق حلم أمها الحاضرة يوم كانت والغاية يوم ماتت.. اعتدلت من جلستها وصاحت تناديها، حين رأتها تعبر الباب نحو فصلها بعد أن بدلت ملابسها وحين عادت تقف أمامها اعتدلت قائلة: - سترقصين «صولو» في حفل هذا العام، لكن أتمنى عليك لو تغنين أغنية واحدة فقط في الحفل هل توافقين؟!

كانت الفتاة تنظر إليها في ذهول، وقد تجمدت كل أوصالها وكانت معلمتها ترقبها في ذهول أكبر..

لا تصدق أنها أعلنت لها القرار، بل لا تصدق أنها أخذته، كانت تنتظر ردها على طلبها لها بالغناء، وعادت تنظر إلى وجهها الجميل، إلى عينيها الرمادية، وشعرها الأحمر الطويل الذي يقف على منتصف ظهرها، وأنفها الدقيق وشفتيها الصغيرتين..

كل شيء في وجهها يبدو كأنه تجمد..

لا تصدق أبدًا أنها من سترقص الرقصة المنفردة، حفل هذا العام كبير، ويتم نقله على شاشة التلفزيون ضمن عروض الأوبرا..

لا تصدق أنها تخلصت من عبء السباحة، وأيضًا نالت حلم عمرها بالرقص منفردة في حفل كهذا..

نظرت إلى مدرستها، ودمعة ترقص في مآقيها، وقالت:

- أغني.. بل أغني ألف أغنية إن شئت!!



نهضت إلهام عن صدره العاري، تُطلق إحدى ضحكاتها الصاخبة، واعتدل في فراشه يرقبها تضع جسدها العاري في روبر لكثرة نقوشه لا تتبين لونه الحقيقي..

استدارت وهي ما زالت عارية تخبره أنها ستقوم بإعداد وجبة العشاء، بينما يأخذ حمامه ويرتدي ملابسه، إلا أنه قال ضاحكًا:
- احضري الطعام هنا في الفراش، ما زال لدينا حديث نكملة قبل الاستحمام..

ضحكة أخرى ماجئة أطلقتها، وهي تغادر الغرفة، لماذا يصر على أن يأخذها أكثر من مرة مستعينًا بالمنشطات الجنسية..
ما زالت بعد خمسة أعوام لا تفهم عصمت أبدًا، لكن من قال أنها تريد أن تفهمه..

هو يمنحها ما يكفيها، ويأخذ منها ما يكفيه، وهذا وحده يكفي..
باتت حقًا تخشى عليه من إفراطه في تدخين الحشيش ومنشطات الجنس؛ إلا إنه لا يسمح لها أبدًا بنقاشه..
حين غابت عن عينيه، مد ذراعه، وأخرج لفائف حشيشه، ووضع إحداها داخل فمه مبتسمًا في مرارة..

بدأ الملل يسكن أوصاله من إلهام، يريد أن يستبدلها لكنه يخجل منها، لا تدخر جهداً من أجل إبعاده وإرضائه، بل إن أجمل ما فيها أنها المرأة الوحيدة التي بقيت معه خمسة أعوام دون سؤال واحد..

لن ينفيها، سيخبرها فقط أن تأتية أيام الأحاد بينما يجعل الثلاثة لأخرى سواها..

النساء كالعصير، إن كان عليك أن تشرب عصيراً ما وملته فلتخلطه بنكهة أخرى لتطيق ابتلاعه ما دمت لا تملك الانقطاع عنه..

لا امرأة اكتفى بها وكان يراها الأرض والسماء إلا أوليها!!
لماذا لا تأتي ذكرها على رأسه لحظة إلا وشعر بدمعة ترقص في عينيه..

امرأة تكلفك كثيراً، هي امرأة تحيا في قلبك طويلاً!!
لا امرأة قدم فيها ما يملك، وما لا يملك سواها، لكن أيضاً امرأة تقدم لها كل شيء وحدها تصبح في عينها لا شيء!!
ما زال يذكر كيف التقاها في ذلك المقهى في أول عام بعد تخرجه من الجامعة وانتهاء فترة تجنيده في الخدمة العسكرية..

كانت تجلس على المقعد المجاور لمقعده تحتسي كوباً من القهوة الساخنة، وكان يجلس وحيداً يفكر كيف يخبر بهجت بعد انقضاء الخدمة العسكرية أنه لن يعود إلى القرية. وأنه إن خرج بعيداً عن زحام مدينة يموت..

رآها تُخرج من جيب معطفها نقودًا لساقي المكان، وعلا صوتها في إنجليزية ركيكة تصيح أنه يجب عليه أن يمنحها باقي نقودها..

نهض عن مقعده، وذهب إليها، وفي أدب جم تدخل لفض الموضوع..

الساقي كان يسرقها، أخذ منها ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهاً، ومنحها ورقة من فئة عشرة جنيهاً نظير فئجان القهوة..

حين أخبرها أنه سيصل بالقصة إلى صاحب المقهى، نظرت إلى الساقي في إشفاق، طلبت منه ألا يفعل، وأنها ستكتفي بقبول اعتذاره وعرضه بأن يدفع ثمن مشروبها، وإعادة ورقتها المالية كاملة لها..

في طريقها إلى الخروج، سألتها لماذا صفحت عنه؟!

ابتسمت ابتسامة صغيرة جدًا تقول إنها فعلت لأنها ليست أفضل منه..

«الجميع يا صديقي أصبحوا الصوصًا»!!

حين رآها تخطو خارج المقهى شعر أن شيئًا منه غادره ليتبعها، شيئًا يريد استعادته..

ذهب خلفها ليستعيد جزءًا منه، فمنحها كل أجزائه الباقية، وحتى اللحظة ما استعاد شيئًا..

أخبرته أنها جاءت مع إحدى فرق الباليه لتقديم عروض على مسرح الأوبرا ومعهد الباليه المصري، علم أنها فقيرة وحيدة لا تملك سوى حبها لخشبة المسرح، وعشقها لمصر وسكانها..

لم تكن زيارتها الأولى لكنها كانت الأخيرة..

وقعا في العشق لأحرق الذي يجعلك تظن أن الحياة كلها في بقاء
من تحب معك..

ذهب إلى عروض الباليه، شاهدها وهي ترقص كالفراشة على
المسرح، رأى كيف يحملها زميلها على أحد كتفيه، وكيف تقف عليه
ساق واحدة على أطراف أصابعها، بينما ترفع ساقها الأخرى في الهواء
عالياً، ثم تهبط عن كتفيه لتكمل رقصتها في ثبات..

رأى كيف يصفق لها الجمهور، وكيف تحني، ثم تستدير على
أطراف أصابع قدميها، وتغيب مع أعضاء الفريق خلف الكواليس،
ورغم هذا تبقى محفورة في جفنيه كأنها من شرايين عينيه خلقت.

حين قارب الشهر على الانتهاء، وحانت عودتها إلى بلادها، وفي
ليلة سفرها اصططحبها إلى العشاء في أحد المطاعم الهادئة في منطقة
مصر الجديدة..

سألها متى تعود؟!

أخبرته في تردد أنها لا تعلم، هي أفقر من أن تتمكن من العودة
وحدها وعلى حسابها الشخصي.

رفعت عينيها كأنها تستغيث به وترجوه أن يطلب منها البقاء، أو
أنها تريد قول شيء كبير لكنها أثرت ابتلاعه في جوفها..

أرخص عينيها في ألم، يتمنى لو يكورها بأكملها ويضعها في جيب
.. لأنه حتى تغادر طائرة الفرقة الحدود المصرية، لكنه خائف.

ما زال بداخله يكره قلبها بين أذرع الراقصين ..

ما زال بعقله يرفض ثياب رقصها التي تكشف عن كل قطعة في جسدها ..

ما زال في أعماقه صوت ضخم يزلزل أوصاله يخبره أن بهجت الغندور يقتله ويقتلها إن أخبره بوجودها في خارطة أيامه ..

وضع في فمها قطعة صغيرة من اللحم، وقال هامساً:

- لا أريدك أن تتركيني ..

شعر بها تمضغ ما منحها مخلوطاً بدمعها، وأشاحت بوجهها بعيداً، وهي تسأله:

- كيف نحب؟ ومتى نحب؟ ولماذا؟!

عاد الغندور [fb.com/Safer.Elkhayri](https://www.facebook.com/Safer.Elkhayri)

حمقاء أوليحاء، أحقق هو كل من ظن أن لهذه الأسئلة إجابات، وأن الحب يبقى حباً إن استطعنا الإجابة عليها ..

التقط كفها في تلك اللحظة، ونهض بها عن الطاولة تاركين طعاماً لم يكمله، وخرج بها إلى هذا المكان ..

كان مكتب المحاماة هذا سكنه ..

جاء بها إليه للمرة الأولى، كانت أضعف من أن تقول لا أو ربما ضن أن الروسيات لا يقلن «لا» أبداً ..

في صالة هذا البيت أخبرها أنه يريد أن تنفس كثيرا ليجد أنفاسها
بعد رحيلها حوله..

وفنت تنظر حولها في سكون وسقطت دمعات صغيرة من عينيها،
كان شعرها مجموعاً كعادته فوق رأسها وللمرة الأولى وجد نفسه
يسأله عن ضوئه وملامحه..

شهر التقيا فيه كثيرا لم يلمس شيئاً منها سوى كفيها بأصابعه أو
شفتيه..

رآها تقترب منه في هدوء لتلقي رأسها على صدره وتدفن فيه عينيها
وشفتيها، بالكاد كان يفهم كلماتها الإنجليزية المتقطعة..

رغم قلة الجمل التي قالتها إلا أنه كان يشتم فيها حرائق صدق
وشوق. عندما نحب تصبح أكاذيب من نحبهم وحيًا متزلاً لا نشك في
حرف من حروفه..

عندما نحب، نراهم ملائكة أرسلتهم السماء إلى أرض أيامنا
نعلمون كيف تهبط الجنة على الأرض!!

عندما نحب ويغيب الحب، نتذكر ذات الجمل، ونضحك خجلاً
من أنفسنا، كل الكلمات إن غاب شيطان الحب نراها كانت أكاذيب
وفاعات..

عندما نحب!!

المعجزة الحقيقية أن نحب، المعجزة الكبرى أن يصبح عشاقاً!! ما
بمسانح في تلك الليلة، قالت من بين دمعاتها:

..أسافر مع الفرقة كثيرًا، تجولت في معظم عواصم الأرض، تعلمت أن للغريب الزائر رائحة مختلفة تلتف حولها الأنوف، ويكثر معها فحيح الوعود، وصوت الأيمان لكن بعد شهور، بعد أعوام يعود الزائر غريبًا، وتنفض من حوله الوجوه وتعود إلى سكان أرضها مشيخة عنها بوجهها..

تألمت كثيرًا لكن معك، معك وحدك أشعر أنني لست زائرة، وأنتك أبدًا لست صيادًا، كأنني على هذه الأرض ولدت، وبين هاتين الذراعين أريد الموت!!

ضمها في قوة حين أتت باسم الموت على شفيتها..

في الحب موت الحبيب أو رحيله هو موتك ومن ذا منا يريد أن يموت!!

أخبرها أن كثيرات مررن في حياته، وعلى جسده وقلبه، أخبرها في صدق أنه لا يعلم كيف سكنته وكيف لا يريد أن تغادر سكتها..

كانت تستمع إلى كلماته، وتحاول أن تفهم كل حرف ينطق به، شعر بها تحبس أنفاسها وتكتم خلجاتها لتسمعه..

أبعدها في رفق عن صدره، وفك مشابك شعرها ليسقط للمرة الأولى على كتفيها، ناعم غزير كشعر يسر اليوم، في حنان وضع أصابعه بمشط خصلاته..

أخبرها أنه ليس مفتونًا برقصها ولا جسدها، ليس أبدًا مسكونًا برائحة بلادها البعيدة أو خضرة عينيها..

هو فقط يراها منه خرجت يوماً، واليه عادت فكيف إذن يتركها
تسافر وتغيب؟!

وحدها ألقت برأسها على كتفيه من جديد، ووحدها أبعداها عن
صدره مرة أخرى ليقبلها قبلة طويلة لا يعلم كم طالت، أفاق منها، وهي
عارية على هذا الفراش على صدره تنام..

أفاق مذهولاً كالمجنون حين وجدها عذراء..

لا يصدق أن راقصة أجنبية جابت الأرض ما زالت عذراء، وتختاره
هو ليلة رحيلاها ليكون رجليها الأول..

في لحظة استيقظ الفلاح في عروقه، في لحظة تجسد والده بعباءته
أمام عينيه..

أخبرها أنه لن يتخلى عنها، وضحكت ضحكة صغيرة حزينة تخبره
أنها سعيدة؛ لأنها حفظت نفسها ليكون هو رجليها الأول..
وأعقب يقول «بل الأخير»..

في لحظة، دفنت أوليها وجهها في صدره العاري، وأخبرته الحقيقة
كاملة، أخبرته أنها معدسة، نشأت في أحد ملاجئ منطقة «أوبلاست»
الفقيرة..

أخبروها أنها لقيطة، وجدوها، وفي أذنيها قرط من ذهب وماس،
امت إحدى النساء بتبنيها بعد زمن، وإلحاقها بمدرسة لتعلم الباليه..

اكتفت السيدة بالإتفاق عليها، واستقبلتها في الإجازات الرسمية في بيتها..

حين انتهت تعليمها الثانوي، أصبحت راقصة في إحدى الفرق الصغيرة بلدييه. وأصبحت السيدة عاجزاً تحتاج إلى رعاية..

تركها ولدها، وهاجر بعيداً عن البلاد، وبقيت هي واقفة على أطراف أصابعها في عروض الباليه وفي خدمة السيدة..

لن ينسى أبداً كيف نظرت أوليجا إلى شارة عذريتها لحظة، ثم نظرت إليه تقول «منحك جسدي فكيف لا أمنحك الحقيقة».

عندما أكملت حديثها أخبرته أنها اضطرت للغياب عن البيت أياماً، عادت بعدها لتجد المرأة، وقد تدهورت حالتها كثيراً..

كانت أوليجا مجهدة متعبة من السفر والعروض، وكانت السيدة دوماً تشعرها أن خدمتها لها ليست حناناً أو طيبة، بل هي واجب وسداد دين كبير..

في إحدى تلك الليالي خرجت أوليجا وتركها، أخبرته أنها شعرت برغبة كبيرة في الهرب، ما عادت تحتمل صياح المرأة، وأوامرها التي لا تنتهي..

هامت على وجهها ساعات . وحادثت بعدها مدير فرقة الباليه التي تعمل فيها، أخبرها أنه يبحث عنها؛ لأنه سيحضر إلى مصر لتقديم عرض كبير ويريدها معهم..

بعد أن منحته كلمتها عادت إلى البيت، عادت وقد حزمت أمرها على جمع كل متعلقاتها، ستخبر المرأة أنها ستغادرها وإلى الأبد، ليست جاحدة لكنها تتق أن خدمتها لها طيلة هذه الأعوام كقيلة بسداد فاتة ديونها..

شيء في صدرها كان خجلاً منها، ومن قرارها، لكن شيئاً أكبر في رأسها، وعروقتها يطالبها بالنجاة بنفسها.

حين وصلت البيت وجدتها نائمة أو هكذا ظنت عندما وجدت غرفتها مغلقة، وفي الظلام غارقة..

أخبرته أنها وجدتها فرصة من السماء لتحزم أمتعتها دون صراخ أو سباب، أخبرته أنه في اللحظة التي غادرت فيها الغرفة الصغيرة التي منحتها إياها تسحب في يدها حقيبة ملابسها فوجئت بالبيدة تترنح في صالة البيت الضيقة ورأسها غارق في الدماء..

ألقى المرأة بجسدها على جسد أولبجا، وسقطت ميتة، أنها انظرتها لثموت على كتفها!! أخبرته أنها كانت تصيح في هلع لا تعلم ولا تفهم شيئاً..

كانت تخشى أن يكون القاتل في غرفة نومها وكانت تخشى أن يتركها..

حين أزعجت عنها جسدها علمت أن المرأة ماتت..

بطرف عينيها تسلمت بالنظر إلى غرفة نومها التي كان بابها مفتوحاً على مصراعيه وضوئها مشعل..

بكت تخبره أنها لا تعلم أبداً لِمَ فتحت خزانة ملابس السيدة حيث تعلم أنها تضع نقودها، ربما أرادت أن تقنع نفسها أن من قتلها قام بسرقتها..

نكست رأسها في ألم، وهي تعترف أنها وجدت بعضاً من النقود في مكانها، أخبرته أنها وضعت النقود في جيب معطفها، رغم علمها أن ما كان لدى السيدة أكثر بكثير، ولكن يبدو أن السارق ترك تلك الوريقات لإنفاء غرض السرقة.. عادت إلى صالة البيت تحاول التأكد أن كانت السيدة ما زالت على قيد الحياة لتطلب لها المساعدة.

«عيناها المفتوحة، ونبضها الغائب، وجسدها البارد أكدوا لي أنها ماتت، انطلقت كالمذعورة خارج البيت تاركة خلفي حقيبة ملابسي والباب مفتوحاً، ظننت أنني أفعل يا عصمت لأحضر الشرطة، أو أعلم الجيران، لكن كان الذعر يدب في أوصالي، ووجدتني دون وعي أو تفسير أذهب إلى مدير فرقة الباليه».

بعينها المفسولة بالدم والدمع أخبرته أنها سقطت على بابه، وحين فتح لها وأخبرته القصة أخبرها أن الشكوك ستدور حولها، حين تذكرت النقود التي في جيبها، زاد خوسها وحين جاء الصباح، علموا من وسائل الإعلام أنها متهمة بقتل المرأة، وجار البحث عنها..

أخذ مدير الفرقة كل النقود التي في جيبها، واستخرج لها جواز سفر مزور باسم «أوليغا باريشينكوف» وجاءت إلى مصر..

أخبرته في ضحكة مريرة أنه اشترط عليها أن ترقص في الحفلات التي قدمت عروضها..

هاربة بجواز سفر مزور، ومتهمة بالقتل هي حقيقتها!!
حين سألها، وكيف تنوي السفر في الغد، أخبرته أنها ليست مسافرة..
دبر لها مدير الفرقة سكن صغير في مدينة الإسكندرية، لكنها لا تريد أن تتركه، أخبرته أنها لا تريد منه شيئاً، هي فقط أسقطت عن صدرها سرها الأسود بالبوح له..

كانت تبكي في صدق، وكان يصدقها في جنون، شعر أنه عنها مسئول، أخبرها أنها لن تبحر البيت، وأنه في الصباح يتزوجها..
«ليس إشفافاً أوليها، بل هو حب وإيمان بك!!»

تلك الكلمات جعلتها تبكي من جديد، وكان ذاك بكاءها الأخير، لم يرها تبكي بعدها مرة واحدة!!

في الصباح تزوجها، قبل أن توقع العقد أخبرته أن من يتزوجها على الورق ليست هي وأخبرها أنها هي من يتزوجها أمام الله، وحده الله والضمير والنوايا أهم من الورق!!

أسبوع بعد زواجهما لم يفارقا باب هذا المكان..
أسبوع منحه ومنحها فيه ما لم يُقدّر لرجل أو امرأة على الأرض أن يعلموا بوجوده..

كان يذوب في عروقها كل صباح . وكانت تتلانى في أنفاسه كل
نية

في كل دقيقة من دقائق ذلك الأسبوع ، كان يزداد إيماناً بها ، وبقرار
زواجه منها ..

أخبرته أنها تشعر أن كل شيء ، درته السماء حتى موت المرأة بين
ذراعيها فقط لتلقيه وتشعر أنه يستحق ما دفعت فيه من ألم وخوف .

أفاق بعد نهاية الأسبوع على نفاد نقوده ، وعلم أنه يجب أن يذهب
ليفتح أخاه في القصة ، ويتسلم راتبه الشهري منه ..

كان يعلم أن كل خطب الأرض وقصائدها لن تجعل الغندور الكبير
يهتز له جفن أو يغير له رأياً لكنه حسم أمره ..

أعد مرافة كبيرة ارتكز فيها على وصية أمه به لأخيه ، أخرج بها وعوداً
كبيرة عن اعتزالها الرقص وارتدائها الحجاب واعتناقها الإسلام ..

استشهد فيها بآيات وأحاديث عن فضل الزواج ، وستر أنثى ،
وتحويل مسار حياتها إلى بيت وزوج وعائلة عوضاً عن مسرح
وموسيقى ورقص ..

ما زال يذكر مفردات خطته جميعها إلا أنه حين جلس أمام أخيه
وأكواب الشاي السوداء بعد طعام الغداء لم يجد حرفاً يقول ، هو حقاً
محام فاضل !!

بكى بكاء حاداً حاراً كالأطفال حتى ارتجفت أوصاله .

بكى وحين حاول أن يلتقط أنفاسه، ويبحث عن سر بكائه سمع
الغندور الكبير يقول في هدوء:

- ظننتك جئت تعلن عودتك إلى أرضك بعد انتهاء التجنيد، أو
طالب من قدرية أن تجد لك عروسًا من عائلة طيبة فماذا لديك؟!

لم يحاول أن يهدئه، لم يحاول حتى أن يرسم القلق على وجهه.
لكن متى كان الغندور يقلق أو يحنو..

بعد لحظات صمت طويلة، وبعد محاولات عقيمة لاستعادة جملة
أو حرف من خطبته الطويلة، لم يجد ما يقول سوى أنه عاشق ويريد
مباركته..

أخبره عن فقرها وجنسياتها وضعفها، أخبره عنها كل شيء حتى
حريمتها وهربها وختم حديثه بالاعتراف الأكبر، تزوج هو أوليغا
وانقضى الأمر، بل أُرِدِف كاذبًا أنها حامل، وما عاد الرجوع أمرًا يسيرًا!!

بعد أن أطرق أخوه برأسه لحظات عاد يرفع رأسه في قوة يخبره أنه
يعلم أنه ما عاد صغيرًا، وأن بإمكانه أن يفعل ما يريد، ثم قال في حسم:

- نحن لا نُشفي المجانين، ولا نهدي الفضالين، بل نتركهم حتى
يتوبوا إلى رشدهم وحدهم، افعل ما شئت لكن لن أتركك تعبت بأرض
أيك وأملك ما حييت..

ففر عصمت فاد من الدهشة لحظتها..

كان الأمر أسهل مما يتوقع، الأرض وحدها ما يخشى عليه والأرض
وحدها آخر ما يفكر هو في أمره..

في الصباح التالي نفذ ما طلبه أخوه، توكيل رسمي عام بالبيع والتصرف لنفسه وللغير

فليفعل بالأرض ما شاء، يثق أن أخاه يبيع روحه قبل بيع شبر واحد من أرضهم..

في الصباح التالي وبعد التوكيل الذي وضعه في يد أخيه طار إلى زوجته وحملها بين ذراعيه قائلاً:

«فلتجب طفلاً له ملامحك»!!

تأخرت إلهام في إعداد الطعام، نزع الذكريات أكبر من لفائف
الحشيش هذه الليلة..

تململ الغندور الصغير في فراشه، ونهض عنه ليضع جسده العاري
في روب أسود كان ملقى على حافة الفراش، وخرج إلى المطبخ
بتعجلها..

وجدها تجلس في صالة البيت الواسعة على ذات المقعد الذي
كانت أوليجا تحب الجلوس عليه قبل انتقالهم إلى شقة الدقي..

ابتسم في مراة، وصاح يسألها عن الطعام، واستدارت إليه تخبره
أن ما زال أمامه نصف ساعة ثم أردفت في دلال:

- لم أزد الدخول إليك، وملابسي تعج برائحة الطبخ..

هو أيضًا لا يريد أن يشم رائحة الطبخ..

كان لطعام زوجته رائحة أخرى، اشتاق إلى رائحة خبز «الجودار»
اشتاق إلى وجبة «أوخا» و«بليني» التي كانت تعدهم مساء كل جمعة..

مر من جوار إلهام، وخرج إلى شرفة الصالة الكبيرة، ألقى بجسده
على مقعد البامبو القديم، وأخذ يطل على ميدان طلعت حرب..

كان شيطان الحب مهيمًا على رأسيهما..

كان الأرض اشتعلت بقناديل من نور ونار في لحظة..
أخذها إلى الإسكندرية في شقة العائلة المظنة على بحر المتوسط بعد
استئذان أخيه..

سبع ليال قضياها هناك كأنها أسطورة من أساطير الإغريق القديمة..
في طريق عودتهم إلى القاهرة عرج بها إلى «دمرو» كفر الشيخ،
أخبرها أن نفع شيئاً تغطي به رأسها، وفعلت دونما اهتمام..
في بيت الغندور الكبير، انحنى أمامها يقبل يد أخيه الذي لم ينهض
عن مقعده لمصافحة العروس..

انحنى أوليها قبل رأسه هي الأخرى ودججها بنظرة غاضبة
مستنكرة.

أطلت قدريه وولدها وشعرت ألا أحد يحبها، واقتربت من زوجها
تلتصق به كأنها قطعة خائفة.

كان يظن أنهم يبيتون ليلتهم هناك نكن كان واضحاً أن كل سكان
المنزل يتعجلون رحيلهم.

وضع الغندور الكبير في يده مظروفاً به نقود، وأخبره أنه سيرسل له
سائق ليكون في خدمة زوجته متكفلاً هو وراتبه وسكنه.

للك عندي مبلغ شهري يكفيكما، فلما أعلم أنك ما زلت دون قضايا
ودون عمل!!

هي أيضًا شعر بها تختنق وتتعجل الرحيل.

في طريق العودة، أخبرها بقصة السائق، والمبلغ الشهري، امتعض وجهها قليلًا، لكنه أمسك بكفها يضع عليه قبلة، ويخبرها أن أخاه لا يتصدق عليه، هو ماله وإرثه الكبير..

كل شيء في حياته معها يؤكد صحة قرارهما..

تلك السعادة، ذاك الوهج، مولد يُسر.

متى بدأ يخبو كل شيء؟ متى اكتفى شيطان الحب منهما، ومن التجول في عروقهما؟ متى أصبحت تعبئة؟!

حين زاد التصاقها بابتها، حين أصبحت أكثر صمتًا ووجومًا، حين بدأت تسأله متى يعمل؟ ومتى حقًا يصبح محاميًا؟!

لا مشكلة في التقود، لا مشكلة في شيء أبدًا، سيارة جديدة و«غريب» كالعبد الأخرس يعمل دون ملل، طفلة جميلة رقيقة.

أتقنت اللغة العربية؛ ورغم هذا علّمت صغيرتها كثيرًا من مفردات الروسية.

ما زال حقًا لا يذكر متى بدأت النهاية.

حين تصمت الزوجة، حين تهجر فراشها، وتغفو إلى جوار ابتها، حين يزاد نفور المرأة من زوجها يزاد التصاقها بأبنائها.

لم يفهم لكنه بدأ يرى في عينيها دمة متحجرة، بدأ يطل من عينيها شعاع احتقار كبير له..

كثيراً ما كان يعود ليجدها في غرفتها ترتدي ثياب الباليه القديمة وترقص مع ابنتها.

لم يكن في البداية يعترض لكنه مع الوقت، ومع العام الرابع من عمر ابنته، بدأ يصيح ويأمرها ألا تزرع في رأس ابنته قصة ماضيها القديمة.

بدأ الاثنان يتنازعان الصغيرة، هو يأخذها إلى تمارين السباحة وأوليجا ترقص بها في البيت، وفي معهد الباليه والمدرسة، أصبحت هناك حرب شرسة غير معلنة بينهما حتى جاء اليوم الذي وجدها تنتظره فيه في فراشه لتعلن أنها تريد العودة إلى الباليه.

ظنها تمزح لكنها لم تكن.

صرخ ورفض، هدد وتوعد.

ذهبت المجنونة دون أن يعلم إلى «دمرز»، ذهبت إلى الغندور الكبير تخبره أنها ما عادت تطبق الحياة مع رجل لا يعمل، أخبرته أنها لم تعد تستطيع أبداً أن تقاوم رغبتها في العودة إلى عملها..
جن الغندور الكبير.

كان قاسياً عليها، أخبرها أنها تزوجت أخاه، وهي تعلم أنه لا يعمل، ويعتمد على ثروة والده وقيام أخيه عليها، أخبرها أنها إن عادت إلى عملها كراقصة فوحده من ينتقم منها ويمزقها ويحرمها ابنتها.

لم ينس أبداً أن يسألها كيف ترقص وهي هاربة من جريمة، لم ينس أبداً أن يتهكم متسائلاً إن كان حكم بالبراءة صدر، أم أنها نسيت أن زوجها الذي جاءت تشكوه وحده من الإعدام أو السجن أنقذها..

حين عادت في تلك الليلة، وبعد أن قصت عليه كل ما دار بينها وبين الغندور الكبير يذكر جيدًا أنها اختتمت حديثها قائلة:

- هي السقطة الثانية عصمت، الأولى كانت حين ارتضيت أن تحيا بلا عمل، وسقطت اليوم حين علمت أنك لم تحتفظ في صدرك بسر لم أخبر به سواك، سقطة أخرى وتموت رغم أنني أراك في أنفاسك الأخيرة.

لم يهتم بما قالت، وإن شعر بشيء من الغضب مما فعله أخوه، لم يصدقها، أين تذهب؟! هي كما أخبرته يومًا وحيدة هاربة ضالة..

كان يعلم أنها تتألم، لكنه كان يراها وحدها من تبحث عن الألم، ماذا يضيرها إن كان لا يعمل ما دام يوفر لها بيتًا وسائقًا ونقودًا، ماذا يفعلها للمغامرة والعودة إلى الرقص، وهي التي تنام كيف شاءت، مسحو متى أرادت..

كان يرى حزنها تمرّدًا، ونظراتها جحودًا كبيرًا، ونكران جميل!! ضاع الحب حقًا حين صدق هو أنه كان إحسانًا وصنيعًا عليها أن .. به عليه!!

امتنعت عنه تمامًا، وفي إحدى تلك المرات التي حاول الوصول إليه، جسدها دفعت كفه بعيدًا عنها وقالت في ألم:

احتاج استعادة احترامي لك أكثر من استعادة حبي وتوهجي.

مر حته الكلمة، بل ضربته في مقتل..

بعد مناقشات، اشترى له الغندور الكبير شقة الدقي، وانتقلا إليها لينحول هذا المكان إلى مكتب..

أخبرها أنه سيمارس المحاماة، أخبرها في مرارة أنه يفعل؛ لأنه يريد احترامها، ويفتقد غرامها وتوهجها..
النساء مجنونات حقًا..

في لحظة، وبعد انتقالهم وخروجه إلى المكتب، عادت رائحة خبز الجودار تملأ البيت، وعادت تنتظره في الليل وتحتضنه إلى صدرها، وتسقيه من جسدها..

لكن شيئًا ما تغير بداخله، كان يشعر أنه حب مشروط مدفوع الأجر.. هي تفعل؛ لأنه وعدها بالعمل، ولم يستطع أبدًا أن يعمل..
العمل ملل كبير، محاكم في الصباح وعملاء كاذبون ومجرمون في المساء..

عصمت لا يريد هذا الألم ولا يحتاجه، بل شعر أنه ما عاد يريد منها احترامًا ولا يحتاج حنانًا.

خداع زوجة هو أعظم وأصعب من خداع أمة بأكملها، بدأ يعربد النساء ويوهمها أنه يعمل..

كان حريصًا إلى أبعد الحدود لكن شعر أنها تعلم..

وحدها تركت غرفتها، وعادت إلى فراش ابنتها من جديد، وحدها
عرفت عن خبز الجودار، ولمس العطور حتى كانت تلك الليلة التي
عاد فيها من إحدى سهراته ليحدها في انتظاره.

كانت تجلس على مقعد في غرفة نومهما التي خلت منها.

حين دخل وأشعل الضوء نظرت إليه وقالت:

- أنت تكذب وهي السقطة الثالثة والأخيرة!!

غريب هو شأنك مع زوجتك..

تردها، تخونها، لكن تكره تمامًا أن تطلب الرحيل، أو تواجهك
معرفة بالحقيقة..

حاول الإنكار لكنه اعترف، حاول اتهامها بأنها السبب لكنه رجاها
أن تصفح..

في طريقها إلى غرفة ابنتها أخبرته ألا عودة..

تأن السماء وحدها تكفلت بغزل الفصل الأخير..

في الصباح التالي لتلك الليلة الدامية سقط وحيد غريب في حادث
الجامعة، ورأى امرأة أخرى غير باكية الأمس، أخرى غير الفراشة
التي عاشها زمناً..

أى أوليغا جديدة تركض مع غريب إلى المستشفيات، وتتابع مع
دروسها، وتمارين الباليه وتمضي الساعات تتحدث في الهاتف
مع إشغال حرائق في قضية عبدالرحمن..

حاول كثيرًا أن ينهرها لكنها حتى لم تعره إنصافًا أو اهتمامًا، بقيت عنيده صامدة حتى موت عبدالرحمن وفي لحظة أخرى انطفأ كل شيء. حين أغلقوا القضية، وقلبوا الأوراق، وأعادوا توزيع التهم والمسئوليات، وحين تحول كالعادة غريب وولده من ضحايا إلى متهمين، قال لها متهمكًا:

«أخبرتك أن تتعدي، هذه هي مصر يا أوليجا».

لن ينسى أبدًا تلك الجملة التي قذفتها في قلبه قبل أن تختفي من حياته وحياة ابنته..

نظرت إليه أوليجا بعد جملة تلك وقالت:

«ظننت مصر عنك تختلف!!»

همَّ تلك اللحظة بلطمها، لكنه تراجع فعلى وجهها كان يأس أسود أكثر قوة وشراسة من كلماته وكلماتها، وكانت تلك آخر كلمات سمعها منها..

في الصباح، علم أنها هربت، وتركت كل شيء حتى ابنتها..

كان يعلم منذ البداية أنها يومًا لن تهرب بها، وهي الهاربة التي تحمل اسمًا غير اسمها..

سرقته، وغابت، وبقيت الذكرى تشعل في ضلوعه حريقًا كل ليلة..

استعاد توازنه بعد أيام من رحيلها ليصبح رجلين في جسد واحد، يأتي هنا ويقيم سهراته وجلسات القمار والخمر والنساء، ويغادر في الرابعة أو الخامسة صباحًا! ثم انتبه إلى تمارين السباحة، ثم إلى

المدرسة، ويعود لينام حتى موعد عودتها، ويتناولان معاً طعام الغداء مع كلمات قليلة..

يُسّر هي الأخرى قطعة من تلك الجبارة الصامتة، يأخذها عصرًا إلى مزيد. من التمارين على أن يعود بها إلى البيت قبل الثامنة لتنتهي فروضها المدرسية وتنام..

لم يضحكا يومًا معًا!!

لا هو يعرف كيف خارج هذا المكان يضـحـك؟ ولا ابته بعد رحيل أمها يومًا رآها تفعل..

الأخطاء الصغيرة دومًا تنجب خطايا بحجم الروح والقلب، سقوطه في حب أوليغا كان خطأ صغيرًا، لكن تمسكه بها وإنجابه منها خطيئة قتلت فيه الروح والقلب..

استعاد عصمت نفسه على صوت أبواق السيارات ونظر إلى تمثال طلعت حرب..

ما زال يذكر كيف كانت ترقص حوله عند عودتهما في المساء على أطراف أصابعها في حركات سريعة..

كان كل شيء تفعله يسعد قلبه، ويرسم على روحه ضحكة، وأصبحت نفس أفعالها تثير في رأسه غضبًا واشمئزازًا، هو الحب إن غاب وإن حضر..

كل امرأة بعدها ليست مثلها، وكل ليلة تأتي كليلة ذهبت، ما عاد هو نفسه أبدًا..

رحل يستعين بالنساء على المخدرات، وبالمخدرات على النساء.
هو رجل كان يوماً، وما أصبح كما كان!!

في ألم ومرارة، نهض عن مقعده، وفي طريقه إلى الداخل، وجد
إلهام تعد المائدة، وقال في ألم:

- لا شهية عندي لشيء، سأرتدي ملابسي وأمضي!!

بطرف عينها نظرت إليه، ودون سؤال عادت بالصحن الذي في
يدها إلى طريق المطبخ من جديد..

حسناً فعل الغدور. ستأخذ كل ما طهته إلى بيتها وتغتمه مع أمها
وابنتها!!

بعد لحظات رآته يغادر البيت، وحين سأله إن كان يريد لها في الغد
لتعوض له عشاء الليلة ابتسم في حزن، ثم ضمها إلى صدره قائلاً:

- لا أنت ولا الحشيش عاد لكما نفس القوة، فلنأخذ وقتاً عليك وعله
تستعيدان قوتكما..

تركها وشهقتها الكبيرة وحدها، وعلى سلاّم البيت، إنان يسأل
نفسه كيف لسارقة هاربة ظن أنه زهدها ونسيها حضور أقوى من امرأة
تداعب أعضائه، وحشيش يتغلغل في خلايا رأسه وجسده!!

لا الحضور أعزّه، ولا الغياب هزمها!!

كم بات يكرهها عندما أيقن أنه ما زال حقاً يحبها!!

في الطريق إلى البيت كان عصمت ما زال يستعيد ما بعد الليلة الأخيرة..

حين وجد خزانة ملابسها خاوية، وخزنة نقوده مثلها، علم أنها تركته إلى الأبد..

أرسل ابنه إلى المدرسة في هدوء، وحين خرجت من المنزل لم يجد ما يفعله سوى أن يحدث أخاه، وبكى يخبره بما فعلت..

ثمانية أعوام على رحيلها، ثمانية أعوام على يد أخيه التي لطمت وجه ابته، ويعد أن هدا الغضب ونامت الثورات، علم أنه ما زال يحبها وأنه يشتاقها حتى الجنون..

قليل من البعد يكشف كثيرًا من الأسرار والحقائق!!

نم تعد أو تتصل حتى تحاول الاطمئنان على ابنتها، وهكذا أصبح عصمت رجلين..

أبا قاسيًا متجهًا يعلم أنه وأخاه ألقيا في قلب الصغيرة رعبًا لا ينتهي إلا أنه يثق أنه بهذا يحميها ويمنعها عن ذكرى اللصة التي تدعى أمها..

بعيدًا عن يُسر هو مع إلهام وشبهاتها، يدخن الحشيش ويمارس الجنس، ويعود مع خطوط الفجر الأولى إلى بيته..

ينتظر قدوم الصباح ليأخذ صغيرته إلى تمارين هي كل ما يفعله لها
أو يصنع لها ساندويتش المدرسة، ويضع يدها في يد غريب، ثم يلقي
بجسده على فراشه، ويكي شوقاً إلى أوليجا وندماً على غيابه حين
أغلق أذنيه عن صمتها وأغلق عينيه عن انكسارها..

أصبح رجلاً ممزقاً بين رجل يتمنى لو تعود ويصفح عنها، ورجل
يكره أن يتذكرها، ويتمرغ بين أجساد النساء علّه ينسى ملمسها
ورائحتها..

لفائف الحشيش تجعله يتم لكن ليس أبداً كابتناماته، وهي بين
ذراعيه حتى في أيام تحولها وجمودها..

منشطات الجنس التي يتعاطاها تجعله يظن واهماً أنه كما كان وهي
بين ذراعيه..

لكن لا لفافة ولا قرص أبداً كان اسمه ولونه لهما عليه تأثيرها..
دمعة أخرى رقصت في عينيه، وهو يرقب الشوارع التي كانا يمشيان
فيها معاً!!

رقصت يوماً أوليجا حوله فيها، وهو ينظر إليها في حب وفخر،
كيف تحول كل ذلك إلى عار وحرب؟!

انتفض جسده عندما أفاق على نفسه يفتح باب بيته، عليه أن يضع
قناع الأب الوقور الحاسم..

لا شيء يحرك فيه شيئاً، أخذت أوليجا كل الأشياء معها وغابت..

علم وتعلم وبقي رصيده رغم كل العلم صفرًا..
حين دخل إلى بيته رأى يُشر بقميص نومها في صالة البيت..
حين وقف أمامها دججته بنظرة كتلك التي كانت ترميه بها أمها،
وقال في سكون:

- ارتدي ملابسك، غريب في انتظارك..
كبرت الصغيرة، ويظنها تعلم ما يفعله أبوها، لفائف الحشيش،
وأقراص الجنس كلها مغشوشة حتى طفلة مثلها باتت تكشف أمرها،
وإن كانت بلا تأثير..



أخبرته أنه ما زال أمامها أكثر من نصف ساعة حتى ينتهي درس الفيزياء، وتهبط إليه وأجابها أنه سيظهرها أسفل البناية بعد أن ينتهي من غسل السيارة..

تجاوز عمره الستين، لم يعد حتى يقوى على الانحناء لغسل عجلات السيارة، حمل وعاء الماء المتسخ، وصاح منادياً حارس العقار الذي أخذه منه ليرده إليه..

حين طوى بعض الجنيحات، ومنحها إياه ضحك الحارس الشاب قائلاً:

- هل صدقت أنك مالك السيارة؟! أنت مثلي أيها العجوز، ضع قروشك في جيبيك، نحن لا نمد أيدينا لمن يتصيبون عرقاً مثلنا!، نعرفهم ونشتم راثحتهم «لأنهم مثلنا».

جفف غريب العرق المتصبب من جبهته، ونكس رأسه راعياً بجسده على مقعد القيادة..

لم يعد يريد العمل أكثر من هذا.

كيف يترك يُسر؟! لمن يتركها؟!!

لهذا السكير العرييد يذبحها كما ذبح أمها، متى تأتي لتحرره من عهده لها؟!

يوم تعود ير حل ليعود إلى بلده ويبقى ساجداً يستغفر ربه عن كل فئاني الخمر التي يأخذها لشرائها، يستغفر ربه عن انتظاره تحت مكتبه، وهو يعلم أنه يضاجع العاهرات، أو يلعب القمار مع أصدقائه.. كلاهما خبيس!!

الغندور الصغير يهبط إليه بنجامته ورائحة الخمر تفوح من ثنانيا ملاسه ليدخل السيارة لاعباً دور السيد الوقور، وهو يفتح له بابها لاعباً دور السائق الأمين الأحمق..

لم يكن يعترض حين حضر ليعمل لديه، بل لم يكن لديه الوقت ليعترض أو يقر، كان كل رأسه وروحه بوحيده معلقة..

سيف ألم يشق صدره، وهو يتذكر «عبد الرحمن» ولده حين بلغ الثامنة عشرة من العمر..

كاليد كان عندما حصل على الثانوية العامة بتفوق كبير، تم قبوله في طب القاهرة..

«طب الإسكندرية أقرب لنا يا ولدي»!!

لكن أخيره وندة أن طب القاهرة أفضل، هو حنم أن يتخرج من القصر العيني..

بكت جليلاً رافضة أن تترك وحيداً في المحروسة يسكن وحده..

من يرعاه؟ من يغسل ثيابه، من يطهو ويعد له أكواب الشاي بالتنوع التي يحبها حتى يستذكر وينجح ويصبح الدكتور عبدالرحمن غريب.. كان وقتها سائقًا لإحدى سيارات بهجت الغندور التي تنقل محاصيله الزراعية إلى المخازن أو منها إلى التجار..

أخبر سيده يومًا عن قصة ولده، وصاح بهجت يخبره بأن السماء تحبه وتحب ولده كثيرًا..

أخبره أن أخاه الصغير تزوج وب حاجة إلى سائق، أخبره أنه سيقوم بتأجير سكن صغير له هو وزوجته وأيضًا ولده..

سيبقى غريب سائقهم حتى تنتهي السبع سنوات ويتخرج ولده..

بكت جليلة حين علمت وطار ولده من الفرح..

كان يعلم أنه يقدم تقريرًا شهريًا للغندور الكبير عن أخيه وزوجته..

لم يكن أبدًا يبالي بأحدهم، كل ما كان يعنيه هو ذاك السكن الصغير الذي تم تأجيرها في منطقة «إمبابة» الشعبية..

كانت أقرب مكان إلى طلعت حرب حيث بقي الغندور الصغير مع زوجته قبل أن ينتقلا إلى منطقة الدقي بعد أعوام!!

أيضًا المكان قريب إلى جامعة القاهرة حيث يدرس الطبيب المتظر..

لم يفهم أبدًا حين رأى أوليجا للمرة الأولى لماذا يتزوجها شاب كالغندور..

نحيلة ضئيلة نادرًا ما تبسم..

رغم عجزه التام عن التواصل معها لجهلها باللغة العربية، وجهله هو بأي لغة أخرى إلا أنها فرضت عليه احترامها، ربما أكثر من زوجها نفسه..

بعد عام ولده الأول في الجامعة، كانت أوليجا أمًا تحمل يُسر على ذراعها ومفرداتها في اللغة العربية بدأت تتكون، كانت سعادته بنجاح ولده وتفوقه تكبر عامًا بعد آخر، وسعادة أوليجا تخبر شيئًا فشيئًا..

في العام الثالث، أخبره ولده أن درجاته لن تجعله طبيبًا فحسب، بل سيصبح مدرسًا في كلية الطب، أخبره أنه أصبح أكثر الطلبة شهرة رغم أنه ليس من أبناء العاملين في الجامعة..

أصبح غريب كالمجنون لا حديث له سوى نجاح ولده وتقديمه وتفوقه، أصبحت جليلة لا هم لها سوى أن تغسل معطفه الأبيض كل ليلة، وتضعه على حبل نافذتهم ليراه كل الجيران، ثم تقضي ساعة في فرده بالمكواة ليأخذه على ذراعه، ويخرج به في الصباح..

في ذاك العام، بدأ الغندور يتغير كثيرًا، أصبح قليل الخروج مع زوجته، وقليل الحديث إليها إن حدث وخرجًا معًا..

بل أصبح يجلس إلى جواره في المقعد الأمامي ويتركها تحتضن ابتها وتجلس في المقعد الخلفي..

أصبحت تخرج بطفلتها كل صباح إلى معهد الباليه، ثم إلى الأسواق لشترى لها كل ما تحتاجه من أشياء تعلم هو أسماءها وألوانها حين

كانت الصغيرة تخرجهم من أكياس التسوق أو تضر على الخروج بها من المعهد..

كان زوجها يخرج كل مساء إلى شقة وسط المدينة حيث فتحها من جديد مدعيًا أنه يمارس فيها المحاماة بينما كان غريب يعم أن من يلتقيهم ليسوا عملاء..

ليس أبلهًا أو ساذجًا، لكن ما كان الأمر يعنيه في شيء، بدأ فقط يتألم قليلاً عندما تهبط إليه أوليجا في الصباح تمسك بكف ابتها الصغير بين أصابعها، لا شيء أكثر أو أقل!!

ربما ألم آخر، وعيناه ترتطم بعينيها تدمعان في المرأة من وقت لآخر لكن لا شيء يعنيه..

ربما ألم آخر أعمق كلما رأى أعين الرجال تطاردها وتصددهم في حسم وقوة..

كان يؤلمه أن الرجل الذي يصلي الجمعة معه يسكر ويعربد، والمرأة التي تذهب إلى الكنائس وترتدي الثياب القصيرة لا تسقط في المجون أو اللهو رغم شعورها بما يفعله زوجها..

أخبر ولده مرة عنها ليحييه في ألم:

- العلة ليست في الأديان، أيها الطبيب العلة في الإنسان، العلة دائمًا في المبادئ!!

عدا هذا لا ألم آخر كان يسكنه ولا اكتراث!!

بقي يقوم بعمله على أكمل وجه..

هو سعيد والسعداء قليلاً ما يهتمون لأمر البؤساء، وكيف تبصر
البؤساء أعين غائبة في الحلم والفرح..

كما قال حارس البناية منذ لحظات لا نمد أيدينا في جيوب من هم
مثلنا، نشعر بهم ونشتم رائحتهم لأنهم مثلنا يا غريب.

لا الأثرياء يسرقون بعضهم، ولا الفقراء، أو حتى اللصوص أو
المتعساء!!

كان غريب في ذلك الوقت عن أوليجا وعصمت مختلفاً فكيف يراها
أو يمد لها يدًا!!

في عام عبد الرحمن الجامعي السادس بدأت ملامح أوليجا في
الانهيار، بدأت دمعاتها تلمع واضحة جلية، بدأت تسأله عن زوجها؟
وأين يقضي ليلته..

اعتذر لها عن الحديث، ثم استطع أبداً أن يكذب، أو يقسم لها أنه
لا يمارس الرذيلة..

رائحة الرجل كانت أكبر من التستر والأكاذيب، وكانت أيضاً تلك
معبودات الغدور الكبير الذي ظن أنه أن يتقل الصورة كاملة لزوجته،
فأر لهُ: «ما بني على باطل فهو باطل، دعها تعرف وليفترقوا، إن افترقا
عاد كل منهما إلى أصله، وأصل أخي طيب وحدها الروسية لوثته!!»
ثم استطع غريب أن يفعل: لأنه أبداً ما رآها سبب سقوط زوجها..

كان يراها صامدة قوية تزداد حبًا واهتمامًا بابنتها وببيتها، حتى جاءت تلك الليلة التي وقع فيها في حب أوليجا كما لم يظن نفسه يفعل أبدًا..

كان ليلتها أسفل مكتبه ينتظره كالعادة حتى ينتهي من سهرته، كان ينظر إلى ساعة يده يتعجل هبوطه إليه، يريد أن يلحق بولده قبل أن ينام ليرتبا أمر سفرهما إلى «دمرو» ليخطبا له العروس التي يحبها، بل اعتذر حتى عن مصاحبته لتمرين السباحة في الفجر فهو على سفر..

وافق الغندور على منحه إجازة أربعة أيام حتى ينهي قصة الخطوبة.. تمنى تلك اللحظة لو أنه ترك له المفتاح ليعود وحده إلى بيته لكنه كان حقًا يخشى أن يتركه يقود السيارة بعد انقضاء سهرته وهو مخمور، ويعلم أن هذا سر اصطحاب الغندور له في سهراته رغم أنه ورغم سكره لم يره مرة يفقد تركيزه!!

لم يره مرة يترنح من آثار الخمر، أو يردد كلمات مبتورة بلهاء كما يرى المخمورين على شاشات التلفزيون، أو يسمع عنهم لكن عبد الرحمن أخبره أنه أيا كان ثباته الخارجي فالخمر دون شك تفقده تركيزه الكامل..

غريب لا يريد أن يشعر بالذنب إن مات أو قتل بريثًا بسيارته..

كان يهدئ نفسه وهو يرى الساعة تقترب من منتصف الليل، حتى إن نام ولده وزوجته لديهم من الغد أربعة أيام يفعلون فيها ما شاءوا..

كان الجو شديد البرودة، ورغم أن جميع نوافذ السيارة مغلقة إلا أنه كان يرتجف من البرد خلف معطف الصوف الذي كان يرتديه.

حين عاود النظر إلى مدخل البناية راجياً ربه أن يرى الغندور يخرج إليه رآها هي تخرج من سيارة أجرة، وتركض نحو المدخل في جنون. بكفه البارد مسح زجاج النافذة المجاور له وعاد يدقق فيها بعينه يريد أن يتأكد مما يراه.

كانت ترتدي جاكيت خفيفاً على ثوب قصير شفاف لا يقي من برد الليل وجنونه لكنها هي.

حين فتح باب سيارته، وخرج خلفها وجدها غابت داخل البناية، ركض خلفها يناديها. هي أصغر منه سنًا، وأكثر منه خفة ورشاقة..

لم يجدها على باب المصعد، بل سمع ركضها ووقع حذائها على سلالم البيت أطلق ساقيه خلفها يناديها، لم يكن يستطيع أبداً أن يصرخ..

في البناية سكان، ورغم علمه أنهم يعلمون ما يفعله الغندور في مكتبه إلا أنهم لا يبالون ما دام لا يخرج خارج نطاق جدرانه..

رغم أن معظم الشقق نواد ومكاتب، لكنه ما زال يخشى عليها، وهي في ذاك الثوب القصير أن تواجه مخمورين ونساء كاللاتي بداخل البيت..

على تلك السلالم استيقظت حميته وصحت مشاعره تجاه أوليها التي ما كان يعرفها..

بدأ صدره يتهدج، وقلبه يفرط في الدبيب من جراء ركضه على سلالم..

حين وصل الدور الثاني حيث غايته رآها، وهو على أعلى السلالم
ترفع كفها لتهوي به على باب البيت، وصرخ يقول:

- ورأس يُسر لا تفعلها!!

حين استدارت تنظر إلى وجهه عرف أنها ما كانت تعلم بوجوده،
ولا سمعت نداءه لها..

علم أنها كانت واقعة تحت سيطرة غضبها وجنونها، وإلا ما جاءت
بشباب منزلها وجاكت خفيف كالذي ترتديه، حين اقترب منها سمع
خطوات تقترب من الباب ليعلم أنها قرعت الجرس..

ضمها بإحدى ذراعيه وركض بها بعيداً عن الباب مستنداً بها إلى
أحد الأبواب البعيدة..

لم تكن تقاوم في تلك اللحظة، بل شعر بها تلقي رأسها على ذراعه
وهي ترتجف..

سمعا معاً صوت الباب الذي فُتح وصوت أحد أصدقاء الغندور
يردد بصوت عال «من يطرق الباب»؟!

من خلف السؤال سمعا ضحكات وموسيقى وشعر بها تنتفض على
ذراعيه، كأن الرغبة في الانقراض عليهم وانتهى من جديد..

شعر بها تكاد تصرخ من بين ذراعيه، وهمس يرجوه من جديد ألا
تفعل..

حين أغلق الباب. أطلق سراحها من قبضته، واستدارت تنظر إليه
تبيكي، وتقول:

- أنت معه؟ وتخبرني أنك لا تعلم شيئاً، لماذا تكذبون؟ لماذا يا
عرب جميعاً تكذبون؟!

هز السؤال في أعماقه شيئاً، واستدار بها عائداً بظهرها بقوة إلى
الحائط، ونظر إلى وجهها الغارق في الألم، ولم يجد ما يقول سوى
كلمات ولده، قال لها:

- سيدة أوليغا، ليس العيب في الهوية، أو الدين، إنما هو عيب في
الإنسان، في المبدأ؟! أنا أحترمك كثيراً، وأرياً بك أن تدخلني إليهم، هم
عن وعيهم غائبون، وزوجك مثلهم غائب، لا تدعيهم يرون دمعاتك،
في البيت وحين يفيق من غيابه افعلي معه ما شئت، لكن أرجوك فكري
في يسر، فكري في مصيرها إن تركتني يأخذها منك، هل تتركين مصيرها
في يد رجل مثله؟! رجل بلا مبدأ!!

لم يكن يعلم إن فهمت كل كلماته، لكنه يذكر كيف انتفضت حين
ذكر اسم ابنتها، وهمست في ألم تخبره أنها يجب أن تعود تركت ابنة
الثمانية أعوام نائمة في فراشها وحيدة بعد مكالمة جاءت من سيدة
تخبرها عما يفعله زوجها.

حين خطت في اتجاه سلال البيت ذهب خلفها يخبرها أنه سيعود
بها إلى البيت، ليفعل زوجها ما يريد حين لا يجده رفضت، وأخبرته
أن سائق الأجرة ما زال في انتظارها.

رفعت أوليها رأسها إليه، ووقفت لحظة تنظر إليه، وقالت:

- عصمت يفعل بي كل هذا لأنني وحيدة، غريبة يا غريب، من يبيع
وطنه من أجل الحب تبعه الأوطان، ويقتله الحب!!

حين وصل بها إلى سيارة الأجرة تلك، وبعد أن أنقذ السلام على
سائقها أشعره أنه يحفظ رقم سيارته في رأسه، وقبل أن تتحرك بها
السيارة نظر إليها من النافذة، وقال:

- لا تباعي الصغيرة، ولا تظني أنك وحدك أبداً، الله معك، الله مع
الحق، وإن كان الحق مع الغرباء!!

عاد غريب إلى بيته تلك الليلة ليجد ولده مستيقظاً ينتظره، أخبره بما حدث، رطلب منه وحيداً أن يؤجلا سفرهما إلى مساء اليوم التالي. «حادثها في الصباح وذُهب إليها، أخبرها أنك معها، أنا أيضاً يجب أن أذهب إلى الجامعة لأخذ بعض الملازم معي، هو العام الأخير وأريد أن أتفوق لأنضم إلى أعضاء هيئة التدريس، نساfer في الليل!»

هو العام الأخير 11

هناك كلمات نقولها، ولا ندرى أن لها معاني غير ما عنيناه بقولنا.. استيقظ هو ووحيداً في الصباح الباكر.

ذهب عبد الرحمن إلى الجامعة وتوجه هو إلى أوليغا، كانت هادئة، في كلمات وجيزة أخبرته أنها لن تفعل مع زوجها شيئاً، وأنه خيراً فعل بحضوره؛ لأنها تحتاج الذهاب إلى مدرسة ابتها.

كانا في الطريق إلى مدرسة مصر للغات حينما دق هاتفه..

لا يعلم لماذا كان هاتفه مفتوحاً على عكس عاداته ساعات العمل ربما؛ لأنه كان يشعر أنه في إجازته، أو ربما لأن أوليغا فاجأته بقرار توجهها إلى المدرسة وربما؛ لأن القدر أراد لها أن تشهد ما حدث لتبدأ دروسها التي ما زال لا ينساها.

حين فتح الخط سمع صوت أيمن صديق ولده يخبره في صوت متهدج أن حادثًا صغيرًا وقع لعبد الرحمن.

غامت الدنيا في عينيه، كاد يصطدم بالسيارة التي أمامه إلا أنه أفاق على صرختها المذعورة.

أوقف سيارته على جانب الطريق، ولم يلتفت إليها، كان يستجدي أيمن أن يقسم له أن ولده بخير.

لم تكن السماء هي الغائمة، لكنها كانت أمطار عيني أب علم أن وحيدة في مكان ما وحده يتألم أو ربما يموت.

يموت؟! علا صوت بكائه، وشعر بها تفتح باب السيارة الخلفي، وتتجه نحو بابه تفتحه لتقول في لهفة «غريب، ماذا يحدث؟!»

لم يلتفت إليها أبدًا حتى سمع المتصل يقسم له بأغلظ الأيمان أن عبد الرحمن بخير لكن هو يريد أن يذهب إليه.

أمسكت بيده وساعدته على الهبوط من السيارة، ودخلت به إلى الباب المجاور، وتولت قيادة السيارة.

لم يكن يعلم أبدًا أن بإمكانها القيادة، لكنها قادت السيارة نحو المجهول الذي كان يفضل الموت على أن يحياه..

كان يرشدها إلى الطريق وفي أي الشوارع تسير..

حين أصبحت على باب القصر العيني أوقفهم مسؤولو الأمن، بكى وهو يخبرهم بسبب حضوره.

أفسحوا له الطريق لتدخل أوليجا إلى حيث أشار لها أحد الموظفين،
حدث أيمن الذي جاءه بعد لحظات ليأخذه إلى عيادة كنية الطب.

الأحمق، نعم هو أحمق كبير.

تنفس لحظتها الصعداء.

ولده بخير، أيمن لم يقل مستشفى ولا مشرحة، بل قال عيادة، وهذا
يعني أنها إصابة صغيرة.

حين هبطا من السيارة ليتبعاه وفي طريقهما إلى تلك العيادة سيرًا
على الأقدام، أشار بيده إلى لوحة كبيرة ضخمة يقارب وزنها نصف طن
منقاة على الأرض وحولها العشرات من الطلبة والعمال قائلًا:

.. هنا كنا أنا وعبدالرحمن نسير حيث سقطت هذه اللافتة عليه.

شهقت عندما سمعته، واستدارت تنظر في ذهول إلى اللافتة
الضخمة.

دُعر الأب حين رأى دعرها، وعاد أيمن يقسم أنه بخير، وأنه استعاد
وعيه، وأصبح على ما يرام.

كانت أوليجا ما زالت تقف في مكانها، وهي تسأله:

.. كيف سقط لافطة كهذه؟!

أجابها الشاب بأنها كانت تتأرجح منذ قامت الإدارة برفعها على
أحد مباني الكلية منذ أيام، وأن كثيرًا من الطلبة أخبروا الإدارة بشأن
نأرجحها وعدم ثباتها.

في خجل رجاها غريب أن تتحرك من مكانها، يريد أن يرى ولده، وقبل أن تفعل رآها تفتح حقيبتها، وتخرج منها كاميرا صغيرة التقطت بها صورًا سريعة للافقة، ولمجموعة الشباب والعمال الذين يحاولون رفعها.

أسرع بخطواته مع أيمن وتركها خلفه.

السيدة لا تشعر بنيران الخوف التي تضطرم بين أضلعه، وشعر بها تركض خلفهم وتضع يدها على كتفه قائلة:

- أعذر يا غريب!!

عيادة كلية الطب!!

غرفة صغيرة مهترئة داخل أحد مباني القصر العيني، دخل إليها وهي تتبعه في ذهول، على أحد مقاعد الانتظار رأى ولده، هو حي يتنفس!! لا شيء بعد هذا يهم، هذه المسحجات التي على رأسه لا تهم. رباط الشاش الذي يلتف حول رأسه والملون بقطرات الدم أيضًا لا تهم..

ملابسه الممزقة، عيناه المغلقتان.

ما زال يجلس على مقعد ورأسه بين كفيه لا شيء يهم، هو بخير، وحده هذا المهم!!

همس كأنه يصرخ «ولدي»!!

رفع عبدالرحمن رأسه وبعينين زائغتين رآه، وقال:

- ما الذي أحضرك، أنا بخير، بخير!!

استدار ينظر إلى صديقه في عتاب، ضمه الأب إلى صدره في حنان، وهو يكرر ألف شكر وألف حمد لله.

سمع صوت الطبيب يخرج من غرفته، ينظر إليهم ويطلب منهم أن يأخذوا عبد الرحمن إلى الخارج.

«هو بخير يا والدي، اذهبوا، هي عيادة ولا أريد فيها هذه الضوضاء». كانت أوليجا تنظر حولها في ذهول.

حين رأت عبد الرحمن يستند على ذراعي والده وصديقه وبعض من زملائه استدارت تنظر إلى الطبيب في غضب، وقالت في عربيتها المنكسرة تحت لسانها:

- أهذا ما تقوله لشاب كدتم تقتلونهُ!! ضمادة صغيرة على رأسه بعد سقوط تلك الكتلة عليه!! أهكذا تحادث والده!! لا أشعة، لا ملاحظة، هو رأس وليست قدمًا!!

استدار غريب إليها في ذعر، وقال وولده ما زال يستند على ذراعيه:

- سيدة أوليجا، عبد الرحمن بخير لم يؤذه أحد، هو القضاء والقدر!!



بكت جلييلة عندما رأت ولدها يدخل عليها، وهو على ذاك الحال..
صرخ بها غريب يأمرها أن تشكر المخلوق على عودته عوضاً عن
البكاء والصراخ.

أمسك عبد الرحمن بيده، ونظر في عينيه يقول راجياً «لا تصرخ في
وجهها أبداً، من سواك يحنو عليها»!!

كأنه كان يخبره أن أمه ستصبح وحدها، وسوى الغريب لن يكون
لها.

حين دخلا به إلى فراشه، حين ساعده على استبدال ملابسه وطلباً
منه النوم قليلاً أخبرهم بابتسامته أن كل شيء على حاله سيكون، حين
يستيقظ يذهبون جميعاً إلى «دمرو».

لم ينس عبد الرحمن أبداً أن يخبره أنه سيطلب أوليغا ويشكرها
على ما فعلت وهم في الطريق إلى كفر الشيخ.

لا هم ذهبوا إلى دمرو ولا أوليغا كانت حتى تلك اللحظة فعلت
شيئاً.

كان يجلس إلى جلييلة يهدئها، ويعيد عندها أن عبد الرحمن بخير،
وأنهم عند وصولهم يقوم بذبح كبش لنجاته.

«سمعت أحدهم يقول إن اللافطة تزن ما يقارب نصف طن يا جليلة،
كُتب لولدنا عمر جديد».

بعد تلك الكلمات سمعا صراخاً حاداً يأتي من غرفته.

في جنون ركضاً معاً إلى غرفته، وحين فتحا الباب كانت بداية
النهاية.

كان عبد الرحمن يقف في وسط الغرفة يصيح صياحاً يتمزق له نياط
القلوب ممسكاً برأسه بين كفيه.

صاحت الأم في ذعر تقول «ولدي!!»

حين أخذه بين ذراعيه، بكى الشاب وهو يردد:

- صداع يقتلني، لا أحتمل!!

حين عاد به غريب إلى فراشه سقط من بين ذراعيه، كأنه ريشة طارت
من جناحي هدهد حزين.

اقتربت جليلة ترفع ساقي وحيدها على الفراش، وأسدلت عليه
الغطاء، بينما بقي هو يتمتم بالآيات التي يحفظها واضعاً يده على رأسه.

هدأ عبد الرحمن بعد لحظات، وحين أكمل غريب قراءة آياته سار
بكفه يمسح على رأسه وشعر بكفه مبتلاً، في ذعر نظر إلى كفه، وعاد
يسبح في وجه ولده ورأسه نيري سائلاً أصفر اللون يغادر أذنيه.

اسم يقل حرقاء، بل كم حوفه في صدره، لن يشير الذعر في قلب أمه
وقلبه.

هي قطرات من ماء، ما يهم أنها ليست دمًا!!

هو الجهل بعينه يا غريب، ليس الدم وحده ما يخيف..

حتى الماء الذي هو سر الحياة قد يكون في لحظة نذير الموت..

عاودت عبدالرحمن نوبة الصداغ مرة أخرى بعد ساعات قليلة غير أنها كانت أشد.

لم يعلم ماذا يفعل، كل ما استطاع أن يفكر فيه الرجل أنه حادث أوليجا.

كان يرتجف، وهي تسأله إن وصل إلى قريته وأخبرها ما حدث وهو يبكي عن ولده.

كانت صيحات وحيدة أعلى صوتًا من ألا تعبر سماعة الهاتف، وتخترق أذني السيدة التي صاحت تأمره بأن يذهب به إلى مستشفى الجامعة، بل وإلى طبيب العيادة ذاتها.

«الامر يتعلق بما حدث في الصباح يا غريب، إياك والانتظار، إياك والانتظار!!»

كان كلماتها تلك كانت أجراس الكنيسة التي تقع خلف بيته، ركض إلى ولده وخرج به إلى الجامعة.

العيادة كانت مغلقة، ولم يجد بداً من التوجه إلى مستشفى الجامعة.

«القصر العيني!!»

لم يأخذوه لقصة صداقه أو لرؤية ذاك المندبل الألبض الذل وضمه له والده مبتلاً بسائل أذنبه.

طلب القصر العبل استقبل الشاب وأدخله؛ لأنه كان على علم بحادث الصباح.

ركضوا بولده إلى غرفة الأشعة، وطلبوا منه البقاء في إحدى تلك الردهات المليئة بقصص الألم ودمعات الخوف والوداع.

بقي على مقعد خشبي متهاك ساعات ينتظر حتى أفاق عليها نحادثه، أخبرها باكياً أنه لا يعلم شيئاً وأن جليلة في بيتها تكاد تموت خوفاً، لكنه وحده يشعر أنه بالفعل مات من خوفه وترقبه.

«لا أحد يتحدث معي سيدة أولبجا، أنا حتى لا أعرف أين أبحث عنه».

كانت العاشرة مساء حين رآها أمامه.

كيف وصلت إليه، وهو نفسه لو خرج وأعاد الدخول ما عرف كيف يصل إلى مكانه..

نهض عن مقعده الخشبي، وبكى كأيتام الحروب، وشعر بها تضمه إلى صدرها في حنان، وعادت به إلى مقعده وهي تتمتم «سأعود إليك بوندك، أنا معك يا غريب، أنا معك»!!

كانت المرة الأولى التي تضمه فيها أولبجا وما كانت الأخيرة.

كانت المرة الأولى. وكان الدرس الأول الذي علمته إياه، وتوالت خلفه منها دروس العمر

«أنا معك»، كلمة لها مفعول السحر، كلمة تلملم شتات النفس إن صوب نحوها القدر رصاصاته!!

هدأ غريب حين سمعها، جلس على مقعده، ورفع رأسه، وأخرج هاتفه ليحدث جليلاً، ويقول:

- اطمئني، عبد الرحمن بخير!!

ما عاد غريب أبداً يذكر من عمر ولده شيء.

نسي يوم وُلد، نسي يوم كبر ويوم تفوق ويوم حملوا متاعهم وتبعوه ليدخل كلية الطب.

نسي يوم أخبره برغبته في الزواج. نسي حتى يوم الحادث.

هو الآن لا يذكر سوى الأسابيع الثلاث التي بدأت منذ لحظة ظهور أوليها بعد اختتامها في ردهات القصر العيني تبحث عن وحيد، لم نعد وحدها.

<fb.com/Su7er.Elkotob/>

عادت ومعها طبيب شاب ينكس رأسه، عادت ومعها أبناء لم يفهمها جيداً لكنه ما زال يذكر حروفها وكلماتها.

الأتسعة: المقطعية أظهرت كسراً في قاع الجمجمة، مع شرخ عميق في قدة الشريان الزجاجي.

هل يكذبون؟! إلا أنه رجل بسيط لم ينل من التعليم حظاً؟! إلا أنه
سائق؟!

رفع رأسه إلى الطبيب يقول مستنكراً «شريان زجاجي؟!»
هل يهزأ منه؟!

اقتربت وجلست أسفل ركبته، وقالت:

- اسمعني يا غريب، هناك شريان يخرج من العنق لتغذية المخ،
لا بد وأنت رأيت سائل يخرج من أذني ولدك يدعى CFF هو من ذاك
الشرح!!

من خلف دموعه سألها، كأنه يسأل أمه أو سيده همس:

- ماذا أقول لأمه؟! هل يقومون بوضع الجبس حول رأسه، سيقتلها
أن ترى رأسه في الجبس!!

الرؤوس المكسورة لا جبس لها..

الرؤوس والقلوب إن كسرت لا يضمّد كسورها إلا الأيام والنسيان
لمن استطاع أن يحيا وينسى!!

نقلوا ولده إلى غرفة العناية المركزة.

بعينيه رأى أجهزة كثيرة حوله وأسلاك أكثر متصلة بكفه.

بقدميه هاتين اللتين تستندان على مكابح البترين والفرامل الآن
رحف إلى جليلة يخبرها أن ولدها سيبقى في المستشفى، وعاد بها
يجد أوليها في المستشفى وعصمت معها.

ومزلات جلييلة لرؤيته لحظات، وأخبروهم أن يغادروا المكان.

لا أحد يرافق مريضاً في العناية المركزة.

استدارت أوليجا لحظتها إلى الطبيب تخبره أنهم مكلفون بإيجاد غرفة لغريب وزوجته، أخبرته في بصوتها الهادئ وكلماتها العربية الواضحة رغم ركاكتها أن الجامعة مسئولة عن عبد الرحمن حتى شفائه، وأنها كانت تتوقع رؤية عميد كلية الطب هنا إلى جوار غريب.

لكن لا أحد بقي إلى جواره سوى أوليجا.

أخذها السيد عصمت في تلك الليلة إلى البيت لتعود في الصباح، وتجده ما زال على المقعد الخشبي المتهالك بجوار العناية المركزة وبعض من زملاء عبد الرحمن معه.

بدأت حروب أوليجا.

سمعها تطلب منهم أن يأخذوها إلى العميد.

سمعها تخبرهم أن أيًا منهم كان من الممكن أن يكون عبد الرحمن، وأن جلييلة التي تتحجب إلى جوار ولدها في العناية المركزة كان من الممكن أن تكون أم أي منهم.

كانت تتحدث إليهم في صوت هادئ لكنه قوي، كان يشعر بها في بعض الأحيان تصمت كأنها تبحث عن مرادفات العربية في رأسها، وتارة تجدها وتارة تتحدث إليهم بالإنجليزية.

في أقل من نصف ساعة تطوع ثلاثة من زملائه بالذهاب معها إلى العميد.

لم يكن حتى ذاك الوقت يفهم شيئاً لكنه في نهاية اليوم استوعب كل شيء وفهمه.

عادت أوليجا لتخبره أن غرفة خاصة ستخصص له هو وجليلة بجوار العناية المركزة.

عادت وتبعها في المساء عميد كلية الطب نفسه ورأى بعينه الجميع يرتجفون في استقباله.

لم يهتز لهم جفن لبكائه أو توسلات أمه.

لم يرتجف لهم ضلع لألم ولده، ونوبات التشنج التي بدأت تواتيه. اهتزت قلوبهم، وارتجفت أضلعهم، فقط لرؤية رئيسهم.

ربت العميد على كتفيه، وأخبره أنه سيتولى بنفسه الإشراف على حالة عبد الرحمن وأن كل من في القصر سيهتمون لأمره وأمر جليلة.

لم يفهم، تصور لغبائه أن الرجل ما كان يعلم بما حدث، وأن السيدة أوليجا حين أعلمته أقام الدنيا وما أقعدها.

أدرك الحقيقة بعد أيام.

هي التي أقامت الدنيا وما أقعدتها.

كانت تجمع الطلبة، وتقف بهم أمام مكتب العميد.

سألها عبدالرحمن نفسه في إحدى تلك الفترات التي كان يعود فيها من نوبات صداعه وتشنجاته.

سألها ماذا تريد أكثر؟!

أخبرته أنها تريد اعترافاً من الجامعة بمسئوليتها عن الحادث، أخبرته أنها لا تريد أن يتكرر ما حدث، أخبرته أن كل مسمار يثق في الحرم الجامعي هو في عنق رئيسها.

كل أستاذ يلقي معلومة خاطئة يتحمل ذنب كل من يعمل بها، كل طالب نذر عمره وشبابه للعلم والمعرفة ولا يجد منهما ما يكفيه بين أسوار الجامعة يُحاسب على تنازله عن حقه فيهما كما يحاسب رئيس الجامعة عن تقصيره في توفيرهما.

كيف ينسى جملتها تلك التي قالتها في حضور عبدالرحمن الذي بكى عندما سمعها تقول:

- تختلف أسماء الأديان لكن يبقى الرب واحداً، كالأوطان يحاسب الله رؤساءها حتى على نفوق أسماؤها إن لم يكن ماء النهر طاهراً!!!
بقي عبدالرحمن حائثاً على أمه، ممتناً لأوليها حتى اللحظات الأخيرة..

ثلاثة أسابيع يصارع الموت، حتى بدأت حرارته في الارتفاع في الأسبوع الثالث، وبدأت فترات غيابه تطول..

كان يرى الأم تموت أمامه ويرى زملاءه، وطفلات من دمع تطلق خارج أعينهم..

جاءه وافد من إدارة العمادة يعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال، أخبره أنه مساهمة من إدارة الكلية في تحمل مصروفات غريب وزوجته.

رفع حاجبه في دهشة وسأله:

- وفي أي شيء أنفق أنا وزوجتي خمسين ألف جنيه، وأنتم تعالجونهم بالمجان!!

لم يأخذ النقود، وحين أخبر أوليها رأى وجهها يتلون بالدم الأحمر نليلة رآها تركض خلف زوجها في بناية طلعت حرب، أمسكت بكفه، قالت:

- إياك أن تأخذ منهم قرشاً، أو تكتب حرفاً على ورقة يا غريب، هل مهم؟!

لا يريد قروشاً ولا يعرف كيف يكتب، هو يريد استعادة ولده.

مات عبدالرحمن في الليلة التالية بعد أن عجز كل أطباء القصر الميني عن خفض حرارته.

مات؛ لأن مجموعة من العمال قررت أن توفر حفنة من المسامير!! مات الطبيب الشاب المتفوق؛ لأن الإدارة سخرت منه ومن زملائه من ذهبوا إليهم أكثر من مرة يخبرونهم أن الالفة تتأرجح ويخشون من طها.

مات وحيد؛ لأنه صدق أن الأرض تحمله وأن السماء تظله.

بلاد غاب عنها الضمير، أرضها رمال متحركة، وغيث سمائها
غضب وحمم.

رغم حرارته التي بقيت إحدي وأربعين درجة بعد كل الأدوية التي
حقنوها في سرايينه، رغم هذيانه إلا إنه ما رُئي وجهه أجمل من تلك
الليلة، ما سمع صوته أعمق من تلك اللحظات.

كان عبدالرحمن يغيب ويحضر لينظر إلى وجه أمه باسمًا ويعدها
أنه سيشفى!!

سمعه ينادي أوليجا ويمد كفه إليها لتمسك بكفه بحنان، سمعه
يشكرها ويخبرها أنه يتمنى لو عرفها أكثر ليتعلم منها أكثر، ثم ابتسم
في صوت مرتعش يقول:

- علمتني في لحظات ما لم أبصره في أعوام، لماذا تفعلين كل هذا
من أجلنا؟!

أمسكت السيدة كف المحتضر، ووضعت عليه قبلة حانية، وقالت:
- أضمت وطني وأهلي يوم فقدت ثقتي في نفسي، معك وبقضيتك
هذه أريد أن أستردها، وأن يتردك وطنك والداك، يستحقون جميعًا
رجلاً في بهائك!!

مات البهي بعد ساعات، ولم ير جليلة تبكي على كف أحد من
أهلها وأصدقائها سوى كتفي أوليجا.

حين غابوا أياً ما في قريتهم لدفنه هناك كانت تحدّثهم كل يوم
عشرات المرات.

بهجت الغندور تكفل بكل شيء، وللحق كان سخياً في دفع مصاريف الدفن وسرايق العزاء.

لكن مكالمات أوليجا كانت عنده أغلى، دمعاتها التي تتأرجح على صوتها، وهي تسأل عن جلييلة كانت في عينيه أغلى وأجلاً.

كان اليوم الثالث بعد عودتهم إلى إمبابية يوماً غريباً، لم يحضر فيه إلا القليل من أصدقاء ولده.

غاب كل من يكوا، وهم يقبلون رأس الأم يقسمون لها أن كلاً منهم هو عبدالرحمن.

نعوا!! ربما لكنه بكى كثيراً على وسادته ليلاً.

كان يعلم ألا أحد يلعب دور ولدك طويلاً، وأن الإشفاق والتعاطف مع الوقت يخبر صوتهما ويعود المكلوم وحده يلحق جراحه، بينما يعود المتطوع إلى حال أيامه، وسابق عهده هو فقط كان يظن عمر فائهم يطول.

ما عساك تريد من وجودهم يا غريب؟! هل شممت رائحة ولدك في عناق أحدهم؟!

هل غمر صوت أحدهم روحك ورسم على جنباتك الحياة بصوته؟!

ما همك إن غابوا اليوم أو بعد عشرة أعوام؟!

في الصباح، وفي بيته علم أن الدنيا خارج بيت أحزانه هت فيها نار وبركان.

تحقيقات فتحت في قضية عبدالرحمن، برامج تليفزيونية تتحدث عن طالب الطب الذي كاد يصبح طبيباً ومعيداً، وأصبح قتيلاً.

جاءت أوليجيا إلى بيته ذاك الصباح بعد ذهاب يُسر إلى المدرسة لتتحدث إلى جلييلة ساعات طويلة عن الصبر والجنة والعدل.

أخبرها أنهم للتحقيق استدعوه، وأقسمت عليه بروح ولده أن يذهب ويصمد، هو حق ولده عليه.

كان ييكسي، وهي تسأله هل يترك قاتله حراً بعد أن أودعه القاتل قبره؟!

كان غريب ممزقاً بين ما تقوله السيدة عن الحق والعدل والثأر، وبين قراره بالعودة إلى قريتهم والبقاء إلى جوار قبر ولده والاكتفاء بالصلاة له والصلاة عليه.

fb.com/Su7er.Elkotob/

كان تائها بين الرضا بالقضاء والقدر وبين الخنوع والانسحاب.

حين ذهب إلى مكتب التحقيقات وبعد أن ألقى المحقق في أذنيه بكلمات العزاء الجوفاء بدأ سيل الأسئلة عن تلك الليلة.

في لحظة، قال المحقق إن عبدالرحمن وحده المسئول عما حدث له، أخبره أن طبيب العيادة أخبره بضرورة دخوله إلى القصر العيني ليجري الفحوص والأشعات والبقاء تحت المراقبة إلا أنه رفض وأصر على العودة إلى المنزل معه معلناً تحميله لكامل المسؤولية.

صعق الرجل، رفع عينيه الغائبتين في الدموع، وهو يعيد أسماء زملاء ولده ممن كانوا يقفون معه في تلك العيادة، وعاد المحقق يخبره أنهم هم من شهدوا بما حدث.

”الجهل هو من قتل ولدك وليس الإهمال، المؤلم أن الجهل جاء من طيب كان سيصبح عن أرواح غيره مسئولاً!!“

بكى غريب، وهو يصبح أن ما يُقال هو الباطل.. وبآخر أنفاسه المتقطعة قال:

- السيدة أوليجا كانت هناك، لقد أخبرت الطبيب أنه يجب أن يجري له الفحوصات، ما زلت أذكر كلماتها حين قالت هو رأس وليس قدمين!!

في ثبات، نظر الرجل إلى الأوراق التي أمامه، وأكمل يقول:
- نعم، لكن أنت وولدك رفضتما ما قالته، قال ولدك إنه طبيب ويعلم ألا شيء به، وقلت أنت إنه القضاء والقدر..

نظر إليه المحقق، وقال في صوت خفيض مرير:
- لماذا تريد المتاجرة في موت ولدك؟! طلبت من الجامعة خمسين ألف جنيه لماذا؟!!

انتصب غريب واقفاً يصيح أنه لا يريد شيئاً، لا يريد سوى أن يتركه يذهب، يريد أن يركض بعيداً عن هذه السهام التي تشعل في نيران حزنه سعيّاً لا يعلمه إلا الله، فقط يريد أن يتركه يذهب.

حين خرج من سراي النيابة لم يذهب إلى بيته.

حادث أوليجا وطلب أن يلقاها.

وحدها شهقت لسماع دموعه، وحدها أشفقت عليه، وطلبت منه التوجه إلى بيتها ليعودا معاً إلى جلييلة.

في صالة بيتها قص عليها ما حدث في التحقيقات.

نكست رأسها في ألم وهي تردد «أيمن، مازن، أحمد، علي كيف تحولوا، كانوا يقفون معي على باب العميد، كانوا يهتفون».

رأها تضع رأسها بين كفيها، ودون أن ترفع وجهها قالت:

- هاربة أنا من حكم بالسجن في بلدي يا غريب، لهذا أتحاشى الظهور في وسائل الإعلام، وأخشى الذهاب إلى جهات الداخلية، متهمه أنا بالقتل، وإذا بالقتلة في كل الأوطان هم الأحرار والأقوياء!!
فليسامحه الله..

في تلك اللحظة ظنها تختلق القصة برمتها للتخلص من الوقوف معه، لكن من قال إنه يريد لها أن تفعل!!

نهض عن مقعده، وقبل أن يخبرها أنه سيأخذ زوجته ويعودا إلى بلديهما، وأنه بعد موت ولده ما عاد يعنيه شيء، رأها ترفع رأسها، وتقف لتقول:

- سأذهب إلى النيابة وأدلي بشهادتي، لن أترك أبدا الظلم يذبحني مرة على أرضي ومرة يقتل الحق على لساني!!

كل شيء أصبح يركض أمام عينيه.

ذهبت أوليجا وأدلت بشهادتها، وقامت الأرض، ولم تعد إلى مكانها إلا بعد أن أغلقوا التحقيقات في مقتل طالب الطب.

عمال شركة الدعاية والإعلان التي قامت بتركيب تلك اللافتة وخدمهم سيحاسبون بتهمة الإهمال.

الجامعة من دم وحيدة بريئة، وطبيب العيادة أيضًا بريء.

وحده هو وولده يتحملان مسئولية عدم تلقي عبدالرحمن للعلاج المبكر مما أدى إلى وفاته..

”لم نكن نريد شيئًا يا جلييلة وما كنت لأقبل بمليم كتعويض عن رحيل عبدالرحمن لكن ما أردت أبدًا أن يجعلوا منه جاهلاً أحق ويجعلوا مني صائد تعويضات“!!

”حسبنا الله ونعم الوكيل!!“

ما قالت زوجته سواها لكن عصمت الغندور قال الكثير.

أخبره أنه ما عاد أبدًا يريد لزوجته أن تزج باسمه واسمها في هذه الأمور.

أخبره كأنه نسي أن دماء وحيدة ما زالت تبلل تراب القرية، وأن نرف رحيله ما زال يتدفق في قلب أمه أنه يجب أن يلتزم بمواعيد عمله، ويخلق هذه القصة إلى الأبد.

وحدها أوليجا تغيرت.

ما عادت تذهب إلى مدرسة يُسر، ولا عادت تزور جلييلة في البيت، بل ما عادت حتى تحادثه أو تحادثها على الهاتف.

أسبوع كامل لم يرها فيه.

مجرد مكالمات سريعة تخبره فيها عن مواعيد يُسر أو الاطمئنان عليها.

مرة واحدة رآها حين طلبت منه شراء بعض الأشياء، حين رأى وجهها لحظة فتحت له باب البيت، شعر بسكين تشق صدره من الألم عليها إن كانت معه.

سألها إن كانت بخير، كان يريد أن يعتذر لها عن كل ما قد يكون تسبب فيه وخاصة غضب زوجها.

نظرت إليه، ومن خلف دمعة صغيرة لمعت في عينيها، قالت:

- خذلت نفسي وخذلتك!!

أيام قليلة بين تلك الليلة، وليلة رحيلها.

كان نائماً في سريره يستعد للذهاب إلى عصمت صباحاً ليخبره بقرار عودته وزوجته إلى بلديهما وإلى الأبد.

لا شيء يبقيه على أرض مات عليها الحبيب.

عندما كان يتوضأ للصلاة الفجر أخبرته جلييلة أن هاتفه يدق، فتح الخط وهو لا يفهم ماذا يدعوها لمحادثته في هذا الوقت ولا تمرين

سباحة لدى يُسّر في ذاك اليوم، فتح الخط ليجد صوتها مرتعشا باكيا،
يقول:

- صعب أن نطلب ممن خذلناهم ألا يخذلونا ولكن ليس لي سواك،
أنا راحلة غريب، لا تترك يُسّر ورحمة من حاولت أن أنقذ روعي مع
روحه!!

أكملت في هدوء تقول:

- أسفل مقعد القيادة في السيارة تجد مظروفا به بعض النقود،
أرجوك احتفظ بها واحتفظ بهاتفك هذا، وحدك دليلي إلى ابتي.
حاول أن يخبرها أنه سيكون عندها بعد لحظات لكنها أردفت،
تقول:

- سأعود إلى وطني، سأواجه تهمتي غريب، الهرب أصعب من
الموت، إن عرفت كيف أثبت براءتي أحادثك، وإن فشلت بعد أعوام
السجن أعود، لا تترك ابتي أرجوك.

لم يكمل وضوء، ولم يذهب إلى المسجد، بل ركض في سيارة
أجرة إلى بيت الغندور..

بقي على رصيف البيت ساعات لا يعلم ماذا يفعل، هاتفها مغلق ولا
بقوى على محادثة زوجها..

في السابعة رأى الصغيرة بحقيبة مدرستها تهبط إليه.

على وجهها كان شيئًا كالذي على وجهه لكن ما استطاع أبدا أن ينس حرفًا أو كلمة.

في الثانية ظهرًا علم أنها رحلت.

حادثه الغندور الكبير، وطلب منه لقاءه في محطة القطار حيث عاد به إلى البيت وطلب منه الدخول معه.

كان عصمت كالمجنون، سألاه ألف سؤال وأخبرهم أنه لا يعلم شيئًا.

حين اقترب موعد عودة الصغيرة أمره أن يبقى وأنها ستأتي مع أحد أصدقائه.

كره عصمت وكره أخاه الكبير يومها ألف مرة.

حين بكت الصغيرة تقسم أن أمها لم تمت، وركضت لتأتي بقرطها الذي لم يفارق أذنيها منذ رآها للمرة الأولى، تمنى غريب لو يحملها ويركض بها بعيدًا عنهم.

لكن إن هو لم يتصر على غرباء قتلوا وحيدته بالإهمال والتضليل كيف يهزم أباه وعمها؟!

رأى الغندور الكبير يحملها من ثيابها ويصفعها، رآه يقتلع قرط أمها من يدها ويطلب منه بيعه.

حين ذهب إلى أقرب صائغ في ميدان الدقي وحين علم بسعره وأنه
لن يستطيع توفيره على وجه السرعة، مديده إلى حيث أخبرته أوليجا
ليخرج المظروف.

هل هي النقود التي يقول زوجها أنها سرقته من خزانة بيته.

لا يعلم، ولا يهتم!!

وضع المظروف في جيبه، وأخذ منه المبلغ الذي يساوي ثمن
القرط، وعاد يمنحه إلى الغندور..

«لا تتركها أرجوك»!!

عادت جلييلة وحدها إلى قريتهم وفي طريقها إلى باب البيت بكى،
وهو يردد عليها أنه يتمنى الذهاب معها والبقاء إلى جوار قبر وحيد.

استدارت ونظرت إلى عينيه تقول:

- لو تركت ابنة أوليجا لتركك أنا، كل آية أتلوها على روحه أكررها
مرتين، مرة عنك والأخرى عني، ماذا بقي لنا سوى الدعاء والصلاة، لا
ترك بسر أبداً يا غريب!!

ثمانية أعوام ينتظر عودة أوليجا ليعود.

ثمانية أعوام تقريباً، ويُسر قطعة من روحه منذ منحها قرط أمها
وأقسم عليها ألا يراه أحد.

يشتاق إلى ولده كما يشتاق إلى أمها، حتى جلييلة ماتت وقبراهما
نا يناديانه لكن غريب سيطيل الله في عمره حتى عودة أوليجا.

إيمان كبير في روحه يخبره أنها ستعود.

لو أنها مرة تحدثه!!

هي في السجن يا غريب، هي دون شك في السجن.

أجهش في بكاء حاد، وهو يعود من ذكرياته.

ومن منا حر؟! كل منا له سجنه، وإن كان دون قضبان!!

من خلف زجاج نافذة السيارة رآها تقبل نحوه..

جن جنونه، هل عادت؟! فتح باب السيارة في جنون، وسمعها

تقول:

- تأخرت، تأخرت كثيرًا سامحني!!

عادت، أوليجا عادت!!

زكض نحوها، هل تضمه كما كانت تفعل أيام عبدالرحمن الأخيرة..

صاح يقول:

- أوليجا، سيدة أوليجا، أخيرًا!!

وقفت الصغيرة مكانها في ذهول أيقظ رأسه، وأعادته إلى وعيه،

وأرخی رأسه في خجل ليقول:

- سامحيني يا ابتي، أصبحت قطعة منها، لماذا يعيد كل شيء نفسه،

ونظن أن الأشياء تتغير؟!!

أقربت يـسر منه، وفتحت ذراعيها تضمه، وهي تقول في بكاء مرير:

- اشتقت لها كثيرًا يا عم غريب!!

هل يشاقون لنا؟!

أولئك الذين يرحلون غادروا الأرض أم لم يغادروها.

هل يشاقون لنا حقًا كما نشاق إليهم!!

إن كانت قيودنا عنهم تمنعنا فكيف لا يصل بهم تحررهم إلينا!!

حتى عناقها كعناق أمها.

فيه حنان وفيه استغاثة!!

أبعدها في هدوء عن كتفيه وأمسك بكتبها وأوراقها عنها وسار بها

إلى السيارة قائلًا:

- يعودون حبيبتي يعودون، ألم يُسمي الله نفسه الرحيم، يعودون أو

يومًا نياس من عودتهم، اليأس هو الرحمة أحيانًا!!



يقولون أن الصبايا تكبر حقًا عندما تحب أو تكذب!!

لا أحد يعرف من يأتي أولاً، الحب أم الكذب أو إن كان أحدهما ضروريًا لاستمرار الآخر أو إن كان أحدهما من رحم الآخر ولد أم أن الحب والكذب وجهان لعملة واحدة!!

ما علمه عصمت الغندور بالأمس أن يُسر ابنته كبرت، وهي تضع قدمها في بداية العام السادس عشر من عمرها.

بعد شهور الإجازة الصيفية تصبح في الثانوية العامة، ولم يشعر أنها كبرت إلى هذا الحد..

استدار صدرها، وطلال شعرها، وما شعر أنها كبرت إلى هذا الحد إلا عندما حادث هو شاهيناز بالأمس يسألها إن كان هناك دروس ترى أن تأخذها ابنته في العطلة الصيفية خاصة أنها لم تتجاوز عامها الدراسي بتفوق كبير.

ما زالت هذه المعلمة دومًا مرجعه في كل قرارته المدرسية، منها يأخذ أسماء المدرسين وأسعارهم وعناوينهم.

في نهاية المكالمة أخبرته أنها ستحضر له قائمة بما يريد في حفل الغد.

سكت لحظات، وعاد يستفسر منها وضحكت ضحكة صغيرة تعاتبه على نسيانه أهم وأكبر حدث تنتظره هي وابته.

”يسر سترقص صولولو، وتغني للمرة الأولى في حفل معهد الباليه الذي ستنقله شاشات التلفزيون“!!

عندما لم يجيبها أكملت تقول في عفوية:

”إن كنت تريد مزيداً من التذاكر؛ أترك لك على الباب سيد عصمت، لكنها أخبرتني أنها لا تريد سوى تذكرة واحدة لك فقط“!!

بعد لحظات من التلعثم أخبرها أنه قد لا يتمكن من حضور الحفل، وأنه يرجوها ألا تخبر ابنته، فقد يستطيع في أي لحظة الهرب من مواعده المهم..

شكرها وشكرته في جفاء واضح، كأنها صُدمت فيه مرتين مرة؛ لأنه نسي والأخرى؛ لأنه حتى بعد أن ذكرته أعلن عدم حضوره.

أغلق الخط وأصابه ذهول كبير، مكث لحظات طويلة يحدق في الفراغ.

ابنته لم تخبره عن الحفل، بل أخبرته منذ أيام أنها مدعوة لعيد ميلاد إحدى صديقاتها، وأنها قد تتأخر حتى منتصف الليل، يعرف صديقتها ويعرف هاتفتها.

خبرها في حوار سريع وسألها، كأنه لا يعني شيئاً عن أي شيء يفعلونه هذا المساء، وحين أجابته الصديقة أنها في انتظار يُسر في عيد ميلادها علم أن ابنته كبرت حد الكذب!!

لمن التذكرة التي أخذتها؟

هل أصبحت الصغيرة عاشقة جريئة إلى حد الكذب وخدمت تذكرة إلى فتاها ليراها ترقص وتغني وتُبقيه هو بعيدًا لئلا يرى أو يسمع!!
كان بإمكانها أن تدعو من تحب حتى في وجوده، ما كان عصمت ليعرفه أبدًا.

يُسر تكذب كرها لا حبًا!!

في هدوء مال بمقلاة البيض التي يحملها لتزلق عيون البيض، وخرج بها إلى صالة البيت يناديها يخبرها أن الإفطار جاهز.
جاءت في سكون، والتقطت منه صحن عيون البيض التي تحبها، وسألها دونما اكتراث:

- هل اشتريت هدية لهند؟

هزت رأسها بالإيجاب، ثم قالت كأنها تخشى أن يطلب رؤيتها:
- ستحضر الهدية إحدى صديقاتنا، هدية واحدة كبيرة تنقسم ثمنها.
وضع الغندور قطعة من الخبز بين أسنانه، وضغط عليها في مرارة قائلاً:

- لم نطلبي نقودًا؟ وتعلمين أنك تخرجين وأنا نائم.

وضعت الشوكة إلى جوار صحنها ونظرت إليه نظرة سريعة متشككة، وأردفت:

- بل كنت سأفعل بعد انتهاء الإفطار.

ابتسم في مرارة يقول:

- لم تكوني تعلمي أننا سنفطر معاً، نحن في إجازة، ولا تمرين سباحة لديك اليوم.

قبل أن تبحث عن أكاذيب جديدة، عاجلها بسؤال يذبح قلبه، وقال:

- هل تكرهيني إلى هذا الحد؟!

رفعت الشابة الصغيرة عينيها، وأرختها بسرعة كأنها خشيت أن يرى ما لا تعلم حقيقته بين ضلوعها.

هل حقاً ما باتت تعلم إن كانت تحبه أم تكرهه؟!

شعر أنه يختنق، قتله شاهيناز بالقصة التي كشفتها، وتقتله ابنته أكثر بإصرارها على إخفائها.

من خلف دمع مكتوم أكمل يقول:

- لست مسئولاً عن رحيل أمك، لست مسئولاً أبداً عن خذلانها لك ولي، أيضاً لست مسئولاً عن ما فعله عمك بهجت ذلك اليوم.

في حدة، وفي صوت هادئ، كصوت أوليجا أجابته:

- قد لا تكون مسئولاً عن فعله أخيك، لكن ظننت أنني أنا المسئولة منك لا منه، ظننت أن من يحرمني من قرط أمي، أو يصفعني ويذلني إن كان لكل هذا تفسير أو تبرير فهو أنت لا رجل غريب يكره أمي ويكرهني.

فاطمها في حزم رغم الألم:

- عمك ليس غريبًا، هو بمثابة أب لي، ربما كان الخطأ أنك لم تتعلمي يومًا كيف نقف في حضور الأب.

بألم حاد رفعت عينيها تنظر إليه كأنها تسأله أين هو الأب؟!
لم تكن بحاجة؛ لأن تنطق الكلمات كان واضحًا أن عصمت سمعها بوضوح.

ألقي بمنديل المائدة في صحنه، ونهض يغالب دموعه، وهو في طريقه إلى غرفته وقبل أن يغيب عنها استدار يقول:

- استمتعي بحفلك اليوم، استمتعي به في غياب أم سرقته وهربت
وغياب أب على خطاياها تحاسبينه!!

دمعة صغيرة تلالأت في عيني الشابة الحائرة.

أبوها ليس قاسيًا، ليس قاسيًا أبدًا، لكن أحيانًا يكون الضعف أكثر
إيلامًا من القسوة!!



أخبر "غريب" أن يعود بابتته إلى البيت بعد انتهاء موعدها ومنتظره أسفل المكتب.

لم يقل له "حفل عيد ميلاد هند" وقال "المكتب" وغداً في الصباح يسأله عن الحفل ليرى إن كان غريب هو الآخر أصبح مثلهم في الكذب عارفاً.

حادث "إلهام" وأخبرها أن تنتظره في المكتب، لكن لا رغبة له في شيء من هذا، شيء كبير كسير في قلبه وروحه، شيء آخر كبير يطالبه بالذهاب إلى الحفل، يريد رؤيتها، لم يكن يعلم أنها أيضاً تغني!!
"كاذبة عاشقة تغني!!"

ترى ماذا أيضاً يجهله عنها؟!

لم يستطع أبداً أن يقاوم رغبته أكثر، توجه إلى مكان الاحتفال، هو لا يعلم كيف يدخل دون تذكرة، وهل تراها شاديناز تجيب على هاتفها، أو تسمعه أثناء الحفل الكبير كما قالت..

سيارات كثيرة كانت تقف، وحين عبر البوابة وحتى وصوله إلى باب القاعة لم يسأله أحد إلى أين؟!

أصبح كل شيء لدينا مفتوحًا، أبوابنا وأفواهنا وفصائحنا إلا قلوبنا
ورؤوسنا وحدها مغلقة عن الحقائق حتى عن أنفسنا!!
هو أيضًا قلبه ورأسه على ما فيهما مغلقان..

حين كان يدفع بيده باب القاعة المغلق شعر بأحد رجال الأمن
يربت على كتفيه قائلاً:

- هل كنت بالداخل سيدي؟!

ابتسم الغندور وأجابه كأنه يشكره على كذبة جديدة يضعها على
لسانه قائلاً:

- نعم، خرجت لإحضار شيء من سيارتي.

الكذب يفتح الأبواب حقًا!!

أفسح الطريق ليدخل إلى القاعة، ويقف في صمت يرقب ما يدور.
كان العرض دائراً، والرؤوس الجالسة كثيرة، وأرخی الغندور عينيه
في ألم.

يُسّر ليست على المسرح، ربما أدت فقرتها وانتهت، ربما جاء
متأخرًا كالعادة!!

بحث بعينه عن مقعد خاير وجلس في الصف الأخير يرقب
العرض، كانت مجموعة من الفتيات الصغيرات يرقصن، وكان هو
يرقب في صمت.

حين دوى التصفيق لهن ابتسم، بإمكانه أن يعرف والدَي كل فتاة
كانت ترقص.

هؤلاء الذين يصفقون بحرارة، هؤلاء الذين تمايل رؤوسهم،
وتلوح أكفهم للواقفات على المسرح هن آباء وأمهات جاءوا يتسمون
لحظات من الحب والفخر.

عادت الأضواء إلى الانطفاء، وبدأ إيقاع الموسيقى خفياً،
صوت كأنه حفيف شجر وخطوات رشيقة تخطو على المسرح، وكاد
قلبه أن يتوقف.

هي ابته تدخل وجدها على أطراف أصابعها ترتدي ثوباً أبيض
وحول شعرها طوق من الزهر الأبيض تؤدي رقصة على موسيقى
Classic box.

رأها وهي تدور في خفة، وتطير في الهواء مفرودة الساقين، ثم
تعود إلى الأرض وتتكور كأنها زهرة صغيرة، وحين يعلو صوت إيقاع
الموسيقى تعود للنهوض من جديد.

كلما رقصت، كلما رفعت ذراعيها ودارت بهما كأنهما طواحين
أمستردام رأى أوليجا بوضوح أكبر.

كلما اثنت واستدارت بوجهها عكس الجمهور رأى شعر أوليجا
مبتاً بمشابكه البيضاء على رأس ابته.

غاب الغندور!!

غاب عن كل الحضور حين حضرت أوليها، ولم يبقَ في تلك
القاعة الكبيرة سواها هي وابنتها.

الصغرى على خشبة المسرح ترقص، والكبرى على أوتار قلبه
بقدميها، وقطع الحديد النائمة في حداثها تحفر في جفنيه أنهار شوق
وبكاء..

ما عاد يعرف أيهما الابنة وأيهما الزوجة؟!

كلتاها في قلبه كذبتا عليه، وأبعدتا عن طريقهما، وهو بدوره
يكذب ويترفع ويدّعي لهما معاً أنه لا يهتم ولا يبال.

تمني لو رفع كفه، وأشار إلى ابنته يخبرها أنه هنا، وتمني لو رفع
كفه الآخر إلى أوليها يخبرها أنها بقيت هنا لكن كما هم يكذبون هو
لا يُفصح!!

والصمت كالكذب أحياناً!!

اهتز جسده، وهو يسمع القاعة ترتج بالتصفيق لها وراها تنحني
كأنها زهرة تغمض أوراقها على فرع يانع أخضر..

صفقوا لها كثيراً وطويلاً رغم أن أحدهم ليس أباًها أو أمها بينما لم
يحرك الأب الحقيقي كتفاً على الآخر.

لا قواعد في الأرض ولا مبادئ هنا!!

فقرات أخرى كثيرة أو قليلة بعد رقصة يُسر جاءت، لكن هو لم ير أو سمع شيئاً إلا استدارة رأسه كل لحظة، والأخرى كأنه يتوقع أن يرى أرييجا أو يُسر تخطوان نحوه.

تعب الغندور!! تعب كثيراً، لا نجح دور الأب الحازم في احتواء ابته، ولا نجح دور العايب الماخن في محو ذكرياته.

نهض عن مقعده، وتوجه إلى باب القاعة في طريقه إلى الخروج، وسمع صوت شاهيناز على المسرح تقول:

- كما أبهرتنا يُسر الغندور برقصتها، أدعوكم جميعاً لاختتام حفل اليوم على صوت غنائها في أغنية من اختيارها.

دمعة حائرة رقصت بين جفنيه.

فليفتح الباب ويخرج، لم تدعه، بل لم تخبره يوماً أنها تغني.

إلهام تنتظره، لفائف حشيشه تناديه.

وضع كفه على مقبض باب القاعة يديره، وقبل أن يدلف من الباب ارتفع صوتها وحده دون موسيقى، وشعر أن كل من في القاعة حبس أنفاسه، ودون وعي استدأر ينظر إليها من بعيد حيث بدأت الموسيقى تتداخل مع صوتها.

كانت في منتصف المسرح تقف، والميكروفون يتدلى أمام شفيتها، دلت ثيابها وارتدت ثوباً قصيراً في لون قشرة الليمون.

كانت تغني أغنية "أخبرني لماذا؟!"

”في أحلامي أرى الأطفال يغنون
 أغنية الحب لكل الناس
 في أحلامي..
 أرى السماء زرقاء والحقول واسعة خضراء
 والحب وحده
 الحب هو لغة الأرض!!
 حين أصبحو لا أجد سوى قلوب حائرة
 أخبرني لماذا يجب أن يكون الواقع بهذه القوة؟
 هل هناك شيء غائب عن عيني؟
 أخبرني لماذا؟
 فأنا حقاً لا أفهم!!
 أخبرني لماذا لا نمد أيدينا ونمنحها لمن يحتاجها؟
 في كل يوم أتساءل:
 كيف نكون إنساناً؟
 أخبرني لماذا نحارب لنحيا؟..
 بل أخبرني كيف أحيأ؟
 لماذا نقسو؟
 لماذا نكذب وندعي الحب وقلوبنا بالكراهية تضح؟!

لماذا نهرب من مسئولياتنا؟!

لماذا نقتل ونحرق أجمل ما لدينا وأحلى ما بيننا؟!

أخبرني لماذا دوّما نبادل الاتهامات..

وأبداً أبداً ما استطعنا أن نكون أصدقاء!!^(١)

كم كان صوتها هادراً ناعماً، باكياً مستغراً..

كيف لم يعرف ابنته؟ وكيف لم تعرف هي أباها؟ وكيف حقاً لم

يستطيعا أبداً أن يكونا صديقين..

ربما؛ لأنهما عرفا عن أحدهما الآخر أكثر مما ينبغي لإنسان أن

يعرفه عن آخر ليكون صديقه!!

حين نهض، كان كل من في القاعة يصفقون، وكان وحده يبكي في

جنون، وينظر إلى ظهورهم ورؤوسهم.

نرى أيهم الذي دعت ابنته لمشاهدتها؟!

رجل أم فتاة؟!

من خلف دمعانه رآه يتقدم نحو خشبة المسرح، وهو يصفق في

جنون، كأنه يود الصعود إليها، في اللحظة التي أغلقوا فيها الستار

استدار الرجل، وتقدم انعقدور نحوه رغم سير الجميع نحو الباب..

التقيا في منتصف ممر المشاة، ورأى على وجهه دمعات كالتى على وجهه، وقف أحدهما أمام الآخر، وقال الغندور في صمت:
- تُحبها يا غريب؟ تحبها كما أحبها أنا؟ أم تحبها كما لم تعرف هي أنني أحبها؟، أم تُراك فقط تفعل؛ لأن ولدك مات، وأمها تخلت؟!



fb.com/Su7er.Elkotob/

حطموا جدار برلين وكسروا خط بارليف ويعبرون سور الصين العظيم؛ لأن لا أحدهم في قرة وصلابة حائط يقف بين قلبين، وإن كان قلب أب وابته.

منذ خرجت من احتفال المدرسة، ووجدت غريبًا ينتظرها بعينه الدامعة، منذ ضمته وسمعتة يشكرها كثيرًا على اصطحابها له، ومنذ بالتحديد أخبرها عن حضور أبيها، ووعداها له بعدم إخباره لتعهده له بذلك، وهي تتألم.

أخبرها غريب أنه كان يكي. أخبرها أنه كان يتألم؛ لأنها لم تدعوه. ليتها تعلم كيف تضع يدها على الحقيقة في صدرها.

وصية أمها كانت صعبة جدًا، في تلك اللحظات، وحين كانت طفلة في الثامنة، أقسمت لها ألا تكذب، واليوم وهي شابة في السادسة عشرة. أدركت أننا نادرًا ما نصدق مع أنفسنا..

تجبه وتحتاجه، وتتمنى لو ترتمي بين ذراعيه، وتبكي طالبة منه أن يخرجنا معًا للبحث عن أوليها، بل تتسنى لو تستطيع أن تجلس إلى حواره، ويستعيدا معًا قصصهما معهما..

رائحة عطرها. لون ثيابها وطعم خبزها..

شيء أكبر منها يمنعها حتى عن ضم والدها إلى صدرها.
منذ تلك اللحظة التي لطمها عمها فيها أمامه، منذ تلك اللحظة التي
صاحا فيها معاً أن أمها سارقة آثمة وجدار كبير يفصلها عنه، وحتى عن
نفسها.

ما عادت يُسر أبداً تستطيع أن تعرف إن كانت تحبه أو تكرهه، أو
كيف تعبر عن حبها إن كانت تفعل أو تحتمي بلعناتها عليه إن لم تكن.
لا شيء يقتل روحها سوى وصية أمها، أخبرتها أنها لن تجدها إن لم
تكن مع نفسها صادقة.

الصدق مع النفس أصعب حتى من الصدق مع الآخرين!!
بعينها ترمق عصمت كل صباح بعد ليلة الحفل، وفي عينيه شيء
يناديه، وشيء آخر يسألها..

في عينيها معاً أطياف هزيمة كبيرة.
لا استطاعا أن يحيا بعد رحيل أوليجا، ولا هما في عداد الأموات.
رقصها الباليه لن يعيد أمها، تمارين السباحة لن تحطم جداراً بينها
وبين أبيها.

تنتهي دراستها الجامعية وتساfer.
نعم إن لم تظهر أوليجا حتى ذاك الحين تسافر هي بحثاً عنها.
كل أكاذيب الأرض، كل مخاوف البشر وزيف الكبرياء لا يستطيعان
أبداً أن يحجبوا حاجتها إلى أمها وحبها لها.

أخبرها غريب أنها وعدته بالعودة كما وعدتها.

حين تجدها وبين ذراعيها تسألها أن تساعدتها لتجد عصمت
بداخلها.

عندما تجد أمها، قد تسامح أبيها، وترى أين يقع مكانه في قلبها.
لكس هل يبقى حب إن سقط إيمانك بقدره من أحبيت على
حمايتك؟!

سقوط الرجل من عين المرأة، وإن كانت ابنة بييد الحب، وإن كان
مشقاً وبنوة!!

مؤلم أن تبحث عن الحب مع هاربة منها، وتهرب من الحب مع
ميم معها.

ليس ذنبها أبداً أن أحدهما باع الآخر، ليس ذنبها أبداً أنها رغم هذا
ما زالت تريدتهما، ولكن معاً!!

لماذا لا تتحدث إليه؟! لماذا لا تخبره أنها نائمة خائفة من فقدانه
ما ترعد من فكرة فقدانه.

علام تعاقبه، وهي التي بسيطا العقاب تكتوي؟!

نترك أوليها ترحل؟! ترك أخاه يهينها؟! ترك سائق وحده يضمها
، نحنو عليها؟!

لم لا تشفق عليه وكيف ما زالت ترثيه!!

كانها حزمت أمراً، وكأنها اختارت قراراً، خرجت من غرفتها لتجده في صالة البيت مرتدياً كامل ملابسه في طريقه إلى رحلة مكتبه المسائية..

نادته، واستدار نحوها ينظر إليها نظرة طويلة جريئة أرخى بعدها عينيه، وقال:

- تريد شيئا؟!

أرخت الشابة الصغيرة عينيهما في ألم، ثم قالت:

- لم تترك لي شيئاً أريده أو منك أطلبه!!

م

ثم يكن يريد من الحياة سوى ما يترته له الأقدار...
 أصدقاء وبعض كؤوس من الخمر، ولقافة أو اثنتين من الحشيش
 وأوليجا وابنته..
 لماذا يجب أن يعمل ويقفز من محكمة إلى أخرى، ويكتب مرافعة
 حن بها بريثا أو يخلي بها ساحة مجرم لكي تحترمه امرأة؟!
 ثروة والده كانت تغنيه عن هذا فلم أسقطته الحقيقة من عين أوليجا
 وروحها!!
 لم يلجأ الغندرو إلى جسد امرأة سواها إلا عندما أدارت عنه ظهرها،
 عندما أشاحت عنه بعينيها.
 لا شيء يقتل رجل سوى موته في عيني امرأته.
 أكان صعباً عليها أن تفهم زهده في العمل، أكان لزاماً عليه أن
 يطمح روحه وعقله في أكاذيب فقط لكي يصبح رجلاً عاملاً؟!
 قبل بها راقصة هاربة متهمة في جريمة قتل قد لا تكون منها بريئة
 ما لفظته واحترته لمجرد أنه كان معها ومع نفسه صادقاً.
 يريد أن يحيا حياته في اللهو والحب، فما الخطأ إن كان يملك
 أمهما؟ حتى ابنته يشعر بها لا تحترمه.

حين غادر البيت منذ لحظات رأى في عينيها انهما ما كبيرا، ما سُبَّته
عندها هي الأخرى؟!

ذبحته حين قالت في مرارة، لم تترك لي ما أحجاجة منك؟

حتى هذه الصغيرة تراه عاجزا عن إشباع احتياجاتها.

تمنى لو يجذبها من ذراعها إلى صدره، تمنى في تلك اللحظة لو
هدم جدار الصمت والكبرياء بينهما وضماها إلى صدره، وصاح في
أذنيها أن عناقه عن عناق غريب يختلف.

هو يحبها!!

زحفت دموعه في هدوء على وجهه، والتقطها غريب في مرآة
السيارة بعينه في ألم.

كان يوما أبنا، ويعلم ما يدور في قلبه، وقال في لوعة صادقة:

- سيد عصمت، هل أنت بخير؟!

ابتسم السيد في مرارة، ولم يجب.

حمل الأكياس السوداء التي أحضرها كالعادة، وصعد إلى مكتب
مغامراته، أخبره ككل مرة أن بإمكانه الذهاب إلى بيته على أن يعود في
الثالثة فجرا، وأجابه الغريب ككل مرة أيضا أنه سيبقى في السيارة يقرأ
القرآن، ويغفو إن أصابه التعب..

في عيني عصمت شيء يريد قوله، وفي قلب الغريب شيء يريد
إطلاق سراحه، لكن كلاهما أرخى عيني، وقال الغريب في انكسار

- من لي في البيت سوى الألم، وأشباح الذكريات، هنا أفضل،
عندما أعود في الفجر مرهقاً أسام، الإعياء وحده أقوى من الذكريات
والأشباح.

كان عصمت يقف على بعد خطوات حين قال كلماته تلك، واقترب
ينظر في عيني سائقه قائلاً:

- الأشباح أفضل من أحياء يطلقون عليك رصاصات اتهامات لا يد
الك فيها، ولا حيلة أيها العجوز.

ترقرقت في عيني غريب دمة، قال بعدها في ألم:

- لا أدخل الله لك داراً من أهلك.

جحيم قسوتهم ولا رياض رحيلهم!!

لا يعلم، إن كان قد سمع كلماته الأخيرة، لكن يكفيه أنه قالها، هل
الم جل حزين كل هذا الحزن لأن يُسرَّ ألم تدعُ إلى ذاك الاحتفال؟
احسرت أنها تعلم أنه يتألم كلما رآها ترقص الباليه كامها، أخبرته أنه يكره
بل ما يذكره بها، وأنها حقاً لم ترد إيلامه.

قالت "أنا وأنت فقط نجبها"!!

نعم، هما فقط يحبانها، والآن أصبح يحب ابنتها كما لم يكن يتخيل
.. ما أنه يفعل.

هذه الشابة كبرت كولده أمام عينيه، بعد رحيل أمها، وموت ولده أصبح معها كظلمها، إلى المدرسة ومنها، إلى شاهيناز وإلى الأسواق تشتري ثيابها، لا ثوب اشترته دون أن تخرجه من صندوقه وتريه له. أصبحتا صديقين حقاً يوم عاد إليها يوم خروجها من المدرسة عقب عودتها من دمرو بعد أيام العزاء الوهمية تلك.

أوقف السيارة في أحد الشوارع، واستدار إليها يقول:

- أعلم أنك حزينة لرحيل السيدة أوليجا، وأعلم أنك حزينة لما فعله معك، والعزاء الذي أقامه، أنا لن أدافع عنهم، لكن عندي شيء صغير، قد يسعدك قليلاً، فقط عاهديني أن يبقى سرّاً بيننا؛ لأنك إن أفشيتيه قد لا أراك ما بقي من العمر، وأنا عاهدت أمك أن أبقى معك حتى تعود أو أموت، فهل تقبلين؟!

رغم أعوامها الثمانية، ورغم ضفائرها الساكنة على كتفيها في تلك اللحظات، رفعت عينيها الرمادية الواسعة، ونظرت إليه كأنها تتوسل إليه أن يفعل.

ومن منا لا يتوسل الفرح، وإن كان من "غريب"!!

مد نحوها كفه المغلق، وقال في شيء يشبه الابتسامة:

- افتحي كف الغريب!

حين لمست كفه بأصابعها الصغيرة، حين فتحت أصابعه، ورأت ما بينهما بكى كلاهما في صمت..

كانت دمعاته مع دمعانها يزحفان كل على وجتي أحلامه الضائعة،
وأماله المبتورة..

قال وصوته يرتجف:

- ثم أستطع أن أبيع، هو لك، فقط لا تدعي أحدا يراه حتى إحدى
اللحظتين عودتها أو موتى، هل تعدين!!
التقطت الصغيرة قرط أمها وضمتها إلى شفتيها في جنون، وهي
تقول:

- لماذا تطلب مني وعدًا صعبًا كما طلبت؟! لماذا لا أحد يعدني
وأعد أنا الجميع؟!

من خلف دمعاته تلك اللحظة بحث عن شيء يعدها به فوجد أنه لا
يملك سوى عمر لا يعلم مداه، وقلب انقطعت سواها من الدنيا جميع
حطوط رجاء، وقال:

- الغريب يعدك بما تشائين!!



تشعر أن نهايتها معه اقتربت، وأنه فقط لإشفاقه عليها يبقاها..

ليست إلهاً مجرد جسد يلقي بداخله شحنات ملله وغضبه، بل هي أقرب إلى خلية قديمة اعتاد وجودها..

يأتمنها على مفتاح بيته وطهو طعامه، يتحرر من خجله ويبكي أمامها ويهذي أحياناً بقصص وكلمات إن حدث وسألته فيها قد يجيب أو لا يجيب أسئلتها دون أن تغضب أو حتى تعيد سؤالها.

لكن تشعر أنه بدأ يفقد قدرته على الاحتفاظ بها، ما عاد جسدها أبداً حتى بالمنشطات يستتفره ولا عادت تراه يتناول ما تطهوه بذات الشهية القديمة.

أصبح عدد من يدعوهم إلى السهرات أكثر وأصبح لا يبالي حتى بمن يحضرونه أو ما يحضرونه معهم، كأنه يحاول أن يجد شيئاً جديداً يفرق فيه.

كان يجلس بعيداً إلى جوار أحد أصدقاء شلتهم القديم يدخن نفاقة من لغائف حشيشه، أصبح نهماً إلى أبعد حد.

ذهبت إليه وانحنت على أذنيه تهسس قائلة:

- يريدون طلب وجبة كبيرة من "الكباب" عصمت، الميزات تكفي
ستدفع كثيرًا فالعدد كبير ..

من خلف الدخان ضحك قائلاً:

- دعيهم يا إلهام، دعينا نأكل اللحم ما دمنا نعجز عن اقتحامه!!

ابتعدت في سكون ومال صديقه يقول مازحًا:

- عصمت، آن الوقت لتجرب شيئًا جديدًا سوى الحشيش وإلهام،
العيب نيس في اللحم أو "الصف"، بل في نوعيهما!!

بعد دقائق طويلة أفنعه بتجربة جرعة واحدة مما يحمله في جيبه.

كانها السحر، ما أن تخللت أنفه حتى شعر عصمت بأن كل شيء
تلون بألوان جديدة واستدار إلى صديقه يطلب منه جرعة أخرى.

في تردد أخبره أن ما أخذه يكفي رجلين، وصاح عصمت ضاحكًا:

- أنا بألف رجل!!

حاول أن يثنيه إلا أنه أخرج له من جيبه نقودًا كثيرة وضعها في يده،
وصاح يقول:

- شهور وأنت تطاردني لأجرب وحين استزيدك الآن تمنع!!

لحظات أخرى سكوت بعدها كل شيء، سكنت جميع الضحكات
الصاحبة ورنين الكؤوس.

سكت الجميع حين صرخ عصمت صرخة كبيرة استداروا بعدها
بظرون إليه.

كان واضعاً يده على صدره ورأسه يتصبب عرقاً غزيراً وسمعوه جميعاً يثن قائلاً:

- أختنق، أنا أختنق!!

وحدها إلهام من ركضت نحوه تدحج صديقه بنظرة مجنونة نهض على أثرها يخبر الجميع أن عصمت تناول جرعة كبيرة قد تودي بحياته، وقد تضعهم جميعاً في السجن.

لم يمه جملة تلك إلا وقد خلا المكان من كل من فيه كأن ناراً اشتعلت، وهم من ألسنتها يفرون!!

كان الغندور يتألم، وإلهام تغسل له وجهه ببعض قطرات من كأس ماء كان أمامه وتسأله باكية ماذا يريد أن يفعل.

”ساعدني للنزول، غريب في السيارة، ساعدني لأصل إليه“.

حين حاولت النهوض به عن مقعده، سقط منها، وحين استدارت تنادي رفيقه لم تجد أحداً! fb.com/Su7er.Elkotob/

هرب الرجال، وبقيت الغانية لكن ما عساها تفعل؟!

شعرت بعصمت يغيب وركضت كالمجنونة على سلالم البيت وحين وصلت الشارع رأت غريب يقف أمام السيارة ينظر حوله في ذهول.

يعرفها وتعرفه، فهو من يحضر لها ما تحتاجه من لوازم الطهي أحياناً.

ركضت نحوه، وصاح يقول:

- ماذا حدث؟! رأيت الجميع...

قبل أن يكمل كانت تجذب ذراعه وتصيح:

- عصمت لا يتنفس، سقاه أحدهم "هيريون".

عجوز هو غريب مثقل بإرهاقه وسهره وصحوة أوجاع لا تنام،
وثقيل هو عصمت بضعفه وتمزق أنفاسه.

لطمت إلهام وجهها عندما وجدته عاجزاً عن حمله وصاحت:

- هل استدعى أحد من الجيران ليساعدك؟!

شحذ جميع قواه وعزمه، ورفع سيده من ذراعيه على كتفيه خلف
ظهره، يقول:

- ما زال الفلاح قوياً، احضري المصعد من فضلك بسرعة.

كانت أنفاسه ممزقة محشرجة ورغم هذا ضحك ساخرًا، يقول:

- منذ الطفولة لم يحملني أحد على ظهره أيها العجوز!

خذل العجوز ظهره بعد عدة خطوات ليسقط بسيده على الأرض،
اعتدل بأكثر سرعة استطاعها يسأل إن كان بخير ليجد وجهه أحمر
احتناق أنفاسه، وبكى الغريب كالأطفال.

مات الفلاح القوي بداخله يوم هجر أرضه، ومات النبض فيه يوم
حبل ولده فكيف لميت أن يحمل ميتاً!!

حاول النهوض، وهو ينادي إلهام لتبقى إلى جواره ريثما يحضر طبيياً لكن أسرع عصمت بيده إليه يحاول الحديث قائلاً:

- اصمد، لا تبك. اصمد!!

علا صوت بكاءه أكثر، وهو يردد:

- لن أدعك أبداً تموت، ليس لها سؤال، لا تتركها

ظننت إلهام أن الغريب عنها يتحدث وحين حاولت أن تتقدم نحوه سمعت خليلها يقول كأنه يزفر أنفاسه جميعاً:

- مسكينة هي!! قدرها أن تبقى مع الغريب.

قبل أن يجيبه رأى كل شيء فيه يسكن إلا ابتسامته الساخرة وعينه المفتوحتان.

صرخت إلهام من خلفه تقول:

fb.com/Su7er.Elkol006

- لا أستطيع البقاء، سأبدل ملابس وأذهب، أرجوك لا تأتِ باسمي

على شفتيك، لي ابنة وأم ليس لهما سواي.

لم يشعر بها حين غابت، أو حين عادت لتمرّ من جوار جثتيهما معاً، لكنه أفاق على صوت الباب، وهو يُصفق من خلفه ليتفرض ممسكاً بكف الرجل البارد، ويعاود بكاءه من جديد.

مات الغندور.

مات وتركها مع الغريب!!

كان يرتجف من الإعياء والتعب حين أنهى تنظيف البيت بالكامل، وتخلص من جميع قناني الخمر، وفضلات المخدرات، والأطعمة كما طلب منه الغندور الكبير، حتى فراش غرفة النوم أعاد ترتيبه ووضع عليه أغطية نظيفة..

لم يصدق نفسه أبدًا عندما استطاع حمل جثة الغندور إلى سريره، وأسجى على وجهه الغطاء.

هل أصبح الرجل أخف وزنًا عندما تحرر من كل أعبائه وخطاياها، أم أصبح الغريب أكثر قوة في حضور الموت.

السابعة صباحًا والغندور الكبير لم يصل بعد.

لا يصدق أبدًا أن أبيها في الغرفة ميت، وهي هناك نائمة في فراشها نظير عودته.

رمى بجسده المنهك على أحد المقاعد، وأغلق عينيه بعد أن دار بهما في أنحاء المكان يطمئن أن البيت للمرة الأولى منذ أعوام عاد لك البيت القديم لكن مع غياب كلتا صاحبتيه.

عاب في النوم ساعات، وأفاق على حضور الغندور، ومعه مفتش المنطقة.

تمتم الغريب بكلمات عزاء صغيرة تبع بعدها الزائرين في صمت إلى غرفة النوم، لم يفعل مفتش الصحة شيئاً سوى أنه نظر إلى وجه الرجل في استخفاف، وأعاد الغطاء عليه، ثم جلس يكتب شهادة الوفاة، نهض بعدها يمد يده إلى الغندور قائلاً:

- هبوط حاد في الدورة الدموية هو سبب الوفاة لكن لن نذكر أبداً سبب الهبوط ذاته.

دون كلمة واحدة ودون أن يهتز للغندور جفن أخرج من جيب جلبابه الواسع رزمة من النقود منحها للرجل قائلاً:

- أشكر لك تفهمك.

كان واضحاً أن الغندور أبرم اتفاقاً مع مفتش الصحة، وتنفس الغريب الصعداء.

ذبح نفسه في تنظيف البيت وإخفاء أي دلائل على المخدرات ونسي أن النقود وحدها من تتحدث.

حين غادر الزائر بغنيمة استدار هو بعد أن أغلق دونه الباب ليجد الغندور الكبير يجلس على أحد مقاعد الصلاة قائلاً:

- سيارة نقل الموتى في طريقها إلينا مع فريد وبعض الشباب، نأخذه وندفنه اليوم، اذهب أنت وقم بإغلاق بيت الدقي وبيتك واحضر الفتاة إلى دمرو، علاقتنا جميعاً بهذه المدينة انتهت كفاهاً من وما أخذت!!

في ألم كبير رفع وجهه ليقول:

- ألن تذهب إلى يُسر، من يخبرها؟ ماذا أقول لها؟ ألن تودعه؟
دون اكتراث أجابه:

- لا وداع! قل لها ما شئت فلست أنتظر منها خيرًا كبيرًا!!!
قبل أن يكمل كان هاتف غريب يهتز بين طيات ثيابه، وحين أخرجه
منحه دون اكتراث لوجود الغندور الذي كان يراقب وجهه في ذهول
ورأى دمعاته ترحف على وجنتيه.

كانت بُسر تقول في خجل وخوف:
- اعتذر، أعلم أنك نائم لكن "بابا" لم يعد حتى الآن، هاتفه لا
يحبيب، هل تعلم أين هو؟

إلهام لم تترك شيئًا حتى هاتف الغندور أخذته معها ورحلت!!



رغم العناق والأسرار، رغم العمر والتاريخ إلا أنها المرة الأولى التي تجلس فيها على المقعد إلى جوار غريب في طريق عودتهم إلى كفر الشيخ، تعلق هو بوضع بعض من حقائبها على المقعد الخلفي؛ لأنه حقًا يريد لها إلى جواره.

مجهد هو حتى الإعياء، وحده طرق بابها في الصباح.

وحده دخل البيت، وجلس على مقعد والدها، وبعد صمت طويل رفع عينيه السوداء الصغيرة يرمق سكونها وارتعاشة أنفاسها بعد أن سأله أكثر من مرة عن والدها.

نظر إليها طويلًا، صغيرة هي لكن هل هناك في العمر حد أدنى للآلم؟!

عاد بنظره إلى كفيه المجمعدين، ربما كان في هذا الألم خيرًا، قبل أن تدرك حقيقة ما كان يفعلها أبوها..

إن كان حقًا وضع ما يسمونه "الهيروين" في فمه، أو أنفه كان أمره سيُفصح، بل ربما تعدى عليها أو اعتدى عليها!!

الغندور الكبير لن يتركها.. سيحتضنها فلا أبناء له سوى فريد.

كفر الشيخ هواؤها أنقى، هو أيضًا كان يجب أن تأتيه لحظة، وينتهي دوره هنا قبل أن ينتهي عمره.

نظرة خاطفة سريعة مندهشة رمى بها إلى وجهها، وهي تجلس على المقعد البعيد!!

لِمَ لم تكرر سؤالها أو تستنكر صمته.

كان وجهها واجتًا صامتًا، ورغم القلق والخوف إلا أن سكوتًا كبيرًا كن يغمرها.

الوقت قصير ويجب أن يعود بها لكن كيف وأين يجد كلمات يخبرها بها.

كان روحًا غير روحه سكتته، كأن يدًا غير يده العجوز الضعيفة امتدت نحو صدره، وعينيه تقتلع منها الكلمات والدمع لتسكبهما في سحاء، أرخى رأسه يرقب دمعاته تسقط على خطوط تجاعيد كفيه وسمع صوته يقول:

- في منتصف الستين أنا، ولم يهزم مني حتى اللحظة شيء سوى الحب، أحببت زوجتي لهذا رضيت بطفل واحد رغم أنني وحيد، وأعلم كيف يكون الإنسان كفرع أصفر في يوم ربيع إن كان على أرض الحياة بحيا وحيدًا، أحببتُ عبد الرحمن، وحين كبر تركت عملي كمؤذن يعشق رفع الأذان خمس مرات لأعمل لدى الغندور بدخل أكبر، تركت أرضي وترباها من أجل رجاء جليلة، وتضرع قلبي لأبقى معه هنا في هذه المدينة التي أكرهها وتكتحل أعيننا برؤيته كل يوم.

أحببت أوليغا كأنها أختي الصغيرة التي كنت أرسم صورها، وأنا
العب وحدي في قريتنا وأنا صغير، أحببتها فبقيت بعيداً عن قبر ولدي
ورفات زوجتي مكتفياً بزيارة أسبوعية لهما لأفي بو عدي لها وأبقى
معك، لكن أحبتك أكثر يسر.

أحببت فيك وحدتي القديمة، وضعف حيلتي القديم الجديد،
أحببتك حتى الحد الذي جعلني أحب الحياة، وأنا أشتهي الموت
لأبقى معك.

الحب وحده الآن ما يجعلني لا أجد كلمة أستطيع قولها.

كل شيء عندما يكبر كثيراً يصبح التعبير عنه مستحيلاً!!

الأحزان الكبيرة كلما كبرت أصبحت كالآسوار نخجل عن البوح
بها وبأينتنا خلفها.

المشاعر الكبيرة كلما تغلغلت كجذور الأشجار فينا عجزنا عن
وصفها، كل الكلمات تظلمها، وتصبح جميع المفردات حرام أن
نضعها على لساننا لو صفها.

كانت قطرات دمعها تتساقط على كفيه كأنها قطرات ماء من سماء
يوم غائم، تُنذر بعواصف وفياضانات، وكانت الشابة الصغيرة ترقبه
وشعرها مسدل على كتفها كأنها أعلنت استسلامها لشيء كبير لا
تعرفه، وفي كبرياء أمها القديم، قالت:

- أشعر بحبك فلا داعي؛ لأن تعبر عنه، وأشعر بحزنك لكن لا
أفهم..

رفع العجوز رأسه كأنه يشفق عليها من الانتظار رغم علمه أن ذل
التوقعات، ومرار الرجاء هو أحياناً أرحم من رحمة الحقيقة وعجزها..
قال وهو يجهد في البكاء:
- مات السيد عصمت.

عن مقعدها نهضت تتقدم نحوه قائلة:
- هل بقيم له عمي عزاء كما فعل لأمي؟ هل يجبروني على ارتداء
ذاك الجلباب الأسود.
لماذا يدعي موتهم جميعاً؟! هي كذبة جديدة لعمي، كذبة جديدة
لسيدك..

كانت تردد كلماتها في جنون، وحين أصبحت أمامه نهض في تناقل
و ضمها إلى صدره قائلاً:
- مات بين ذراعي هاتين، والله بينهما مات وكنت أنتِ آخر كلماته
وصاياها!!

”من يخرج عن ثيابه إما يمت بردًا أو تقتله سخريّة من حوله، كالأسماك يا ولدي إن خرجت عن أنهارها تموت، هل تحب الموت“؟! أرخى غريب رأسه ينظر في كوب الشاي الذي صنعه لنفسه بعد صلاة الفجر وهو يتذكر كلمات والده له عندما كان طفلاً صغيراً.

كان يصطحبه كل يوم إلى بحيرة البرلس ليمارس مهنة الصيد، كان يقفز إلى جواره في المركب الصغير المسمى ”سمبوك“ ويبقيان فيها ساعات طويلة هم وشباكهم.

كره غريب رائحة الأسماك ورقصها أمام عينيه حتى انموت، كره جثثهم في ”الطاولات“ التي كانوا يعدونها للبيع في قرية ”الشخلوبة“ أو تعدّ لنقلها إلى ”بلطيم“ أو المدن الأخرى.

كلما كبر عامًا كبر كرهه للصيد وفي كل مرة كان يطلب فيها من أبيه ترك الصيد كان يردد كلماته تلك ثم يضع يده على كتفيه في حنان قائلاً:

- هل تحب الموت؟!!

هل ماتت زوجته وولده؛ لأنه خرج عن جنبابه حقًا؟! هل مات عصمت ورحلت أوليها لخروجهم عن أنهارهم؟!!

كان يرى الحسرة في عيني أبيه، وهو يتحدث عن "طه" رفيق عمره، وكيف يقف أبناؤه حوله حتى أصبح لديهم أكثر من مركب، ويستدير إلى "صالح" أكبر أبنائه يرجوه أن يقنع غريب بالعمل معهم.

حين مات أبوه فقيرًا لا يملك إلا تلك المركب الصغير ضمه صالح، وألح عليه في العمل معه، ومع والده، لكن غريب ترك القرية الصغيرة السطلة على بحيرة البرلس، وجاء إلى "دمرو" التابعة لمدينة "سيدي سالم". بعد شهر كان ينام في أحد مساجدها، اختاره أهل القرية للأذان فيها لحلاوة صوته ودمائة أخلاقه.

حين أحب جلييلة وتزوجها، وبعد إنجابهم لعبد الرحمن لم تعد النقود التي يجمعها له سكان دمرو نظير الأذان وإقامة الصلاة تكفيهم، عاد إلى قريته القديمة ليزور طه صديق والده.

لم ينكره الرجل، بل احتفى به، وارتمى صالح ولده بين ذراعي مريب حين أخبرهم برغبته في عمل ماء، دون تردد صاح صالح يطلب منه أن يحضر زوجته وولده إلى "الشخلوبة" قريتهم، ويعمل معه قائلًا: "أصبح ندينا أسطول مراكب يا غريب".

انتسم عندها يخبره أنه صديق طفولته، وأن أباه هو آخر ما بقي من انحة طفولته، إن اختلفوا، إن جازاه يوماً أو عتفه لتقصير يخر كل

”أريد العمل لدى غريب من أصدقائكم في ”دمرو“ نفسها أو حتى هنا، المسافة لا تتجاوز السبعة كيلومترات أستطيع قطعها ذهابًا وإيابًا كل يوم. غريب يريد العمل لدى غريب!!“

أطرق طه العجوز يومها برأسه لحظات، وعاد معه إلى بيت الغندور. لم يصدق غريب أبدًا أن طه يعرفه، الغندور هو رجل القرية الكبير وأعتى من فيها، أخبره طه أن بهجت ولد الغندور الكبير استعان به في إقامة مزارع سمكية كبيرة من أراضي ”بور“ اشتراها. لم يكن يظن أبدًا أن الغندور الكبير بنفسه يلقاهما، ويحتفي بهما على ذلك الوجه.

في نهاية اللقاء منحه عمل سائق على إحدى السيارات.

بقي الغريب يعمل خارج جليلابه حتى بعد وفاة الغندور الكبير، بل ضاعف له بهجت راتبه وأصبح من أهم رجاله الذين يأتهمهم على نقل محاصيله واستلام النقود.

هل مات عبدالرحمن؛ لأنه خرج عن جليلابه وذهب إلى القاهرة وتبعه هو وجيليلة!!

”الشقاء قدر يا غريب بقيت أم رحلت، الشقاء قدر!!“

أسبوع منذ عاد باليتيمة الصغيرة إلى ”دمرو“، ذهب إلى أيام العزاء الثلاث، لم يرها مرة واحدة، ويخجل من أن يطرق بابهم ويطلب رزقيتها. لكنه مطمئن عليها، هي في كتف عمها.

يعلم أنه كان قاسيًا عليها يوم هرب أمها نكن هو حقًا لا يلومه.
ما زال الغندور مثله فلاخا يرفض زواج أخيه من أجنبيه. نخط لو عرفها
الغندور كه اعرفها هو لحملها على رأسه وفي قلبه.

انتهى دورك يا غريب مع الغنادرة!!

لماذا يقتله الحنين إلى بحيرة "البرلس"، ورائحة أبيه وحتى رائحة
السلك، ورقصه قبل الموت، ولماذا يقاوم شوقه؟!

يشتاق أبا. وجيليلة وولده، يشتاق أوليجا وعصمت وحتى يسر، لكن
ليس بإمكانه أبدًا أن يلى أحدهم.

لِم يقاوم شوقه إلى "الشخلوية" فليذهب إليها، لن يتركه الغندور
دون عمل طويلاً.

فليذهب، ويبحث عن "صالح" صديق الطفولة، وليجلس على
شاطئ البحيرة وليتنسم وجه أبيه وشبكة صيده.

نهض عن مقعده، ووضع كوب الشاي الفارغ في مطبخ بيته الصغير،
وخرج على أطراف طريق القرية، ووقف يلوح بيده إلى السيارات التي
نمر صائحًا:

- "الشخلوية"!!

لا شيء يعيها، لا شيء على الإطلاق!!

يسر جميلة هادئة أرق من نسائم البحر، في أوج حزنها صامدة وفي قاع انكسارها رأسها مرفوع.

خدم البيت أحبوها، كلاب الحراسة في فناء البيت الكبير يلتفون حولها، حتى "فريد" تشعر به يطاردها بعينه ويتقرب إليها.

تنظر إليها منذ جاءت ومعها حقائبها بين الحين والآخر تبحث فيها عن شيء واحد يجعل كل من رآها يحبها ويجعلها هي كلما نظرت إليها تكرهها أكثر.

أسبوع وهي لا تجد سبباً يجعلها تكرهها، وتنظن أن كل الأسباب التي تدعوهم إلى حبها هي أسباب زائفة حمقاء.

لأنها جميلة كأماها؟! أم لأنها صامتة أم لأنها صامدة رغم كونها مكسورة؟!

أسباب العشق دوماً واهية وحدها أسباب الكراهية دوماً واضحة منطقية.

قدرية تكره "يسر"؛ لأنها ابنة قاتلة ماجنة، تكرهها؛ لأنها تريد أن تقاسمهم ثروة لم يتعب أبوها يوماً في صنع قرش واحد منها.

تكرهها؛ لأنها تراها تسرق قلب وحيدها، وتقتل قلب خديجة ابنة أخيها التي تحيا على حبه وحلم الارتباط به.

قدرية تلعن ألف لعنة؛ لأنها شيطانًا جاء يقلب كل ما خططت له وديرته له أعوام عمرها..

علمت فريدًا أن يحب خديجة، كانت تمنحه أجمل قطع الحلوى، وتخبره أن الصغيرة أحضرتها له.

هي من كانت تخبر خديجة أن فريدًا هو عالمها وأملها ورجلها وأن دخولها قصر الغندور على يديه، وتغير خارطة أيام أبيها وملاصحتها لن يحدث إلا أن تزوجت ابن عمها.

يُسر جاءت لتقلب كل هذا رأسًا على عقب بصوتها الهادئ وشعرها الأحمر الغزير.

ألا يكفي كل هذا لتكرهها؟!

ألا يكفي أنها عندما أخبرتها وفي ليلة العزاء الأولى عن موت والدها بجراحة مخدر أشاحت بوجهها دون حتى لمحة ذعر أو خجل.

نهرها "بهحت" بعدها، أخبرها أنه كان سيخبرها بفعله أبيها لكن ليس في الليلة الأولى، وقال فريد في ألم أنه ما كان لإخبارها داع، ولا حتى في الليلة الألف.

لا شيء يعيها، لكن تكرهها قدرية، ولن تتركها تسرق فريدًا، ونحرم أخاها وابنته من نسب الغنادرة.

احتملت بهجت أعوامًا، حرمها فيها من إنجاب أطفال غير فريد، أبسط حقها أن تنعم بخديجة وبأخيها معها ما بقي من حياتها. :-

يجن جنونها، كلما غادرت يُسر غرفتها وجاءت للجلوس معهم بناء على طلب عسا أو إلحاح فريد المستنكر والمتزايد.

ستحاربها، بل ستبيدها، لن تهزمها بطفلة ابنة قاتلة ومدمن مخدرات. تكتوي جنوبها كل ليلة بنوم يُسر في بيتهم!!

استدارت، حير شعرت بزوجها يصحو من نومه ودون وعي في اللحظة التي فتح فيها عينيه قالت:

- ما مصير الفتاة؟!

يعرف زوجته، ويعرف ما يدور في رأسها جيدًا؛ لهذا ليس مولعًا بها، ولا هي به مغرمة، أرخى رأسه، واعتدل بجسده على فراشه قائلاً:

- سيتزوجها فريد، بعد شهر يتزوجها.

كأن أفعى تسللت إلى فراشها، والتهمت أجفانها، قالت:

- هو يحب خديجة..

قاطعها الغندور في برود كبير قائلاً:

- تحادثنا في هذا الأمر، أخبرته أن بإمكانه أن يتزوج خديجة بعد

عام من زواجه بالفتاة، إن بقي يريدنا، لا أخونك يمانع ولا ابنته تمنع!!

قبل أن تعترض أو تفكر في كلمة استدار إليها ونظر في عينيها بقوة

وقال في حسم:

- كل الأراضي والمزارع التي هي باسم ابنتك الآن هي ملك لأخي، لا تنسي ذلك، بعته ما يمكنك أخى بالتوكيل فلا أقل من أن تشاركه فيه بسر بالزواج منه، لا أريدها أن تتزوج غريب ينش صفحات التاريخ..
قالت كأنها تحتضر:

- عصمت لم يكن هنا، وأنت تتابع أراضي والدك، لم يقف يوماً على محضول ولا كان هنا في تسمين ماشية.. عصمت لا يعلم حتى بالأراضي التي حوّلها إلى مزارع سمكية.

في حدة أمسك بكلتا وجتيها بين أصابع كفه، وقال:

- لكنه ماله ومال أبنائنا، العدل أن تتزوج فريد. كنت أخشى من رعونة عصمت، وكنت أخشى أن يزوجها لشاب غريب يشاركنا ثروتنا رغم اتفاقنا، لكن قالت السماء كلمتها، مات أخي وابنته هنا وفريد لا يمانع ماذا تريد؟! هل تريد بضعة آلاف تعويضاً لأخيك عن حلمكم القديم؟! أمنحه وأمنحك.

كان يضغط بأصابع كفه على وجتيها، وكانت تتألم لكن الألم الذي في رأسها كان أكبر!!

ترك الفراش يأمرها بإعداد الإفطار، وأخذت ترقبه وهو يغادر الغرفة إلى حمامها.

لن يطعننها بهجت، لن تتراجع. فريد سيتزوج خديجة.

لا تدري كيف لكنها لن تسلم!!

تموت إن أصبحت هذه زوجة ولدها وأم أحفادها.

من قال ألا عيب فيها؟!

يعيها ما هو أكبر من قدرية، ما هو أكبر من عقلها ورحمتها.

يُسر الغندور يعيها شيء يجعل الحسنات ذنوبًا، ويحيل الملائكة إلى شياطين يجب رجمهم حتى الموت.

شيء اسمه الغيرة والكراهية!!

كنسا كبرت أحزانتا. وتمكنت من آرواحنا، اتسعت عيون ذاكرتنا.
والثقت من مآقيها بكل القصص التي تضرم نازًا أكبر في صدورنا.
على شاطئ بحيرة البرلس قضى غريب ساعات طويلة ينظر إلى
مائها: كل ما هو من عند الله لا يتغير، وكل ما هو من يد الإنسان يتغير.
هو البحر وهي الأسماك، هو الرزق وهو الرزاق.

سماؤه لا تتغير، رحمته لا تتغير، نحن فقط من يتغير إيماننا وتشيع
وجوهنا ونراهم غير ما كنا نفعل، لكن كل شيء من عنده كما هو باق.
هنا كان يحمل "مقاطف" الصيد، ويتنظر أن يكبر ليهجر البحر
السراكب، وها هو اليوم بأعوام شبابه يعود باحثًا عنهم راجيًا لو
تذكرونه، أو عن حماقاته وجنون طفولته يسامحونه.

كيف كان عم "طه الشواف" يأتي إلى والده هنا يحمل معه بعض
الحب والبيض ليتناول الإفطار معًا، وكيف كان هو وصالح ولده يلعبان.
ما زال يحب صالحًا لكن أصبح يتحاشى لقاءه، منذ أصبحت ثروة
الشم أف أكبر من المفهوم، ومنذ ترددت حولهم الأقاويل عن تجارتهم
في المخدرات والهجرات ابتعد عنهم شيئًا فشيئًا، جاء صالح عزاء
لده وعزاء جلييلة، عرض عليه أن يترك العمل لدى الغدور، وعده
بأنه وعمل بسيط في الشخوبية لكنه رفض.

اليوم تتوق روحه إلى صالح الطفل الرفيق الذي يحمل رائحة طه صديق والده.

كل من يحبهم غريب ماتوا، فليرى صالحا، فليضمه ويودعه.

يُسّر إلى الغنادة عادت ويوم تأتي أوليجا تجدها لديهم.

الآن بإمكان الغريب أن يرفع ذراعاً إلى السماء ويطلب الموت، هو أيضاً يحتاجه، صالح لن يطمع أبداً في نقود يسّر التي تركتها أمها تحت مقعد السيارة، يأتّمه عليها ويموت

نعم إن هو فعل لن يخلّده الموت!!

نهض عن الصخرة الصغيرة التي يجلس عليها، وسار في طريقه الذي يعرفه جيداً حتى وصل إلى مراكب الشواف حين سألهم عن صديقه أخبروه أنه لا يأتي إلا في الظهيرة.

ابتسم غريب!! fb.com/Sa7er.Elkotob/

جميع الأسياذ يبدأون يومهم متأخراً.

استدار ليعود بحثاً عن سيارة تعود به إلى قرية "دمرو" لكنه عاد وغير رأيه.

من ينتظره هناك؟!

لا أحد سوى الذكريات والأشباح..

كبير هو بيت صالح كبيت الغندور.

كل بيوت الأثرياء كبيرة ربما لهذا هم تعساء لا يشعرون فيها بالدفء أبدًا.
استنكر حراس المنزل رؤيته وسؤاله عن صالح، لكن دخل أحدهم
لى البيت يحمل طلب اللقاء.

ينق أن صديقه سيخرج إليه لعلمه أنه لا يريد منه شيئًا، لا يختبئون
نك إلا إن ظنوك تأتيهم تريد مالا!!

لحظات وخرج الصديق يهمل صائحًا باسمه، أصبح عجوزًا مثله،
حين أصبحا في مواجهة أحدهما الآخر صاح، يقول:
- عدت إلى رشدك أيها العجوز، عدت أخيرًا.

ابتسم الغريب يضمه قائلاً:

- بل هي لحظات وأمضي، اشتقت إلى رائحة البحر في ثياك،
شتت إلى رائحة الأسماك وعم طه وأبي، فهل لي ببعض منها؟!
في الحنين والألم كل البشر سواء، الفقير كالثرى والطاهر كالذنيء
لهم في الحنين سواء.

تعانق الصديقان، وغالب صالح دمه يقول:

- لا تدخل البيت، فلنذهب إلى حيث كنا نلعب حيث كان أبوانا يجلسان!!



سكب لها بعض الطعام في صحنها، وقالت في حدة:

- حتى الإفطار تتناولينه بالشوكة والسكين؟!

نظرت يُسر إلى عمها، ثم أرخت عيونها في صحنها وتمتمت:

- أعتذر لكن لا أعرف كيف بيدي أو بالملعقة وحدها أكل.

تهدد الغندور في ملل، يعلم أن قدرية تحاصرها باللوم لكن لا يمانع، يرى القادمة تبالغ في ترفعها.

ماتت أمها منذ ثمانية أعوام، فكيف بقيت هي هكذا أم تراها قبل أن تموت جعلت من أخيه نسخة منها.

في حزم نظر إلى الشابة، قائلاً:

- يجب أن تعتادي حياتنا وأدواتها ما دمت هنا ستكملين عمرك.

وضعت الشوكة في صحنها ونظرت إليه وفي سكون لا يخلو من رعشة خوف قديمة قالت:

- بل أعود إنى يبتاء إجازتي الصيفية تنتهي بعد شهر لا أستطيع التغيب يوماً واحداً، أنا "ثانوية عامة".

دون أن يهتز نه جفن أكمل عمها بقول وهو يحدق في عينيها:

- لسنا في "روسيا"، نحن في مصر، في ريفها، قبل انتهاء الإجازة
تزوجين.

رفع عينيه إلى فريد، وأكمل يقول:

- إن وافق زوجك تكملين عامك الدراسي هنا.

جالت عينها بينهما في ألم، وقالت:

- وماذا إن كنت لا أريد الزواج، ولا أريد أن أحيي هنا؟ عندي
تمارين سباحة وتمارين..

لم تستطع أن تكمل إلا أن قدرية ضحكت ساخرة، وقاطعتها قائلة:

- تمارين رقص؟!

شعر فريد بها تحتضر خوفاً وألماً، فقال في حنان أثار جنون أمه
أكثر:

- عندما تتزوجين، قد يفعل لك زوجك ما تريد.

لم تمالك الأم نفسها، واستدارت إليه تقول في حدة:

- أي زوج وأي رجل في "دمرو" هذا الذي تخلع زوجته ملابسها
أرفص أو تعوم!!

بدأت دمعاتها تخونها وبوهن كبير قالت:

كان "بابا" يأخذني إلى التمارين، حصلت على بطولة الجمهورية
في السباحة، ثم يقل لي يوماً..

خففه دق على المائدة ونهض عن مكانه الغندور يقاطعها قائلاً:

- "كان يُسرّ كان"!! عصمت مات، ولن نحيا العمر في خطاياها، ليس مسموحاً لك حتى بالتفكير في هذه الأمور، شهور وربما أيام وتزوجين فريد. أنت لحم الغنادرة ودمهم وآن الآوان أن يعود كل شيء إلى نصابه الصحيح، هل تفهمين؟!

لم تعد صغيرة أبدًا!!

تفهم كل كلمة قالها عمها وتعي جيدًا نظرات فريد التي بدأت تلاحقها.

تفهم أيضًا كلمات قدرية التي نقشتها في أذنيها منذ قليل تخبرها أنها تشعر بها عازًا كبيرًا عليهم، وأن تراب قدمي خديجة ابنة أخيها برأسها هي وأمها.

تفهم كل هذا لكن ما لا تفهمه لم بعد كل هذا يريدون تزويجها له، ولم هو نفسه يطاردها إن كان عاشقًا للسمراء التي تزور عمتها كل صباح، وتكاد تقتل يسر بكلماتها ونظراتها.

هل حقًا تقضي باقي عمرها في هذا المكان؟

هل تصبح كخديجة أو قدرية في يوم ما؟ هل يكون فريد هذا هو فارس أيامها؟

حدثت شاهيناز منذ ساعات في غرفتها مكالمة طويلة بكت فيها كثيرًا وطويلاً على سماعة الهاتف.

لم تكن معلمتها تعلم بموت أبيها ورحيلها عن القاهرة، أخبرتها كيف يريدون تزويجها لابن عمها، أخبرتها أنه لا مدرسة ولا باليه أو

سباحة، كانت تستغيث بها حتى إنها كانت تطبق بأسنانها على شفتيها بين الحين والآخر لمنع رجاء تريد البوح به، تمت لو ترجوها أن تأتي وتأخذها لتحيا معها في بيتها.

فهمتها الكبرى كأنها سمعت ما أرادت قوله، أخبرتها أن عمها قانونًا وشرعًا هو وليها، طمأنتها ألا أحد بإمكانه تزويجها رغما عنها، أعادت عليها الجملة ثلاث مرات، "حتى لو أحضروا لك المأذون، اخرجي إليه وأخبريه أنك لا تريدين الزواج وأنت قاصر حييتي، قاصر!!"

نرى ماذا يكون عقابها إن فعلت هذا؟!

تململت في فراشها، ونهضت عنه في ثاقل، وغادرت غرفتها في هدوء، العاشرة مساء وكل من في البيت ناموا.

هبطت سلالم البيت، وخرجت إلى الفناء، حدائق البيت كبيرة، بل هي حقول لا حدائق.

جلست على أحد المقاعد الخشبية في صمت تنظر إلى السماء، مقمرة هي الليلة غارق في الظلام قلبها.

انفضت انتفاضة صغيرة عندما شعرت بشيء خلفها يتحرك، بتسمت ابتسامة صغيرة حينما رآته، وضعت كفها على رأسه تربت عليه في حنان، هو أحد كلاب الحراسة، حتى الكلاب في هذا البيت بلا أسماء.

استكان الكلب الضخم، وهذا تحت لمسات كفها الصغيرة، وشعرت بدموعها تهطل في سحاء.

أين عصمت؟! أحقاً لن تراه أبداً؟!

ما يذبحها هو موت الأمل في لقاء، رغم غياب أمها كل هذه الأعوام
إلا أن أملاً كبيراً ما زال يلوح في صدرها بيديه كل حين وآخر يعودتها.
وخذها عودة عصمت لا أمل فيها!!

رغم قلة أحاديثها معه إلا أن الشوق إليه يقتلها، لمعة عينيه وهي في
تمارين السباحة، صرخاته يوم حصدت الميداليات الأربع، ثم الأخيرة
في بطولة الجمهورية.

ساندوتشات المدرسة التي كان يعدها قبل خروجها ونومه.
تفتقده وتشعر أنها لم تبكه كما يجب، لم تبكه أبداً كما ينبغي كان
الخوف جمد الدمع في مقلتيها.

ضمت رأس الكلب إلى صدرها، وشعرت به هو الآخر يهدأ كأنه
عن الحنان يبحث..

تريد أن تطلق دموعها، تريد أن تصرخ وتصرخ.
لا تريد البقاء هنا، لا تريد الزواج من فريد، وتكره رؤية وجه أمه
وسماع صوتها.

الخوف يكممها، خوف كبير يشل كل قطعة في جسدها، خوف
قديم عمره ثمانية أعوام وأكثر.

برفق. أبعدت رأس رفيقها عن صدرها، ونهضت عن المقعد.

دون وعي وعلى أطراف أصابع قدميها أخذت تدور.

كانت ترقص تلك الرقصة التي رقصتها بي حفل نهاية العام.
كانت تدور على أطراف أصابعها كفراشة لا تعلم كيف لا تدور،
كلما رفعت ذراعيها في الهواء، ومالت بهما شعرت أن شيئاً بداخلها
يتحرر.

لما انثنت على الأرض تلامسها بأطراف أصابعها كانت تشعر أن
دموعها تسقط أكثر.

رقصت طويلاً وكثيراً ومع كل خطوة دانت تبكي أكثر.

كل إنسان يحزن بطريقة التي يستطيعها!!

هناك من يبكي دمعاً، وهناك من يتزف حرقاً، وآخر مومسقى وهي
تتمزق رقصاً.

في دورانها حول نفسها تذكرت كلمات معلمتها حينما أخبرتها أنها
تتمنى لو تأتي وتأخذها معها لكن هو المستحيل.

انتصبت على أطراف قدم واحدة، ورفعت الأخرى تلامس منتصف
ساقها، وأخذت تدور حول نفسها دورات كثيرة، وصوت شاهيناز في
أذنيها يكرر:

”أ لك أجنبية، اطلبي من غريب أن يأخذك إلى سفارة بلدها،
وأخبريهم كل شيء واطلبي منهم حمايتك“!!

كانت تدور في خفة كأنها إبرة مغزل الساحرة في قصص الأطفال.

لا أحد الآن يحميها، عصمت مات وأوليجا غابت، حتى الغريب ما عادت تراه.

“إن لم تكوني مع نفسك صادقة، لن تجديني ولن أجذك.”

وصية أمها التي لا تنساها ولا تفهمها..

كيف نكون مع أنفسنا صادقين وصراعا ليس معها.

توقفت عن الدوران حول نفسها، وانشئت تتكور على الأرض كأنها رهرة صغيرة سقطت دون أن يشعر بها أحد.

سمعت صوته يصيح في خوف:

هل أنت بخير؟!

كان أحد حراس البيت الذي وقف يتأمل ما تفعله، وهو يجهل كنهه، لكن كان واضحا أنه بها كان منبهرا.

حين فتحت عينيها، ومن خلف دموعها نظرت إليه، قالت في أماسها المتقطعة:

لا تخف، أنا بخير هل تدلني على بيت عم غريب!! أرجوك خذني

١١

منذ قدوم ابنة عصمت، منذ اللحظة التي رآها هو وجميع “الغفر”

، ها، ظنوه جميعا إشفاقا على يتيمة مات أبوها بعد موت أمها.

لنرا أنه إشفاق على جميلة كهذه من الحياة مع جبار كالغندور

، فاسية كزوجته، لكن في الأسابيع القليلة التي أمضتها، ومع تحيتها

لهم كلما رأتهم، مع دمعاتها التي يرونها تحببها وتبتسم لهم، منذ سقوطها أمامهم على قبر أبيها يوم أخذها الغندور إليه، بل منذ انحنائها لتربت على رأس كلاب الحراسة في أول مرة رأتها وهي تنبح في وجهها علموا جميعاً أن عصمت أنجب زهرة بدماء غيّرت دمها الغندوري، حتى هو لا يستطيع أبداً أن يقاوم رغبته في أن يمد يده إلى كفها ويأخذها إلى غريب.

الآن أدركوا لماذا بقي الغريب معها بعد وفاة ولده وزوجته، ليست من الغنادرة أبداً!!

نهضت يُشر عن الأرض، وأعادت عليه في رجاء طلبها.

”خذني إلى بيت الغريب، أرجوك!!“

بعصاه الغليظة التي في يده دق على الأرض مرتين لينهض الكلب القابع إلى جوارها ويمضي إلى حيث أشار إليه، وقالت بوجهها المغسول بدمعه:

- أبدل ملابسك وآتيك، لن أمكث عنده كثيراً، فقط أريد زيارته والحديث إليه..

كيف نحنو على أحد حد البكاء، لا يفهم لكن ما زال في رأسه عقل رغم الدمعة التي تطرق أطراف عينيه..

أرعى الحارس رأسه، وقال:

- لا أحد يخرج دون إذن الغندور، لا أستطيع حتى أن أسمع لك بعبور البوابة، لا أحد يعصى سيده!!

اتسعت عيناها الرمادية المستديرة في ذعر، وقالت:

- هل أنا سجينة؟!

نظر الرجل بعينه بعيدًا عنها، وقال:

- لا يا ابنتي، لكنها الأعراف، وهي الأوامر.

وعادت تقوّن في ذهنها:

- لست سجينة.

أطرق برأسه، وهو يتعدّ قائلاً:

- ولست حرة، ولا أنا أيضًا حر!!

كان صالح كريماً معه بلا حدود.

أبقاه اليوم بأكمله في "الشخلوبة"، بعد مأدبة الإفطار تلك تجول به في أسطول مراكب الصيد التي أصبحوا أباطرتها.

سأله دون حرج عن قصة المخدرات، ضحك صديقه ضحكة صغيرة ولم يجب، عاد وسأله عن سر شباب سيدي سالم الذين يسافرون على مراكب "الشواف"، ضحك الرجل وأخبره أنهم حقاً يفعلون، وأردف يشرح قائلاً:

- لا نلقي بهم في البحر يا غريب كما يفعل سوانا، هناك مراكب صيد تلقى بأبنائنا في مياه مصرية بعد أن يسلبونهم نقودهم، نحن لا نفعل، هي عملية كبيرة منظمة، تخرج مراكب الصيد محملة بالشباب الذي يكاد يموت هنا فقراً وضياعاً، يتظرهم على ضفاف اليونان أو إيطاليا رجال تظمن على سلامتهم حتى عبورهم الحدود، وتعود مراكبنا محملة بأسماكها، في الشخلوبة اليوم أثرياء يملكون الملايين، يوماً نحن نقلناهم على مراكبنا لا يملكون شروى نقيراً!!

أردف هو يومها يقول "عشرات منهم يموتون! أما مات شقيق السيدة قدرية وهو شاب على أحد هذه المراكب".

ربت الصديق على كتف رفيق طفولته، وقال:

- نعم منهم من يموت، ومئات منهم يحيون، ويأتون محملين بالدولارات أو يستقبلون مئات آخرين هناك، ويصنعون لهم حياة بعد أن ماتت أحلامهم من الفقر والمرض هنا يا غريب، أن يموت بعضهم أفضل من أن يحيا جميعهم كالموتى، بل وأشد بؤسًا!!

أدرك غريب عندها أن صديقه يعمل في المخدرات، لو لم يكن لنفى، لكنه ما أراد أن يكذب ولا استطاع أن يصدق لهذا رفض هو تمامًا كل عروضه له بالعمل معه في الصيد ومراكبه.

المال مشبوه وملوث وغريب ما عاد يريد مالا، هو يتمنى الخروج نقيًا قدر ما يستطيع، أضاعت المخدرات سيده أمام عينيه.

في المساء، وبعد وليمة العشاء الكبرى التي ما استطاع ابتلاع لقيماتها في جوفه، ابتسم صالح كأنه فهم ما يشعر به، وأخبره أنهم يخرجون الزكاة، ويعيلون الفقراء..

الامر تجارة وخدمات، الامر برمته حياة أصبحت أكثر تعقيدًا من شبكة وسنارة و"مبولك" صيد!!

حين امتنع عن تناول الطعام أمسك صديقه بكفه في صدق شعر به بكل أعوام عمره وشييات رأسه يخبره أنه يريد معه في الشغلوبة، هو آخر روائح الزمن الطاهر، أخبره أن كل زوايا القرية ومساجدها الصغيرة ملك له فليختر منها ما يشاء ويرفع فيها صوت الأذان من جديد.

"قلتمت هنا حيث ولدت يا غريب ولأمت أنا وأنت إلى جوارى يا رفيق الطفولة".

احتضنه غريب طويلاً إلى صدره، وأخرج له من طيات ثيابه مظروف، قال:

- هذه النقود تركتها زوجة السيد عصمت رحمه الله لابنتها قبل رحيلها، وهذه البطاقة الصغيرة أمانة لديك ضعها في هاتف لا تغلقه أبداً، إن حادثتك السيدة أوليجا، وأنا على قيد الحياة أخبرني. وإن مت أخبرها أنني على العهد حافظت.

في ذهول نظر إليه صديقه، وقال:

- أما ماتت زوجة المرحوم؟! كنت هناك في ليالي العزاء الثلاث.

نهض لحظتها عن مقعده، وأخذ طريق عودته إلى "دمرو" وهو يقول:

- قصة لا داعي لتفاصيلها، أنت صادق يا صالح، كان بوسعك أن

تنفي قصة المخدرات، وتقسم ككل الكاذبين إلا أنك لم تفعل، أنت

صادق لهذا اتتمك، الصادق لا بد وأن يكون أميناً، سأعود إلى دمرو،

أنتظر الموت، بحق كل ما كان وما سيقى بيننا، أنت صديق للغادرة.

أعلم أن يُسر لن تحتاج هذه النقود لكنها أمانة، وأعلم أيضاً أن

السيدة أوليجا قد لا تعود لكنه أمل.

ما عاد لي يا صديقي سواك!!

عاهده الصديق، وعاد هو إلى بيت ذكرياته وأشباهه.

عاد يرفع الأذان في زاوية قريبة من منزله، ينتظر الموت ويشعر أنه

لن يخلده.

يُشر ما عادت تتصل به، حادثها مرتين فوجد هاتفها مغلقاً.

. لا يلومها، بل هو سعيد من أجلها مطمئن على حالها.

سيرفع أذان صلاة العشاء، وبعد انتهاء الصلاة سيقف ويتلو دعاء الذي يختتم به كل صلاة، دعاء يدعو فيها لروح ولده وزوجته وأبيه، وكل الآباء والأبناء الذين يعرفهم.

أصبح عدد من يصلون خلفه من سكان دمرو يملأ المسجد الصغير، جميعهم ينتظرون انتهاء الصلاة، ويقفون يرددون معه أدعيتهم، بل منهم من يطلب الدعاء له، أو لمن يحب وغاب، أو مرض.

ما زال أهل القرية على نقائهم رغم التفسير، ما زالت صلواتهم صادقة، ومشاعرهم أكثر دفئاً من المحرومة.

رحم الله عصمت، ليتها ما تركها هو ولا عبد الرحمن.

لكن العمر مقدر كما قال صالح وإن اختلفت أسباب الرحيل.

حين أنهى الصلاة والدعاء وخرج كل من كان في المسجد الصغير أنهى قراءة بعض الآيات التي يختتم بها يومه، ثم أغلق باب مسجده الذي أصبح عنه مسئولاً، وفي طريقه إلى بيته سمع وقع خطوات تتبعه!! حين استدار وجده يركض خلفه بسرعة. يذكره ويعرفه هو "عبد الجبار" أحد حراس بيت الغندور، توقف غريبتا بسرعة فهو يعلم أن لا حراس يغادرون بيت الغندور في وقت كهذا. تقدم الرجل نحوه، وقال هاماً:

- أعلم أن أحدًا لن يعرف ما سأخبرك به، يُسر تريد رؤيتك، الغندور يمنعها من الخروج وحدها، أخبرتها أنني لن أفعل نكن لا أستطيع أبدًا ألا أفعل، زوجتي في دارهم تعمل منذ أعوام كما تعلم، أخبرتني أنهم أخذوا منها هاتصها، وأن السيد بهجت سيزوجها فريد.

كان غريب ينصت في اهتمام لكن خوفًا كبيرًا بدأ يدب في صدره حين أكمل الرجل يقول:

- أخبرتني أيضًا أنها سمعت السيد الغندور يخبر زوجته أنه باع كل ما كان يملكه أخوه إلى ولده. سرقوا اليتيمة يا غريب ويريدون تزويجها لفريد.

قاطعته الغريب كأنه يحاول أن ينكر ما يفهمه قائلاً:

- ما المانع؟! فريد شاب طيب، هو بها وهي به أولى.

وضع القادف كفه على كتف غريب، وقال:

- يجب أن أعود، هم يسيئون معاملتها، السيدة قدريه أخبرت زوجتي أنها تمنى لو تستطيع قتلها، أعلم أنك مثلي لا تملك شيئًا، لكن فقط أردت أن أخبرك أن الفتاة تموت رغبة في رؤيتك..

ابتعد الرجل في ذاك الطريق الضيق، واستدار يلوح له من بعيد قائلاً:

- لا تأتي باسمي، أنا وزوجتي وأبنائي نموت إن طردونا، أو عاقبونا،

كل ما في القصة أنها طيبة حنون لا أملك إلا أن أنقل لك طليها!!



أخبرته أنها دعت خديجة إلى طعام الغداء معهم.

حاول فريد أن يتخلص من القصة، وأخبرها أن لديه مع والده موعدًا مهمًا، في حزم أخبرته أن الغندور يعلم أنها تريد في أمر أهم، ولم يمانع في عودته في فترة الظهيرة، أعدت كل شيء كعادتها حينما تريد شيئًا، أخبرته أن خديجة تموت حزنًا وألمًا بعد علمها بقصة زواجه من بسر التي يعدون له، لم يسألها لِمَ أخبرتها فهو يعلم ألا إجابة ستصله، بل هي حتى لم تنتظر أن يسأل.

قدرية على حق!! من حق خديجة عليه أن يعلمتها بأنها ما زالت في قلبه.

نعم ما زال يحبها ويريدها زوجة وأماً لأبنائه، لكن زواجه من ابنة عمه ضرورة، أغمض عينيه لحظة وهو يتسم ابنسامة ساخرة صغيرة.

أصبح يشتهي القادمة ويحلم بالزواج منها!!

هل هي عقدة الريف أم هي عقدة العرب أجمعين؟!

المرأة التي تحمل أصولاً أجنبية لها مذاق آخر يسعى الرجل إليه، وإن كان عقله لا يقرها، فعلها عمه يومًا وها هو على الدرب نفسه يسير.

لا يريد منها أطفالاً، يريد أبناءه من خديجة، لا يغمض عينه أبداً إلا ويراه بين ذراعيه بشعرها الأحمر الطويل، بحاجبيها المعقودين دوماً في كبرياء، بالأمس وجدها تتجول في حديقة البيت قاوم كفيه كثيراً وهما يحاولان الوصول إلى جزء من جسدها.

شعور غريب مبهم لا يفهمه لكن لم يجب أن يفهم، يشتهيها وأصبح زواجه منها أمراً مفروغاً منه، أرض أبيها باسمه، لن يتركوها لغريب، بل لن يتركوها لها هي نفسها..

هي والأرض ملك لهم!!

انتفض حين سمع أمه تناديه ليخرج من غرفته، هبط إلى الدور السفلي، وكانت هي أول من رآه، كانت ترتدي ثوباً جديداً تقترب ألوانه من ثياب ابنة عمه، نكس رأسه في خجل واقترب منها يرحب بها وبطرف عينيها ذكرته أمه باتفاق كان بينهما، وقالت:

- اصطحب ابنة خالك إلى غرفة الضيوف فهي تريد الحديث معك في أمر ما.

بذات العين رمت بنظرة إلى ابنة أخيها، جعلته يسأل بما أوصتها هي الأخرى؟!

حين غاب عن عينيها داخل الغرفة التي تترك بابها مفتوحاً صاحت تنادي أمينة كبيرة خادومات المنزل تطلب منها إعداد مائدة الغداء، وقبل أن تتعد همست في أذنيها تطلب منها استدعاء يسر إنيتها لأمر عاجل!!



حين دخل إلى الغرفة رآها تختار الجلوس على الأريكة التي تتسع
لشخصين، أو أكثر ورأى نفسه يختار مقعد بعيداً عنها.

أكلته الدهشة من نفسه، هو دوماً يختار أقرب المقاعد إلى يسر،
وحين يجلس إلى خديجة يجلس عنها بعيداً، ابنة خاله أقدس عنده من
ابنة عمه.

بعد لحظات رفع رأسه ينظر إليها في إشفاق كبير، وقال في حنان:

.. ما لديك؟!

لم ترفع عينها وتنظر إليه، بل بقيت تعث بكفيها المضمومتين على
فخذيهما لحظات، ثم قالت بصوت مرتعش باك:

.. بمجهود كبير حصلت على شهادة الإعدادية لكن فريد علّما
التلفزيون ما لا نُعلّمه المدارس!!

عمتي وأمي اكفيا طوال الأعوام الماضية بتعليمي ماذا تحب؟ ماذا
تأكل؟ ماذا ترتدي حتى أني بت لا أطيق رائحة الدجاج؛ لأنك لا تأكله،
أعلم أنك لا تحب اللون الوردي لكني ارتديته لأن يسر ترتديه كثيراً،
ولأنك تغيرت منذ حضرت ولأنني أعلم أيضاً أنك ستزوجه.

حين حاول أن يقاطعها ابتلعت إحدى دمعاتها، وأكملت تقول:

- أعلم أنك تزوجها؛ لأنها ابنة عمك اليتيمة؛ ولأن ثروة الغنادرة يجب أن تبقى في أيديهم محصورة، لن أقول إن القصة كانت ستختلف إن كان عمي عصمت ما زال على قيد الحياة فهو لم يعد لكن أريد فقط أن أقول أنك أنت ثروتي، سأحتمل إن تزوجتنا معًا أنا وهي لكن أشعر أنها ستهزمني.

التقطت أنفاسًا ضائعة من صدرها، وأكملت في ألم:

- ليست القضية أنها أصغر وأجمل وأرق، ليست القضية أبدًا أن ثيابها تختلف، وإن كانت نفس ثيابي ونفس ألوانها، القضية أنت!!

في عينيك شيء اختلف منذ حضورها، في صوتك شيء لم يكن منذ طفولتنا، طلبت مني عمتي أن أقول أشياء، وحتى باب دارنا كانت أمي تعيد على مسامعي أشياء أخرى أقولها، أريد منك شيئًا واحدًا غير كل ما أخبروني به ونسيته، أريد أن تخبرني ماذا أنت تريد؟!

في هذه اللحظة فقط أدرك أنه أبدًا ليس كأبيه وليس كأمه.

فريد الغندور كعمه جاء، عاشقًا باع الدنيا من أجل روسية هاربة وضعفًا باع الأرض والثروة من أجل نساء أخريات.

لا يعلم ماذا يريد سوى أنه يمتنى لو يضعها إلى صدره، خديجة حبيبته ورفيقة طفولته، ابنة خاله التي يريد لها زوجته ما بقي من العمر لكن في ذات اللحظة وبذات القوة لا يستطيع أبدًا أن يتخلى عن رغبته في يسر.

ليس لأنها أوامر أبيه وليس من أجل الأرض، نالارض قانونا لهم
والفتاة أضعف من الحروب، بل من أجل ضغنه في قلبه ونداء في
عروقه لا يفهم كنهه!!

عادت خديجة تن، وهي تقف عن مقعدها تقول:

- ما دمت لا تعلم، ما دمت تبحث بداخلك فلا معنى لهذا سوى..

لم يستطع أبدًا أن يتركها تكمل، نهض هو الآخر عن مقعده، وتقدم
نحوها ووضع كفه على رأسها، وقال مقاطعًا:

- أريدك وتعلمين وأتزوجها وأيضًا تعلمين.

أرخت عينيه يتذكر كلمات أمه عن عمه وهي تصفه بالكاذب
الأحمق، وقال:

- وحدك في قلبي لكن ليس بالقلب وحده نه يا!!

قبل أن يكمل، أو تعجب استدارت خديجة تنظر إلى من دخل الغرفة
من بابها المفتوح في ذهول!!

كانت يسر تنظر إليهم بابتسامة صغيرة ساخرة، تقول:

- أصرت طنط قدرية أن آتيكم بنفسي لأخبركم أن الطعام على
المائدة!!



القوة ليست ثروة، أو سلطاناً!! هم فقط عوامل مساعدة وإضافية.
القوة صفة يتسم بها بعض الأشخاص دوناً عن سواهم.
اليوم علمت أن حبيبها ليس قوياً!!

حين دخلت يسر عليهما لتسمع جملته الأخيرة عن أنها، وحدها في
قلبه رآته يهتز كإحدى أوراق أشجار الخريف التي نخطو عليها بأحذيتنا
عندما تسقط عن أغصانها ونسعد بصوت تكسرها تحت أقدامنا.
ابتعد عنها وشعرت به يكاد يبكي خوفاً من ابنة عمه.
فريد ليس قوياً، هي كعمتها رغم أنها الأضعف إلا أنها منه
الأقوى!!

غريمته أيضاً رغم كل ما هي فيه قوية.
تلك الرأس المرفوعة على مائدة الطعام، تلك العين الثاقبة التي
كانت تتجول بها على وجوههم أعلنت أنها رغم يتمها وضعفها
ورسمهم لأقدارها واستيلائهم على مالها إلا أنها قوية.
الحرب كبيرة يا خديجة فهل أنت مستعدة؟!
رجلك ضعيف وغريمك كأمة قوية.

وقفت خديجة لحظات تلتقط أنفاسها وتنظر حولها في طرقات القرية التي تسير فيها عتده إلى بيتهم.

خذيها فريد!!

شيء كبير تحول اليوم وسقط بينهم.

كانت تبكي وترتعش، وهي تتحدث إليه وكان حائراً زائغاً، وهو يتحدث إليها.

لو أنه أخبرها في ثقة أنه لن يترك الثروة تضيع، وأنه سيجمع بين ابنة خاله وابنة عمه وأنه لا كلمات عنده يضيفها لما انهار بداخلها كما حدث.

عندما يتردد رجل بين امرأتين بذات القدر فهذا يعني ألا واحدة منهما لها عنده قدر.

هل تعلن أنها لا تريده؟!

تموت أمها ويجن أبوها إن فعلت.

هل تنسحب وتترك فريد؟!

ما عاد في بلدتهم الصغيرة هذه أحد يتقدم للزواج منها، كل من فيها يعلم أنها للغدور الصغير..

كيف في لحظة واحدة يسقط رجل كان العمر واقفاً في قلب امرأة وعينيها حتى إن كانت منه أضعف وإليه أحوج؟!

سقط فريد حقاً واهتزت صورته!!

دقت على باب بيتهم دقائق بكفها لتفتح أمها، وما إن دخلت حتى صاحت تسألها:

- ماذا حدث؟ تحدثت إليه!!

ألفت بحجاب رأسها على أحد المقاعد، ونظرت حولها في سكون..

بيتهم صغير بسيط، لا تكييف فيه ولا خدم، لا حقول ولا ثريات كبيرة وأشجار عملاقة، لا هاتف محمول واحد يمسكه أهلها، أو جيرانها.

عادت أمها تسألها في لهفة:

- بالله عليك تحدثني.

نحن لا نبكي الضعفاء أبدًا!!

كل دمعاتها جفت، كل انتفاضات روحها سكنت في تلك اللحظة التي أبعد فيها فريد كفه عن رأسها وانتفض بعيدًا عنها إكرامًا لدخول أخرى.

في سكون قالت:

- اطمئني سأزوج فريد، ويصبح أحفادك من الغنادرة!!

هل هذا هو ما كانت تعنيه أمها بالصدق مع النفس؟!
هل حقًا كانت تُعدّها لهذه اللحظة، وهل يعيد التاريخ دومًا نفسه؟!
هل كانت أوليغا صادقة مع نفسها يوم قررت الرحيل عنها وعن
أبيها في تلك الليلة؟!!

هل تُهرّبها من مواجهة نفسها هو ما أخر لقاءها بأُمها..
لا تعلم لكن كان نقاش الأُمس مشتعلًا بينها وزوجة عمها، اقتحمت
عليها باب غرفتها، وهي ترقص أمام مرآتها وصاحت فيها تأمرها
بالتوقف عن هذه الحركات الشيطانية التي تؤذيها شبه عارية..

ارتعدت فرائصها ورغم هذا أخبرتها في ثبات أن ما تفعله ليس
حركات مجنونة، بل هو فن وأنها أبدًا ليست عارية، بل ترتدي ثيابًا لا
ترديها إلا فتاة خصّها الله بموهبة ومنتحتها السماء روحًا غير الأرواح.
أغلقت دونها الباب وأخبرتها في كراهية سوداء أنها آفة أفرزتها
راقصة قاتلة هاربة، رغم قسوة قدرية إلا أن يسر لا تخافها أبدًا كما
تخاف عمها.

صاحت تسألها لما يحتفظون بأفة في بيتهم؟!!

سألنها لما يصرون على تزويجها ولدهم، وهو في عشق أخرى غارق، بل لِمَ يتودد هو ذاته إليها؟!

الآفة هي أنهم يكذبون، يدعون كراهيتها، وهم بها يتمسكون.
”أمن أجل ثروة والدي؟!“..

ما إن قالت تلك الكلمات حتى ضحكت قدرية في سخرية تخبرها أنها معدمة لا تملك شروى نقيير..

”والدك العاشق باع كل ما يملك، أيتها البلهاء نحن نتصدق عليك بطعامك وشرابك، نزوجك ولدنا لأنك فقط تحملين اسم الغنادرة“؟! ليست طفلة، تخطو نحو عامها السابع عشر، عاشت حرمانًا وخوفًا وألمًا يجعلها أكبر من قدرية نفسها.

في مقتل ضربتها حين أجابتها في سخرية..

- ومتى أصبحت أنت من الغنادرة؟!

انطلقت الأخرى كالقذيفة تتوعدها بأيام سوداء اسمها ”ما بقي من العمر“ وأن عليها أن تجد لنفسها منها مخرجًا سوى ما تدعوه ”فناً“..

كيف في لحظة نأمن من نعلم أنهم يكرهوننا، كيف في لحظة نمد يدنا نسألهم الدواء، ونحن نعلم لو أن السمَّ بأيديهم لحقنوه في دمائنا؟!

في تلك اللحظة سألتها كأنها تتوسل إليها كيف تتركهم، أخبرتها أنها حقًا لا تريد أن تجرح خديجة ولا تريد أن تؤذيها برويتها، أو الحياة معها، أخبرتها أنها حاولت الهرب لكنها سجينه..

أقسمت عليها أن تساعدني في الرحيل، وأنها يوماً لن تعود لكن قدرية نظرت إليها في قسوة وخطت نحو باب الغرفة وقبل أن تفتحه استدارت نحوها تقول:

- لم تسأل أملك أحداً قبل أن تسرق وتختفي!!

هل تريدها أن تفعل مثل ما فعلت أمها؟!

لأمها بلد آخر!!

أخبرتها معلمتها بذات الشيء، فلتذهب إلى سفارة أمها وتطلب منهم أن يبحثوا لها عنها ولكن كيف تفعل..

قضت الليلة بأكملها بشوب رقصها مكثورة على فراشها تنظر إلى المرأة وهي تفكر..

كلمات أمها تطن في أذنيها، "الصدق مع النفس".

لا تريد من الأرض شيئاً سوى أمها والباله. كل مطلب آخر يشوبه شيء من الكذب إلا هذين، أمها والباله!!

حين تسلل ضوء الفجر من سرقفة نافذتها، ونظرت إليه سقط جفناها. أمدهما فوق الآخر كأنها من إعيائها عن وعيها غيب، سمعت بعد ذلك لا تعلمه طرقات على باب غرفتها، ودخلت خادمة البيت تخبرها أنها إلى الإفطار يدعوها، من خلف جفنيها أخبرتها أنها لا تريد الإفطار..

حاولت أن تنام لكن عادت إليها تقول:

- السيد بهجت يخبرك أنه لم يسأل إن كنت تريدان الإفطار أم لا تريدان، هو يريدك أن تفطري معهم!!

ما زالت صورته، وهو يلطمها يوم كانت طفلة في الثامنة من عمرها لا تفارق عينيها، ما زال في أعماقها منه خوف لا تفهمه..

في هدوء نهضت وبدلت ثيابها، وهبطت إليه تجلس على مائدة الإفطار دون كلمة واحدة..

وحده فريد مديده إليها بأحد صحن الطعام لشكره رافضة تناول شيء منه..

بعد لحظات وفي صوت قوي هادي، قال عمها:

- في الأسبوع القادم تزوجين فريد، سنخصص لكما جناحًا صغيرًا في الدور العلوي، مبروك..

التقط فريد أطراف الحديث، وقال كأنه يحاول استرضاءها:

- نذهب إلى القاهرة إن شئت لنختار ما شئت لجناحك ولدعوة من تحبين.

fb.com/Sa7er.Elkotobi

في خوف قديم ما زالت آثاره على جلدها مرسومة رفعت عينيها، وقالت:

- ماذا إن كنت لا أريد الزواج؟! ماذا إن كنت أريد العودة إلى بيت أبي واستكمال دراستي وتمارين الباليه؟! ماذا لو كنت أريد البحث عن أمي والرحيل عنكم وعن بيتكم المظلم الأسود!

مع كل حرف كانت تقوله ومع عدم رد أحد عليها كان صوتها يشند
قوة وحدة..

حين انتهت شعرت بعمها يرفع كوب الماء الموضوع أمامه، ويلقي
على وجهها ما فيه كأنه يصفعها، ويقول في هدوء:

- أفيقي أيتها الحمقاء، هل سألتك عما تريدین؟!

هو ذات الرعب الذي شعرت به ذاك اليوم، هو ذات الألم المهيمن
وهي ذات اللطمة، وإن كانت اليوم بالماء.

حين رأى الغندور عينيها المستديرة الواسعة ترتعش وشفتيها
الوردية تهتز، حين رأى سكون ولده وابتسامة قدرية بكل الحزم عاد
ينظر إلى قطرات الماء والدمع المتساقطين من شعرها ووجهها، وقال:

- أظننت أنني لم أستعلم عن اللصة التي سرقتنا وهربت، تم إعدام
أمك بعد وصولها الأراضي الروسية في نفس عام رحيلها!!



كانت تبكي في حرقه كبيرة، تعلم أنها ضعيفة محاصرة، بل هي
سجينة لا تملك قرار نفسها..

تحاول أن تظاهر بالقوة رغم علمها أن تظاهرها هذا يزيد قدرية
وعمها صلفاً وفجوراً ويزيدها هي كرهاً فيهم وغضباً، لكنها لا تعرف
كيف تنحني أمامهم، أو تبكي ربما لثقتها أنها وإن غسلت أقدامهم دمعاً
لن يرأفوا لحالها..

كل ليلة وأمام مرآتها تتحسس قرط أمها على أذنيها في ألم وتدور
في رقصات الكسيرة على قطرات دمعها.

لم يذكر عمها قرط أمها، بل لم ينظر نظرة واحدة كاملة إلى وجهها،
أو ربما هي من لم تفعل.

أيام ويُعقد قرائنها، أيام هي الفاصل بينها وبين سقوطها سجينة إلى
الآبد..

شعرت بها تفتح الباب في هدوء واستدارت في خوف تنظر إليها.

الجميع نائم فماذا تراها جاءت تحمل لها من أوامر؟!

لم تتمكن من مسح دمعاتها قبل أن تلتقي أعينهم وسمعت أمينة
كبرى خادِمات الدار تقول في صوت متهدج:

- إلى متى وأنت تبكين؟ إلى متى يا ابنتي لا تنامين؟

حاولت أن ترفع حاجبها، حاولت أن تقول كلمات جوفاء قوية لكن رنة الإشفاق في صوت المرأة، نظرة الحنان في عينيها جعلتها بكبرياتها العنيدة لا تبالي..

ألقت بوجهها بين كفيها وبكت تقول:

- لا أعلم، لا أعلم!!

تقدمت أمينة منها بجلباب نومها الأبيض النظيف، ووجهها الطيب، وضمتها إلى صدرها في حنان كبير تقول:

- منذ أتيت وقلبي يتمزق عليك..

أخرجت كل دمعاتها على صدر المعجوز، قالت كل كلمات الخوف والألم التي تحبسها في صدرها، ذكرت اسم أبيها وأمها وغريب وكيف هي بدونهم يتمزق وكانت الأخرى تربت على ظهرها في حنان وتطلب منها الصبر؛ لأنه وحده مفتاح الفرج..

استعدت بسر عنها لحظة تنظر في وجهها كأنها حقاً تتأكد من وجود قلب واحد بين جنبات هذا البيت يحنو على انكسارها ويتمها، وقالت للأطفال:

- سأعديني، أرجوك..

جلست بها على حافة فراشها، وقالت:

- تعلمين أن السيدة قدريّة لو علمت ما يدور بيننا تقتلني لكن
خوفي عليك يقتلني أكثر، كان والدك أحب إلى قلبي من أخيه، حتى
أمك -رحمها الله- في زياراتها القليلة كانت رقيقة طيبة مثلك، ماذا
تريدين؟!

تبشرت يسر أمامها، أخبرتها بقصة أمها وكيف أنها لم تمت وأن
عمها وحده هو من أعلن وفاتها، أخبرتها أنها لا تريد الزواج من فريد،
هي تريد السفر والبحث عن أمها، تريد الوصول إلى غريب..
في هدوء سألتها إن كانت تملك مالا تسافر به..

أردفت الصغيرة أنها لا تملك شيئاً سوى جواز سفر قديم..
أخبرتها أن السفر يحتاج تأشيرة وتعلم أن وصولها إلى سفارة بلد
أمها مستحيلة، لم تستطع أبداً أن تخبرها بقصة أمها، وتهمة القتل لكنها
بكت تقول:

- ربما استطاع غريب أن يفعل شيئاً، خذيني إليه ولو ساعة.

وضعت كفها على رأس الصغيرة، وقالت:

- اسمعيني جيّداً، غريب لن يفعل شيئاً، هو مثلي خادم لديم،
بالأمس سمعت زوجة عمك تمنى قتلك..

رفعت يسر عينيها إليها في ذهول، وقالت الأخرى وهي تخفض
صوتها:

- لا حل أمامك سوى الهرب، تريدین السفر؟! ولدي في إحدى البلاد الأجنبية، سافري إليه، سأطلب منه أن يساعدك، هو الحل الوحيد!!

فدرية تريد قتلها؟ من أجل خديجة أم من أجل كراهيتها لأماها..
في سكون قالت:

- أما أخبرتك أنني لا أملك سوى جواز سفر قديم متي، لا أملك قرشاً واحداً في جيبي، حتى هاتفي أخذوه بعد أن حادثت معلمتي..
نهضت أمينة عن مكانها تقول:

- يجب أن أتركك، سأحادث ولدي أن قبل مساعدتك، يلتقيك عند النشاط، يدفع لهم ثمن رحلتك.

في ذهول نظرت إليها تسألها:
- شاطي؟!

قبل أن تغادر الغرفة نظرت في عينيها، وقالت:

- وكيف إذن تسافرين؟ كما سافر هو في مراكب الصيد، هكذا يسافر أولادنا جميعاً، دعيني أذهب الآن حتى لا يفتضح أمرنا.

أغلقت خلفها الباب وبقيت وحدها ترقب وجهها في المرأة،
و جتاها ما زالتا بدمعهما مرطوبتين.

أمينة تساعدها؟! تسافر على مركب وينظرها ولدها ويدفع لها
، خاليف الرحلة كاملة؟!

هل هو حلم؟!

تعرف جيداً أن مراكب الصيد تتعرض للخطر، في المدارس كان معلموها عن ذلك يتحدثون لكن ها هو ولد السيدة بخير وسينظرها، هو طوق النجاة الوحيد!!

من شرفتها نظرت إلى السماء كأنها تشكرها وفي رجاء كبير تعتمت تقول:

- يا رب اجعله يقبل وأعني أن أرد له كل ما سيدفعه واحفظ أمينة وغريب اللذين هما أحسن عليّ من عمي وزوجته!!

كان سعيدًا حين رآها تهبط مرتدية ملابس بسيطة أنيقة وابتسم في وجهها ابتسامة عريضة سارع بإخفائها حين التقط عيني أمه تطلق عليه شرًا أسود.

وقفت يسر في هدوء تنظر إليهم، ثم قالت في سخرية مكبوتة:

- هل يجب أن أتناول الإفطار أم يمكن إعفائي منه هذا الصباح؟!

نهض فريد سريعًا عن مقعده قائلاً:

- فلتتناول شيئًا على الطريق.

قبل أن يمضيا صاح الغندور الكبير قائلاً:

- اشترى لها ما شاءت من الثياب، بعد عقد قرانك تخلعين الأسود.

نوى أحي - رحمه الله - سيكون بهذا سعيدًا..

لم تستدر إليه، هي تعلم أنه لا يهتم بأخيه - رحمه الله - وتعلم أن

هو كان هو من مات ما قبل أن تتزوج ابنته، ولم يمض على وفاته شهران

، لا رصي أن تخلع عنها ثياب الحداد لكن لا هو له ابنة ولا أبوها كان

.. أحي!!

كادت تفحك حين رأت فريد يسرع ليفتح لها باب السيارة بعد أن
كاد يدخل من بابه كأنه تذكر شيئاً أمضى الليل يعيده على نفسه ليثبت
لها أنه في فنون البروتوكول ضليع.

تشعر بسعادته بها وتشعر أنه حقاً يكاد يطير بها إلى القاهرة التي
أصرت أن تشتري منها غرفة نومها ولوازمها. حائرة هي منذ ليلة ما قبل
الأمس، حائرة لا تكف عن التفكير أبداً فيما دار بينها وبين أمينة.

لم تفلح أبداً في الحديث إليها طوال الأمس وكأنها لا تعرفها.
هل حادثت ولدها؟ هل رفض؟ ربما لا يملك مالاً يدفعه للمركب
التي تقلها إلى بلاده!!

ما هي بلاده؟ هي حتى لا تعلم!!

كيف أصبح المجهول أرحم بها من المعلوم؟!

كيف أصبح السفر إلى بلد لا تعرفه يلتقيها فيها شاب ابن خادمة
في دار عمها هو الأمل بينما جلوسها إلى ابن عمها الذي يطير بها هو
الموت واليأس بعينه..

في لحظة تخيلت ما تحلم به، سفينة في مياه مظلمة، وجوه لا تعرفها
وبلاد لا تعرف حتى اسمها، وعادت تلتقط أنفاسها وتذكر وعود أمينة
وحانها..

تذكرت كيف ضمتها إلى صدرها قبل مغادرتها غرفتها وهمست في
أذنيها أنها أبداً لن تتخلى عنها..

”يسر قلبي رب دبر لي أمري فياني لا أحسن التدبير“ قالتها الطيبة
وخرجت!!

رددتها هي في الصباح التالي، وهي تسمعهم يحددون موعد عقد
القران، رددتها حين أرخت قدرية عينيها كأنها في حانة حداد لا حالة
رواج!!

رددتها ليلة الأمس، وهي تعلم أنها ستذهب مع فريد إلى القاهرة
لشراء غرفة النوم وملابس العروس، رددتها وهي واقفة أمام مرآتها
بفص وتدور على أطراف أصابعها وترقب دمعاتها كقطرات من نار
تكتوي بها ضلوعها..

إن لم تساعدنا أمينة وترحل عنهم يصبح هذا الجالس بجوارها
روحها!!

ليست صغيرة وتعلم أن هذا معناه أن يأخذ جسدها وروحها
مسيرها.

ليست صغيرة وتعلم أيضًا أن هذا معناه أنها قد تصبح أمًا كما قالت
أمها.

ما عادت أبدًا صغيرة وتوقن أيضًا أنها يومًا تهرب منهم كما فعلت
أمها رغم كل الحب الذي جمعها بأبيها ورغم الفارق الكبير بينه وبين
فريد..

لا تريد أن تترك خلفها طفلًا يتألم كما تركتها أمها، لا تريد أن ترقص
عبدة باكية كما كانت أمها تفعل..

لا تريد أبداً أن ترى خديجة تدججها بعينها وتخبرها أن لها في زوجها حقاً..

انفضت كأن نحلة لعت أطراف عينها ليستدير فريد نحوها قائلاً:
- ما بك؟!

هل ترجوه أن يتركها؟! هل تقبل كفيه؟ وتطلب منه أن يأخذها إلى شاهيناز، أو سفارة بلد أمها لكن لا نجاة لها عند أي منهما..
شمرت به يضع كفه على أصابعها ويغلق عينيه في نشوة كبيرة ويهمس:

- سأسعدك بسر، لم أشته شيئاً في حياتي قدر اشتهاه لك..
كانت أصابعه باردة ميللة بالعرق ومسحت أصابعها من تحت كفه،
وقالت باكية:

- أنا صغيرة، ما زلت حزينة على أبي، لم أنه تعليمي بعد، لا أريد أن أتزوج، ساعدني..

كأنه لا يسمعها، أو كأنه ما سمعها أكمل يقول:

- أنت ابنة عمي، أنا بك أولى، أنجيتني أمي في سن أصغر من سنك..
عاد يضغط على أصابعها غير مال بمحاولاتها للإفلات من كفه،
حتى مقاومتها تثير شهوته أكثر.

خديجة تترك له يدها، وكان دومًا يتحاشى أن يصل بيده إلى ما هو
أكثر من لمسة سريعة، نكن مع هذه التي تقاومه يتمنى لو يوقف سيارته
على بحر الطريق ويأخذها إلى صدره وشفثيه..

لكن يتعجل الأمر، أيام ثلاث وتصبح زوجته، لكن ما زال عاجزًا عن
مادة أصابعها.

تركت له أصابعها وأشاحت بوجهها تنظر من نافذة السيارة..
فريد كأييه لا يسمع سوى نفسه، لكن إن كان هذا حاله اليوم فكيف
يكون بعد أعوام..

سيتركها لأمة تذيبها ما شاءت من الألم.. سيبحث عن خديجة،
سأنا تزوجها لتتحد عليها نساء الغنادرة..

قد يكون الموت حقًا في انتظار القوارب الهاربة لكن يبقى الموت
ألم من الوأد والقتل..

سمعت صوته يتحدث معلنا أنه سيعتمد عليها في وصف المحال
الطقات..

هو لا يعرف القاهرة، كان يريد شراء الغرفة من "دمياط" لكنه يذهب
إلى لها، عاد يخبرها أنه سيصطحبها إلى أشهر محل يقدم "الحمام
الحم الشدي"...

سأنا يرقب وجهها، وأكمل يخبرها أن لها أن تشتري كل ما اشتتهه
...م مولدها..

لن تسمع منه كلمة "لا" اليوم أبدًا!!

في محاولة يائسة ؛ لأن يجعلها تبادل الحديث قال:

- لا تأخذيني إلا لأغلى الأماكن، لا تحبين اللحم تفضلين الأسماك؟

تريدين تناول الطعام في فندق؟! أي شيء تريدنه فقط بأصابعك الرقيقة

هذه أشيري، ماذا تريدين؟!

في ابتسامة صغيرة مريرة، قالت:

- يبدو ألا شيء بقي أمامي سوى البحر..

البحر يا فريد!!

بعد أن رفع الأذان لصلاة العشاء جلس على الأرض، وأغمض عينيه في ألم يتذكره، استجمع كل ما بقي له من قوى خائرة وتوجه إلى باب الغندور هذا الصباح، لم يحادثه ولم يقف على البوابة يطلب إذنًا له بالدخول، مر من جوار عبد الجبار بعد أن ألقى عليه السلام مما يروحي أن سكان الدار يعرفون بأمر قدومه، وقف كالجرو الصغير على بابهم، حين فتحت إحدى الخادومات قال في كل استكانة فلاحي دمرو منذ الحليقة، وحتى اليوم أنه يطلب رؤية "يسر"

بعد لحظات وجد "قدريّة" بشخصها تقف أمامه، كأنه ما كان ياتقنهم أعوامًا، كأنه ليس في عمر أبيها ولا فقد وحيد كما فقدت يومًا أمها الشاب، بصلافة المال وعجرفة القوة سألته ماذا يريد؟! أخبرها أنه جاء يطمن على صحة الغندور ويطلب رؤية يسر.. قال وعيناه لا تارحان حذاءه:

- منذ وفاة ولدي وُسر أصبحت كأنها ابنتي.

عاد يستدرك قائلاً:

- المقامات محفوظة، لكن أشعر أنني على مشارف الموت، وأرجو أن.. سمحي لي بالسلام عليها ووداعها..

لماذا كانت غاضبة إلى ذاك الحد، ربما لتجاوزها البوابة الكبيرة ووقوفه بباب البيت لكن منذ عمله لديهم، وهو لا يقف بالبوابات..
ما الذي تغير؟! هي حتى لم تطلب منه الدخول إلى ردهة البيت..
في هدوء عاصف قالت:

- ذهبت وفريد إلى القاهرة لشراء غرفة نومهم، عقد قرانهم بعد غد
يا غريب، بإمكانك الحضور، سنقيم احتفالاً وذبائح..
ما تركت له كلمة يقولها!!

اعتذر واستدار ليمضي عدا أنه قال كأنه يتوسل إليها:

- هل أرجوك سيدة قدرية أن تخبريها أنني أدعو لها، وكل المصلين
في المسجد في كل صلاة، أرجوك.

كان أفعى من بين حقول البلدة هاجمتها حين ذكر الصلاة والدعاء
صاحت في وجهه قائلة:

- جننت يا غريب؟! أطاحت مصر والشيب بما بقي في عقلك،
لستُ رسول غرام بينكما أيها العجوز، إن شئت فلتكن في عقد القران
موجوداً لتأخذ نصيبك من اللحم والطعام لكن إياك أن تقف بهذا الباب
مرة أخرى في حياتك..

أغلقت في وجهه الباب كأنها تغلقه في وجه منسول بغيض..

كيف تحيا يسر معها، ماذا ستفعل بها؟

أرخصى عينيه من جديد. وهو يعود إلى مسجده ومن حوله، وضع كفيه على وجهه يمسحه لئلا يرى أحد المصلين دمعاته ونهض عن مكانه ووضع يده إلى جوار أذنيه وأخذ يكبر مقيمًا صلاة العشاء، حين اصططف خلفه رجال القرية ممن حضروا تذكروا كلمات أبيه القديمة "هل تحب الموت؟"

ابتسم وهو يعتدل كأنه يقول أحبه ولا يحبني!!
ما عاد له ما يحيا من أجله، فماذا تراه الموت ينتظر؟!

تختنق، بل هي حقًا اختنقت!!

في لحظة كادت أن تقتنع أن زواجها بفريد ليس بالسوء الذي تخيله، في لحظة وبالتحديد حين خانتها دمعاتها لحظة ذهابهم إلى بيتهم في الدقي بناء على رجائها له وحين رجته أن يصعدا إلى شقتهم كادت تصدق أنها تحب فريد..

أوقف السيارة تحت مدخل البيت وأخبرها أنه لا يمانع لكن هو فقط ليس معه مفتاح، في حنان نظر نحوها، وقال:

- هو بيتنا لا منازع لنا فيه بإمكانني أن أحضر نجازًا وأكسر بابَه لكن لا داعي لهذا، ما زال أمامنا الكثير نفعله، أعدك أن أحضرك بعد الزواج كلما شئت واشتقت إلى هذا المكان..

أخرجت له من حقيبتها الصغيرة مفتاحًا للبيت وأخبرته أن عمها أخذ المفتاح الذي كان بحوزة غريب، وهو مفتاح أبيها الذي لم يسألها أحد عنه، لم ينتظر حتى ترجوه بكلمة أخرى، أغلق السيارة وصعد بها إلى البيت..

حين فتحت ودخلوا، حين نظرت حولها ورأت مائدة طعامهم ووجه أبيها ومكان صحن البيض الذي يعده لها، حين دخلت غرفته ولمست ميداليات السباحة وكأس الجمهورية الذي كسبته بكت كأن

عصمت مات منذ لحظة، بكت في صوت متحشرج متقطع وأخذت تردد دون وعي كلمة "بابا".

كان ينظر إليها في ذهول وألم صادق، لا أحد يخطئ الصديق صغيراً كان أم كبيراً..

أخبرته أن عمه كان يحب هذه الميداليات وأنها ذبحت نفسها وفتت جسدها في مياه حمامات السباحة لتسعده، بكت وهي تخبره أنها لم تخبر عصمت كم تحبه كما ينبغي، كانت تلومه كأنها تعاقبه على رحيل أمها وما فعله بها أخوه، أخبرته كيف لطمها أبوه في هذا المكان وكيف كانت ترى أبيها يبكي في ذلك المكان، أخبرته عن أمها التي لا يعرفها، عن حنانها، عن دراعيتها، كل المشاعر التي حبستها في بيت أبيه من قسوة أمه وإرهاب أبيه لها أطلقتها في بيت أبيها أمامه كأنه ليس منهم..

وقف ينظر إليها كأنه ما رآها يوماً قبل اللحظة..

ليست هي التي يشتهيها، ليست أبداً الصائمة التي تترفع عليهم في طعامها وشرابها وحديثها.. fb.com/Sa7er.Elkotob

هي فتاة صغيرة جميلة رقيقة حزينة لا تستحق أبداً أن يعاقبها على نهور أبيها، أو جرائم أمها، هي من دمه وهو من دمها..

شعر وهو يراها تبكي وتركض به في أنحاء البيت تحكي له قصصاً، وتكشف جراحاً أنه لا يشتهيها فحسب، بل يشتهي إسعادها ومسح دموعها..

يشتهي ضمها، وإعادة نقود أبيها لها..

ليس بحاجة إلى ما هو أكثر من ثروة أبيه لكن هي بحاجة إلى الأمان
وتستحق الرثاء والحب..

من فرط ركضها هنا وهناك سقطت جدائل شعرها على كتفها..
من فرط تقطع أنفاسها بالبكاء تلونت وجتها بحمرة رائعة اختلطت
بخمرية بشرتها وجعلتها آلهة جمال في الحزن غارقة..

حين تعبت وقفت في منتصف صالة البيت وميداليات فوزها بين
أصابعها مع صورة لأمها وأبيها يحتضنها، وقفت تلهث تنظر إليه،
وقالت كأنها تزفر آخر أنفاسها:

- لا أريد أن أتزوج.. أريد أن أعود هنا، أريد أن أمارس السباحة من
جديد؛ لأنني أعلم أنه سيعود بروحه حولي، أريد أن أرقص أنباليه؛
لأنني أشعر أنني استدعيها في كل مرة أفعل..

أخبرتني أمي أن أكون صادقة مع نفسي، وأريد أن أكون صادقة
معك. أكره بيتكم، أرتعد خوفاً وأمرت هناك يا فريد..

أجهشت بعدها بالبكاء وسقط كل ما في يدها على الأرض وتقدم
نحوها يتعثر ما بين إشفاقه عليها ورغبته فيها. حين أصبح أمامها ثم
يجد ما يفعله سوى أن ضمها إلى صدره في قوة، وقال:

- أريدك وأريد إسعادك لكن لا طريق أمامنا سوى الزواج، لا أنا ولا
أنت بإمكاننا أن نعصي الغندور..

هناك لحظات تقف فيها على قمة الألم والضعف والحاجة، لحظات إن مد لك الجحيم ذراعيه بقي برؤوسا بينهما لشدة ما يحتاج العناق.. ضغطت رأسها إلى صدره وهي تنن وتتمنى لو يحتضنها أكثر.. "الغندور" كلمة السر لنشقاء والألم، فريد ضعيف مثلها..

هربت أوليجا من سيطرة عمها على حياتها، وهرب أبوها أيضًا منه وما هو فريد بكل صباء وقوته يعلن ألا أحدهما يملك عصيانه، لا مفر أمامها أبدًا من الهرب هي الأخرى..

حتى إن كان ذراعاً فريد دافتين لكن تشق أن الغندور إن أصدر أوامره لهما أصبحتا طرفي كماشة تنقض على عنقها، ولا تركها إلا جثة هامدة..

تركت نفسها لعناقه، وحين حاول في لحظة فقد فيها حتى إشفافه عليها أن يقبلها ويعبث بجسدها ابتعدت عنه في ألم، وهي تقول:

- فلنذهب، إن علم عمي بحضورنا من من غضبه ينجيك وينجيني؟! أصبح محمومًا لا يعلم كيف يسيطر على نفسه، شيء في أنفاس هذه نشابة، شيء في راتحتها كالخمر الذي أدمته والدها، كلما ارتشفت منه ستردت فيه رغبة واحتياج!

كان يردد في حنون أنه بعد "لغد" تصبح زوجته، فلتشعر به، فلتشعر حبه ورغبته، لم تكن تقاومه في صدق، وما كانت تريده لكنها شعرت بشوة في توسله لها وركضه خلف شفتيها وعناقها، حين وصل بكفه إلى صدرها شعرت بخوف عميق لم تفهمه، تعلم جيدًا ما يدور بين

رجل وامرأة لكن ما زالت في كامل وعيها، كل ما تريده يسر وعذا بأن يساندها ويقف في وجه أبيه وأمه ..

ما تريده أملاً بعودتها إلى بيتها، والحياة حيث اعتادت حتى إن كان بصحبة فريد ..

كان يحاول ضم شفيتها إليه، وكانت تحاول أن تتحدث، قالت:

- إن تزوجنا هل تأتي بي لأحيا هنا؟!

ثم يسمعها ولو سمع، وقال نعم لتزوجه وربما منحه كل شيء دون واج!!

لا أحد منهما أبداً يشعر بما يريده الآخر. كل منهما يرى حاجته أكبر وما يعنيه الآخر شيء تافه لا يستحق أبداً الإصرار عليه، بقوة أمسك برأسها بين كفيه وسقط بشفتيه على شفيتها علماً تسكت وبقوة أكبر أبعدت يديه عنها، وهي تتألم وفي ذات اللحظة التي كان فيها يقول: "ألا تصمتين" كانت هي تقول "ألا تسمع"؟!

سكت كلاهما عن الحديث كأنهما أدركا معاً أن كلاهما على طريق سوى طريق الآخر يسير ..

شعرت بخيبة أمل كبيرة، حقاً كما قالت يوماً لنفسها.. هو لا يسمع!! عاود الاقتراب منها ووضع كفه في شعرها، وقال بأنفاس ما زالت متقطعة:

- فتذهب، بعد انغد نفعل ونقول ما شئنا..

انحنيت تلتقط ميداليات ذكرياتها وصورة والديها تخبره أنها مستعود
ببعض الأشياء معها ووقف هو يرقبها، لا شيء على الأرض سيمنعه
عنها، يريد لها، ليست عبيدة كما كان يظن، في لحظات كادت تذوب.
بين ذراعيه وعلى صدره..

مفتاحها العناق!! ليست أبداً كخديجة رغم أنه يملك مفتاحها هي
الأخرى..

حين عادت بحقية المدرسة على ظهرها بعد أن وضعت فيها ما
شاءت من أشياء أمسك بكفها، وقال "ستصبحين أسعد النساء".

نكست رأسها، ومضت إلى جواره، وكل ما في رأسها سؤال كبير..
كيف بعد كل ما بكته من دمع، وقالته من كلمات ما زال لا يفهم ولا
سمع؟!

هل تراها أمينة تنقذها؟! وهل حقاً ترمي بنفسها في البحر أم أن
ذراعيه أقل من البحر هلاكاً وموتاً!!

كان اليوم سريعًا كأنها ليست جزءًا منه..

عمال يتحركون في بيت الغندور، بعضهم قام بتركيب غرفة النوم والبعض الآخر يعد الدور السفلي لاستقبال المدعوين وموائد الطعام..
قدريّة أصدرت الأوامر بنقل ملابسها إلى الجناح الجديد بينما أعلن عمها عن عدد الذبائح التي يقومون بذبحها..

حتى أمينة كانت تتنقل معهم وبينهم دون حتى نظرة واحدة تطمئننها بها، أو كلمة تخبرها بها عن قرار وندها كأن شيئًا ما كان بينهما وكأن كل الوعود والأحداث كانت أضغاث أحلام..

كأنها ترقب فيلم رعب لم تشر تذكرته، ولم تذهب إلى قاعته،
كالمذهولة هي لا تعلم هل تصرخ أم تغمض عينيها وتصمت..

كلما التقت عيناها بعيني فريد تراقصت صور الأمس حين كان يحاول تقيّلها وصور أخرى نسجت من قصص المدارس والأفلام
عن كل ما يمكن أن يدور بينهما في الغد، تراه عازيًا وتراها تتألم بين ذراعيه، ترى نفسها تصرخ وتراه يضحك وترى نفسها تبكي وتراه ينهض عن جسدها ويخرج بعيدًا عنها حيث تنتظره خديجة..

دخلت على أمينة المطبخ أكثر من مرة، وحاولت أن تتحدث إليها لكن المرأة همست ترجوها أن يتعد عنها، في إحدى المرات أخبرتها أنها ستصبح في وجه المأذون والمدعوين برفضها وأمسكت المجوز بكفها تهمس:

- لا أحد منهم يهتم بصراخك، المأذون يأخذ مبلغاً مضاعفاً، والمدعوون تصم آذانهم وتعمى أعينهم قطع اللحم التي يطعمها إياهم، ابتعدي وسأتيك في الوقت المناسب!!

ما هو الوقت المناسب؟!

الظلام بدأ يحل على الدار، وفي الغد يتم عقد القران ما هو الوقت المناسب؟!

وما هو القرار المناسب؟! كيف نعرف الصواب ونتبع الخطأ؟!

لماذا ندرك ماذا نريد ونستسلم لفعل ما لا نريد؟!

كيف تكون صادقة مع نفسها إن كانت النفس تريد الشيء وتخشاه
، نكره نقيضه وتأتيه؟!

حين فقدت قواها، وبدأت تهدأ في فراشها، وتسقط أوصال جسدها
.. إرهاب يوم السفر ذاك ويوم الذهول هذا؟ شعرت بيد أمينة تهزها في
.. وهي تهمس:

لا تنامي، هيا بنا، انهضي يسر..

منحت الصغيرة عينيها وانتفضت في فراشها، تقول:

.. ظننتك لن تأتي..

كانت الأخرى تجذبها من ذراعها، قائلة:

- تتحرك المركب بعد ساعة من الشخولية، لا وقت لدينا، ضعي نفسك في ثيابك، وافق ولدي على استقبالك، ودفع كامل المبلغ لربان المركب الكبير..

لم نكن تفهم!!

كانت تتحرك مع المرأة التي أخرجت لها أول ما وقعت عليه يداها من ثياب ارتدتها وهي ما زالت لا تفهم.. وعادت المرأة تقول:

- الوقت ضيق وهي الفرصة الوحيدة والأخيرة، إن تم عقد قرانك انتهى أمرك، إن استيقظ أحدهم انتهى أمرنا معًا، إن رحل مركب الصيد الصغير لن تلحقني بالمركب الكبير ويُفتضح أمرك.. يقتلك عمك ويقتلني والله إن حدث!!

جمل تسمعها وتحاول أن تستوعب معناها..

كلما حاولت التقاط شيء من ملابسها صاحت الأخرى ألا شيء مسموح لها به سوى قطعتين من الملابس لا أكثر..

حين جذبتها من كفها إلى خارج الغرفة ما استطاعت أن تأخذ شيئاً سوى حقيبة المدرسة التي أحضرتها من الدقي والتي تحوي ميداليات السباحة وصورتها مع والديها وجواز سفرها القديم الملتصق عليه صورتها وهي طفلة..

كورت بنظرين، جاكيت من الصوف ورمت به إلى ذات الحقيقة ووضعتها على قلبه... ربت المرأة في ذهول، ساق تخطو بها معها وساق أخرى تجذبها في قسوة لإحساسها أنها تقاومها وتحاول أن تعود بها وتبقى في دار عمها وإن كان بين ذراعي فريد..

حين خرجا من البوابة لم تصدق أن أحداً من الحراس كان هناك، حين استدارت تسألها وجدتها تدفعها بيدها إلى داخل سيارة كانت تنتظر وهي تصيح هامة:

- المركب تنتظر..

دخلت يسر ودخلت أمينة معها دون حديث، انطلق السائق ونظرت إليهما معاً، كيف استطاعت إقناع السائق بمساعدتها وماذا يحدث لها لو فضح السائق أمرها..

حين حاولت أن تحدث استدارت أمينة نحوها تقول:

- لا وقت لدينا، تجدين ولدي في انتظارك على الشاطئ بعد وصول المركب الكبير..

أمسكت بكفها، وهي تقول:

- أرجوك خذيني إلى غريب دقائق، دقائق صغيرة فقط!! حادثته من هاتف فريد لكن أجاب صوت آخر، لم يعد الهاتف معه، خذيني إليه أرجوك..

في ذهول نظرت إليها أمينة، وقالت:

- اسمعيني يا ابتي، ذهبت إلى الغريب هذا الصباح وأخبرني أنه لا يريد تحدي الغندور ولا يريد رؤيتك..

لا أحد يفعل!!

عادت تحدث وتخبرها أن المركب الصغير سيسير بها في البحر ثم تنتقل إلى المركب الكبير الذي يصل بها إلى الشاطئ بعد أيام ثلاث.. مدت يدها داخل جلبابها وأخرجتها قائلة:

- أيضًا أعددت لك حقيبة صغيرة بها كل ما ادخرته من نقود وبها أيضًا بعض الأطعمة.

كل شيء يركض خلف شيء وهي كالمذهولة لا تفهم أي شيء ولا تعلم هل تصرخ طالبة العودة أم تشي على جبهة المرأة تقبلها..

حين وصلتا إلى الشخولة ووقفتا بجوار الشاطئ، وجدا شابًا في انتظارهما وما إن رأى يسر حتى فتح فمه في ذهول قائلاً:

- لم تخبريني أنها فتاة؟!

في قسوة لم تفهمها أجابته:

- أي فارق؟! نقودك كاملة فمن أي شيء تخاف؟!

أمسك الشاب بيدها ومضى يحمل الحقيبة الصغيرة التي أخرجها السائق قائلاً:

- عليها أخاف..

تركزت ذراعاه وركعتت نحو أمينة تضمها إلى صدرها وهي ترنجب
قائدة:

- ستكونين بخير، لا أعلم كيف أشكرك. فقط كوني بخير..

رجفة صغيرة سرت في جسد العجوز. وهي تراها تخطو نحو
مركب صيد صغيرة كان عليها ما يقارب العشرة رجال وقفوا ينظرون
إلى الشابة في دهشة كبيرة..

استدارت نحو أمينة كأنها تستجديها أن تعود بها، أو تقول لها شيئاً
ينفخ في روحها العزيمة والقوة لكن ما إن وضعت ساقها بداخل
المركب حتى غاب عنها وجهها في الظلام!!

حين عادت وحدها وعبرت بوابة البيت الكبير بعد أن ألقت السلام
على "عبد الجبار" كانت تشعر بشيء غريب يتجول في صدرها..
رحلت يسر فلم وجهها باق أمام عينيها، غابت ولكن لما يرتفع
صوتها في أذنيها، وهي تعتذر منها وترجوها أن تكون بخير..
هل حقًا تسرعت في ما فعلته؟!

نكست رأسها وصعدت سلالم البيت في هدوء تنظر حولها
وتوجهت إلى ردهة غرفة نوم الغندور وزوجته..

في هدوء أشعلت ضوء الردهة، وأغلقتة مرنين متاليين وأسرعت
تنزوي في ركن بعيد، بعد لحظات قليلة ظهرت قدريه تهمس:

- تأخرت أيتها البلهاء، هل رحلت؟!

في هدوء حركت رأسها بالإيجاب، وهمست:

- رحلت دون حتى أن تسألني عن اسم ولدي، أو اسم الشاطيء الذي
تنزل فيه..

في تهكم قالت قدريه:

- إن منحناها وقتًا وفرصة لتسأل وتحدث ما ذهبت، ألا يكفي كل ما
 «معناه لنجنبها مرحلة التخزين!! اذهبي إلى غرفتك، غداً أمنحك باقي
 المبلغ، دعينا ننام ونتنفس هواءً نظيفاً خالياً من أنفاس تلك الأفعى..
 كأن دمة لاحت في عينيها، كأن ندماً رقص فوق رموشها قالت:
 - من أخذها من يدي كان خائفاً عليها، هل تراها تنجو!! إن لم
 يفرسها البحر افترسها الهاريون..

في قسوة وغيظ رفعت قدريه حاجبيها، وقالت:

- وهل فعلنا ودفعنا كل هذا للتجو؟!

سقطت دمة أمينة، وهي تقول:

- لا أعلم، ألم في صدري، وخز يقتلني!!

بكفها لكزت قدريه كفها، وقالت:

- لا تبالي، النقود تشفيه..

أرخت عينيها، ومضت من جوارها تهمس:

- النقود لا تُسكت القلوب إن تألمت!!

ومضت قدريه هي الأخرى تقول في تهكم:

لكنها تخرس الضمائر إن أفاقت واستيقظت!!



كانوا أكثر من عشرة، حوالي عشرين شابًا تتراوح أعمارهم من السابعة عشرة ومتصف الثلاثينيات، رغم الظلام الدامس كانت وجوههم واضحة كأن الخوف والألم الذي في أعينهم أشعل فيها مصابيح تنير ظلمة البحر..

أشار لها قائد المركب إلى المكان الذي تجلس فيه جواره، كان واضحًا أنه أعجب بها منذ اللحظة التي أمسك بيدها فيها عند دخولها القارب، جلست إلى جواره في صمت بعد أن وضعت الحقيبة الصغيرة التي منحتها إياها آمنة وأخذت تتجول بعينها على ضوء مصابيح أعينهم، القارب صغير لا تجد فيه موضعًا لقدم والصمت يجعل هدير الأمواج من حولهم كأنه أجراس كنائس، نكست رأسها حين أدركت أنها ليست هي من تنظر، بل وحدها قبلة كل الناظرين..

حين صاح أحدهم يقول:

- متى نصل إلى المركب الآخر؟

أجاب القائد الذي يجلس إلى جوارها قائلاً:

- ساعات قليلة ونصل، لا تفتق سيئتظرون فهناك زوارق أخرى

كثيرة من البحيرة ودمياط والدقهلية في الطريق..

كانه بعد كلماته هذه تاكر شيئاً استدار إليها يقول:

- هل ينتظرك أحد على قارب المغادرة؟!

أجابته في هدوء:

- بل ينتظرنني شخص على الشاطئ..

هز رأسه كأنه بذلك سعيد، لا يمكن لفتاة كهذه أن تسافر وحدها، هي فقط تظن أنهم سيقفون بالشاطئ، ولا تعلم أنهم من مركب إلى مركب يدخلون..

حاول كثيراً أن يتحدث معها، لكنها أغمضت عينيها وتظاهرت بالنوم وغابت في رحلة طويلة داخل جفونها.

لا تستطيع أبداً أن تتخلص من خوفها، ولا تستطيع أبداً أن تكتم الألم الذي في عروقها كلما تذكرت كلمات أمينة عن غريب وكيف رفض مساعدتها..

أصبحت هي الغريبة وما تفعله هو الصواب..

هذا ما يجب أن تقنع نفسها به!!

بقيت تتجول بعينيها المغلقتين على كل أيام حياتها، وعلى كل الوجوه حتى وقفت على وجه فريده، ما تراه يفعل حين يعلم باختفاتها.. حقاً لا تريد أن تؤلمه، ما يسعدها قليلاً هو وجه أبيه وأمه عندما يعلمان أنها رغم السجن هربت ورغم الحصار انتصرت..

أفاقت على كف ذات الشاب تهز كتفيها يصيح:

- استيقظي، نحن بجوار المركب..

فتحت عينها لتشعق شهقة كبيرة..

كان الزورق يقف وإلى جواره عشرات الزوارق الصغيرة حول مركب أخرى متهاكة رغم حجمها الأكبر..

سلام من الأبحال كانت ملقاة على جوانب المركب وكل من على الزوارق يتسلقها للوصول إلى سطحها، جميع من كانوا معها رأتهم يصطفون، ويحاول كل منهم الوصول إلى المركب الأكبر..

حمل عنها حقبتها الصغيرة، وأمسك بيدها وهو يقول:

- ستجدين من يتظرك على ظهرها، لا تقلقي..

حاولت أن تخبره أن لا أحد يتظرها هنا لكن ما عساه يفعل إن أخبرته، حين حان عليها الدور ورفعها بذراعه لتسلق السلالم قذف بحقيبتها الصغيرة إلى أحد الرجال المتدلين وصاح:

- ساعدها لتصل إلى رجلها عندك، أرجوك..

رقصت البالية، وشربت من مياه جميع حمامات السباحة في مصر أعوامًا طويلة إلا أنها لم تتخيل يومًا أن تتسلق حبالاً مربوطة، وتتسلل إلى أنفها رائحة صداً حديد المركب ممزوجاً بملح البحر المتوسط..

ألقت بكفها بين كفي الرجل الممدودة نحوها ليجذبها بقوة لتصبح داخل المركب وأزاحها عن طريقه ليلتقط من خلفها قاتلاً:

- احملي حقيبتك وابحثي عن من تريددين، ما زان هناك زوارق أخرى قادمة..

حين انتصت، نفضت مع الحقيبة الصغيرة ونظرت حولها شعرت
بخوف كبير، عشرات، بل ربما مئات الوجوه والأجساد تركض هنا
وهناك وبعضها التقطت شابة صغيرة تحمل على كتفها طفل لا يتجاوز
عمره العام الواحد، لكنها ليست وحدها، بل مع رجل من الواضح أنه
زوجها، انتفضت وهي تسمع صوتًا يصيح قائلاً:

- العدد يتجاوز المائة شخص، فليتوجه عدد منكم إلى "ثلاجة
السّمك" وإلا لن نتحرك، هيا..

لم تكن أبدًا تفهم لكنها رأت عددًا كبيرًا يتجه إلى قاع المركب بينما
بقيت بعينها تبحث عن تلك الشابة وزوجها وطفلها كأنها تتحسس
في وجودهم شيئًا من الأمان، رأتهم على البعد، رأت المرأة تنظر إليها
كأنها هي الأخرى تريدها إلى جوارها، وتقدمت نحوهم في تردد، لم
تقل كلمة ولم تبادرها الأخرى بسؤال لكن شيئًا في ملامحها معًا
هدأ، عادت ترقب ما يحدث حولها ورجال المركب تصيح لتعلن بعد
لحظات أن جميع الزوارق وصلت وأنهت تفريغ شحنتها من الرجال
وأن على كل منهم أن يجد لنفسه مكانًا..

هؤلاء هم رفقة الرحلة!!

غرباء جميعهم لكن هناك شيئًا مشتركًا بينهم!!

شيء له روح ولون وملامح واضحة تشعر بها ترتسم على وجهها
هي أيضًا..

هو قاسم مشترك أعلى اسمه الخوف والأمل!!!



كان عبد الرحمن يقف مبتسماً وإلى جواره أمه في جلباب الصلاة بينما يصبح هو ضاحكاً يخبرهما أنه قادم وفي اللحظة التي كان يخطو فيها نحوهما سمع هرجاً كبيراً لم يفهمه أبداً، حاول أن يتجاهله وأسرع بمد يده نحو ولده يطلب منه أن يأخذ بها إلا أن جليلة كانت تقول:

- لا تتعجل يا غريب!!

هما قاب قوسين أو أدنى لكن كفه لا تصل إليهما وذاك الصباح ما زال يتزايد وهو يصبح يخبرها أن عبد الرحمن ليس ولدها وحدها، يريد أن يصلي معه وابتسمت وتستبقه مكانه بكفها رغم أنه يردد "لا أريد الصلاة وحدي!!"

حين استدار ولده إليه قال في صفاء "ليست الصلاة وحدها كل شيء يا أبي!!"

في هذه اللحظة فتح الرجل عينيه وأخذ بدور بهما حول نفسه محاولاً أن يفهم صوت الطرقات العنيفة وانتفض من فراشه حين أدرك أنه كان كعادته يحلم وعلى غير العادة هناك من يصر على إيقاظه وحرمانه حتى من رحمة الحلم..

نهض عن فراشه نحو باب البيت ليفتحه ليجد الغندور الكبير
 وولده يقفان نائباً وقيل أن يفتح فمه بكلمة دفع الغندور الباب بعصاه
 صائحاً:

- يسر!!

لم ينتظر منه كلمة ولم يلقياً عليه تحية، بل دخلا وتركاه على الباب
 يقف وهو ما زال يتعثر بين حلاوة الحلم ومرارة الواقع..
 البيت أصغر من ألا يريا كل ما فيه وهما في مكانهما، واستدار
 الغندور يزار قائلاً:

- أين هي؟!

أدرك أن يسر تركتهم، أدرك أنها هربت وأدرك أنه ما كان صادقاً مع
 نفسه كما ينبغي..

أقنع نفسه قسراً أنها سعيدة معهم، أو ستعتادهم وحمل نفسه وعاد
 دون الوصول إليها..

تقدم فريد نحوه يقول في ألم جريح وغيظ كبير:

- ليس لها سؤالك، ولم تكف يوماً عن طلب الحضور إليك في أي
 بيت من بيوت "دمرو" خبائيا؟!

كان مذهولاً مفتوح العينين وصاح يقول:

- أنا من يسألكم أين هي؟! ألم أطلب منك رؤيتها وأخبرتني أنها سعيدة وتعد لزواجها!! أما حضرت حتى البيت أتسول النظر في وجهها وطردتني أمك يا سيد فريد..

المسكينة لا تعرف بيتي، اليتيمة هربت من قسوتكم..

أدرك الغندور من بحة صوت الغريب أنه يتمزق أُنْمًا، والألم لا معنى له سوى أنه لا يعرف عنها شيئًا..
استدار بجسده الطويل، قائلاً:

- هيا بنا، يسر ذهبت إلى مصر، ولم تأت هنا.

أخبرهم غريب أنه سيذهب معهم، هو يعرف كل الأماكن التي تحبها وتقصدها..

لحظات قليلة من التفكير أصدر بعدها الغندور موافقته ليسرع بتبديل ملابسه والخروج إليهم..

سيجوب بيوت صديقاتها اللاتي يعرفهن واحدة تلو الأخرى، عبد الرحمن على حق!!

"الصلاة ليست كل شيء"، ما زال عنده شيء كبير يفعله، تأدية الأمانة، حين يجدها لن يدعهم يرغمونها على شيء..

أخطأ خطأ كبيرًا حين ظن أنها تعنادهم وتعناد حبه.

أنت في الحب والحياة إما أنك تريد، أو لا تريد!!

في اليم لا فارق أبداً بين نهار وليل..

الضباغ واحد والخوف واحد إن كانت الشمس تتوسط السماء، أو
دان الظلام يكسوها..

في نفس المكان تكورت، كل الوجوه حولها لا فارق بينها، الجميع
نصبح والبحر حولهم جميعاً يموج، حين شعرت بحاجتها إلى دخول
الحمام بعد ساعات من طلوع الشمس لم تعرف من نسأل سوى أنها
ذهبت على استحياء إلى المرأة التي كانت تحتضن طفلها الصغير
، انحنى عليها تسألها إن كانت تعرف مكانه..

شعرت في تلك الثواني التي تحركت فيها بصعوبة بين أكوام
النحم المتراسة أحدها إلى جوار الآخر أن كل من على السفينة كان
، معها بعينه، كأن المرأة كانت تمنى لو تحدثها، ابتسمت في وجهها
، أحبرتها أنها لا تعرف..

حين اعتذرت، واعتذلت بجسدها لتعود إلى مكانها جذبتها من يدها
، في رفق تطلب منها الجلوس إلى جوارها، لم يكن هناك مكان على
السفينة فهي صغيرة وتحمل أكثر من مائتي وجه، تتصاعد من أجسادهم
، الحمة عرق نفاذة، جلست إلى جوار المرأة التي كان زوجها نائماً بينما
، تحتضن هي طفلها الغافي على صدرها، وقالت بعد لحظات:

- أنا حنان من "بلطيم" وهذا زوجي أحمد وولندي يوسف.

ابتسمت وهي تربت على رأس الصغير في حنان، وقالت:

- أنا يسر الغندور من دمرو!

بعد حديث قصير أفاق الزوج من اغفاءة إعيائه، وحين أخبرته عن يسر ورغبتها معاً في الذهاب إلى الحمام نهض عن مكانه في ضيق يسأل لهما عن طلبهما، وعاد بعد لحظات ليهبطوا جميعاً إلى قاع السفينة حيث يوجد ثلاثة حمامات صغيرة ضيقة ما استنعاعوا حتى الاقتراب من أبوابها لبشاعة الرائحة الصادرة عنها، حين أمسك بأحد العاملين على السفينة وأخبره أن المرأتين تريدان حماماً نظيفاً صاح الآخر يقول:

- لا فرق هنا بين رجل وامرأة، البحر أمامكم إن شتمتم قضاء حاجتكم فيه، ماذا تأنف أنت وهي؟! جديعكم همج وهذه الرائحة والقذارة من صنعكم..

بعد نظرة سريعة تبادلها هو وزوجته أخبرهم أنه سيدخل إلى أحد الحمامات ويلقي فيها بعض الماء ولتغلق أنفيهما وتدخل، حين خرجت يسر بعد خروج حنان كانت عيناها غارقتين في الدمع..

لم تكن تعلم يوماً أن هناك حماماً على الأرض بهذه القذارة وهذه الرائحة وأنها مضطرة لاستخدامه مع كل هؤلاء البشر ولأيام لا تعلم عددها، أو نهايتها..

كان الرجل يحمل ولده على ذراعيه وأمسكت زوجته بكف الباكية
أخذوا جميعاً يشقون طريقهم إلى سطح المركب من جديد..

الساعات طويلة جدًا حين تتعذب ولا عذاب تخيلته كعذاب
ساعات على تلك السفينة..

كانت العيون تلتهمها هي وحتى رفيقتها وكانت الأصوات تتعالى
، تصبح تطالب بوجبة طعام، استدارت حنان تسألها إن كانت جائعة،
هي هدوء أخبرتها أنها جائعة، ولكن ربما ليس من حقها أن تطالب
، حبة حين سألتها عن السبب قالت في هدوء:

- أنا لم أدفع ثمن الرحلة، ولا أظنهم يطعمونني، معي بعض الأطعمة
في هذه الحقيبة، فلنأكل شيء منها..

قبل أن تفتح الحقيبة الصغيرة التي منحتها إياها أمينة كان عراكاً
شديداً قد قام بين مجموعة من الشبان على سطح المركب تبادلوا فيها
الكلمات والسباب..

بكت حنان عندما أصيب طفلها بفزع شديد وصاح زوجها مع كثير
من عمال السفينة محاولين تهدئة الأمور واحتواء الموقف..

انكمشت من جديد كأنها تشاهد فيلمًا من أفلام السبعينات التي
تظهر على شاشة التلفزيون حيث يقتل الجميع، ويصبح الجميع حتى
لا يسمع أحد أحداً..

بعد دقائق علا صوت في ميكروفون يدوي يأمر الجميع بالسكون..

كان قائد المركب يتحدث، أخبرهم أن السفينة ليست بحالة جيدة، وأنهم معرضون للموت في أي لحظة وأن وصولهم إلى شاطئ إيطاليا ما زال محفوفاً بالخطر، ومعرضاً للفشل وأنهم إن لم يلتزموا بالهدوء وحدهم يدفعون الثمن، قال الرجل أنه هو وطاقمه يغادرون السفينة على زوارق مطاطية ويتركونهم يموتون في عرض البحر إن شاءوا الاستمرار فيما هم فيه ماضون..

في لحظة واحدة كأن حرباً ما اشتعلت بينهم، كأن سباً قذراً ما خرج من أفواههم..

في لحظة اتحدوا جميعاً يصبحون:

- أين الطعام؟ أين مياه الشرب؟! لم ندفع كل هذه النقود لنبقى جوعى وعطشى!!

عاد الرجل يخبرهم أنها وجبة واحدة تصرف لكل منهم عند الغروب، وأن براميل المياه موجودة بالقرب من ثلاجة الأسماك التي في الدور الأسفل، ولا شيء آخر يضيفه سوى استعداداته التام لمغادرة المركب، وتركها فما جمعه ملاكها من نقود تكفيهم بالإضافة إلى أن التأمين يدفع كامل ثمنها..

كأنه يخاطب جمعاً من العبيد، أو السجناء صاح يقول:

- الأدب أو الموت، اختاروا!!

حين يكون الموت أحد خيارين فلا أحد أبداً يختاره.. وإن كان وأد الشرف، أو المبادئ هما الطرف الآخر!!

هدأت الأصوات بالتدريج إلا صوت الطفل..

كان فزعه وجوعه أكبر من أن يفهم ويمثل لأوامر والديه وبعد لحظات أخرجت الأم له صدرها ومنحته إياه غير عابثة بكل من حولها.. انحنى يسر على الحقيبة الصغيرة فتحتها تبحث عن شيء تأكله وشيء آخر تمنحه لرفيقتها وحين مدت أصابعها، وأخرجت ما في الحقيبة ما وجدت سوى قطع من الخبز الجاف وقطع من الجبن وحبات الطماطم والخيار، على استحياء مسحت بعضاً من أصابع الخيار ومنحتها للزوجين وحين عادت بيدها إلى الحقيبة تبحث عن شيء آخر وجدت مظروفاً ارتطم بأصابعها، أخرجه وفتحته، وهي نظرت إليها النعود التي أخبرتها عنها أمينة لكنه كان خاوياً إلا من ورقة صغيرة نسيت عليها:

هذه المرة حين يقام العزاء لن يكون صورياً..

ستموتين في البحر كما مات أخي وأقف أنا وولدي وخديجة زوجته سبل فيك العزاء وليت أمك هنا تأخذه معنا!!!

كانت تقرأ وتنظر إلى وجه حنان، ثم تقرأ وتنظر إلى الحقيبة، وتعود النظر إلى البحر والشمس والسماء ووجوه المتعبين الهاربين المكتظين حولها..

مرات عديدة تكرر ما فعلت ومرات عديدة وحنان تسألها وزوجها: «هل وهي ما زالت لا تفهم..»

حين هدأت وأدركت فهمت كيف كانت المياة دون حراس، وكيف
كان السائق في الانتظار وكيف الحفد يتتصر وكيف هو الكر، دانها
أفوى..

كانت حنان تسألها وتهز ذراعها كأنها تحاول إفاقتها، ورحدها يسر
تعلم أنها حقاً أفاقت..

حين سمعت للمرة الأولى السؤال الذي رددته حين عشرات
المرات ابتسمت في مرارة تقول:

- يبدو أن لي الحق أنا أيضاً في المطالبة بـرجبة عند الغروب!!



لم يترك بيتاً قصده مرة هي. أو أمها، أو حتى أبوها دون أن يقف به.
من موظفي أمن مدرسة مصر للغات ذهبوا إليهم وسألوهم إن جاءتهم
، أو وقفت بباب المدرسة .

انتصف الليل ووحده الغندور أصدر له أمراً بالعودة إلى دمرو وحين
أسوا على مداخلها أخبره ألا يفتح فمه بكلمة عن اختفائها وغيابها، كان
دمور قد أمر رجاله بإعلام الجميع عن تأجيل عقد القران، لكن ما أن
، وادخل دمرو حتى استوقفهم أكثر من شخص يسأل إن وجدوا نسراً..
"من أذاع الخبر؟!"..

والها فريد في كبرياء ذبيح، لا يقتله غيابها قدر ما يذبحه أن يعرف
أن بلدته أن ابنة عمه هربت يوم عقد قرانه عليها..
من وقف غريب بالسيارة داخل البيت الكبير مد بهجت يده يلتقط
، المفتاح دون حتى أن يشكره، وقال في قسوة:

ما زلت لا أريد أن تنس بحرف! fb.com/Sa7er.Elkotob1

الغريب رأسه وهو يمضي قائلاً:

فت عني نلأحرف والكلمات، سأكمل بحثي عن أمانة
، اصعت الأمانة!! اصعت ابنتي. وابنة أخيك، وسأجدها وحين
، أتركها لك أبناً..

مضى دون أن يتنظر كلمة ومضيا إلى بيتهما ليجدا قدريه تجلس في بهو البيت تنتظرهما..

لم تسأل إن وجداها فلقد كانت تطلبهما على الهاتف كل ساعة..
صاح الغندور، وهو يلقي بجسده المنهك على أحد المقاعد يقول:
- ألم أطلب منك ألا تخبري أحدا؟!

وقالت بعد أن طلبت من أمينة إعداد طعام العشاء..
- لم أغادر الدار وقلائل من لديهم هواتف محمولة في البلد..
من أذاع الخبر وكيف أذاعوه، هناك يد خفية خلف القصة..
نظر فريد إلى أممي ذهولاً، قال:

- اختفت، كأنها يوماً لم تكن، كيف؟!

نهضت قدريه عن مكانها تلتقط صحون الطعام من يد خادمتها
لتصفها أمام الغندور، وقالت:

- بالنقود، سرقت عشرة آلاف جنيه..

حين نظر إليها الغندور في ذهول قالت وهي تكاد تبكي:

- نعم الآلاف التي طلبتها منك لأمّنها لها هدية بعد عقد القران ظناً
مني أن هذا قد يجعلها تهدياً وتحبني لكن ما الجديد؟!

سرقت أمها من قبل وهربت، هو ذات الدم النجس الملوث!!

هو اليوم الثالث على ظهر المركب وما زالت تتكور إلى جوار حنان ولدها في سكون، كأن تلك الرسالة قتلت فيها ما بقي منها، الروائح الكريهة القادمة من تكدم الشباب في ثلاجة أسماك المركب ومن مراحضها أصبحت تصل حتى السطح حيث يجلسون، وجبة الطعام التي توزع مع غروب الشمس ما عادت تكفيهم ولا عادوا يرفضونها . عم لونها وزائحتها، أخبروهم أن ما زال أمامهم يومان آخران قبل الوصول إلى شاطئ إيطاليا..

لن يكون أحد في انتظارها على الشاطئ، أمينة كانت وهماً كبيراً.. كانت فخاً سقطت هي فيه بسهولة..

شيء واحد فقط يجعلها كلما ابتلعت دموعها تبسم، شيء واحد فقط كلما أغلقت أنفها وتوجهت إلى حمام المركب، أو أغضت عينها وابتلعت لقيمات صحن الغروب يجعلها تبسم..

إن كانت أمينة عميلة لقدرية فكل أحاديثها عن غريب كذب، غريب يتخل عنها، هو فقط بلا هاتف لكن يوماً يلتقيان..

كل ما تريد أن تشعر به أن هناك على هذا الكوكب من لم يتخل ..

شخص واحد فقط يضمير لها الخير والحب، وإن كان في عجز غريب وبعده عنها!!

تحسست الحقيبة الصغيرة التي منحتها إياها العجوز التي كانت تدعو الله لويرزقها مالا تعود به إليها وتشكرها على ما فعلته معها..
لم يبق شيء من أصابع الخبز وحبات الطماطم وقطع الجبن التي اقتسمتها مع حنان وزوجها، الجوع يقرص أمعاءها، والخديعة ما زالت تمزق أحشاءها..

مالت حنان عليه تسألها إن كانت جائعة مثلها، ومدت يدها إلى الحقيبة تفتحها وتخبرها في أسف أن شيئاً لم يبق فيها..

في تردد أخرجت حنان من حقيبة صغيرة لديهم بعض اللحم المقدد. الخبز انت منه لزوجها أولاً ثم مدت يدها نحو يسر بقطعتين منه مع قطعة من الخبز!!

حاولت أن ترفض لكنها شعرت ألا حرج في أن تسد جوعها ببعض طعامهم كما منحهم كل ما كان معها، ما أن وضعت قطعة اللحم الصغيرة المقددة في فمها حتى سمعت أحمد يقول في ضجر:

- لن نستطيع أن نطعمك مرة أخرى، ما معنا بالكاد يكفي..

تحجرت عيناها وتصلب لسانها داخل فمها، تمنّت لو كانت باستطاعتها أن تعيد له ما تمضغه..

استدارت بوجهها نحو حنان لتجدها نكست رأسها في خجل كبير ومدت يدها بقطعة الخبز وقطعة اللحم الثانية نحوه ليقول في حفاء:

- تناولهم، هم نظير ما منحتنا في اليومين الماضيين، نحن في البحر، لا مجال أبداً للكرم والتبذير..

في هدوء وضعت ما في يدها أمامهم ثم أخرجت رسالة قدرية من الحقيبة الفارغة ونهضت وحقية مدرستها ما زالت على ظهرها وابتعدت عنهم في سكون..

ما أن ولتهم ظهرها قليلاً حتى أخرجت تلك اللقيمات الصغيرة التي كانت في فمها في ألم كبير لتقذفها بعيداً في قلب البحر، سارت بين جموع الجالسين وهي تكاد تتعثر..

أإلى هذا الحد لا يحبها أحد؟!

أإلى هذا الحد حقاً؟!

رغم ما علمته واكتشفته تمت كثيراً الو أن أمينة وضعت طعاماً حقيقياً فقط لمنحه لحنان وزوجها، كانت تُخرج لهم حبات الخيار، الطماطم والجبن وتقسم عليهم أن يأكلوها في حب وامتنان..

ربما فعلت ؛ لأنها كانت تحتاج وجودها إلى جوارهم..

كانت تشتري إحاسها بأنها ليست وحدها لكن ما عساهم هم اللحم والخبز منها يشترون!!

في الطرف الخلفي من المركب وجدت مكاناً خاوياً، خطت نحو سمر المركب ووقفت تنظر إلى البحر..

”أنا أحبك يـر“!!

شخص واحد فقط يضر لها الخير والحب، وإن كان في عهد غريب وبعده عنها!!

تحسنت الحقيبة الصغيرة التي منحتها إياها المعجوز التي تدعو الله لو يرزقها مالا تعود به إليها وتشكرها على ما فعلته معها.. ثم يبق شيء من أصابع الخيار وحبات الطماطم وقطع الجبن التي اقتسمتها مع حنان وزوجها، الجوع يقرص أمعاءها، والخديعة ما زالت تمزق أحشاءها..

مالَت حنان عليها تسألها إن كانت جائعة مثلها، ومدت يدها إلى الحقيبة تفتحها وتخبرها في أسف أن شيئاً لم يبق فيها..

في تردد أخرجت حنان من حبة صغيرة لديهم بعض اللحم المقدد.. ثم منتهت منه لزوجها أولاً ثم مدت يدها نحو يسر بقطعتين منه مع قطعة من الخبز!!

حاولت أن ترفض لكنها شعرت ألا حرج في أن تسد جوعها ببعض من طعامهم كما منحهم كل ما كان معها، ما أن وضعت قطعة اللحم الصغيرة المقددة في فمها حتى سمعت أحمد يقول في ضجرة: - لن نستطيع أن نطعمك مرة أخرى، ما معنا بالكاد يكفيننا..

تججرت عيناها وتصلب لسانها داخل فمها، تمنّت لو كان باستطاعتها أن تعيد له ما تمضغه..

استدارت بوجهها نحو حنان لتجدها نكست رأسها في خجل كبير ومدت يدها بقطعة الخبز وقطعة اللحم الثانية نحوه ليقول في حفاء:

- تناولهم، هم نظير ما متحتنا في اليومين الماضيين، نحن في البحر، لا مجال أبدًا للكرم والتبذير..

في هدوء وضعت ما في يدها أمامهم ثم أخرجت رسالة قدرية من الحقيبة الفارغة ونهضت وحقية مدرستها ما زالت على ظهرها وابتعدت عنهم في سكون..

ما أن ولتهم ظهرها قليلاً حتى أخرجت تلك اللقيمات الصغيرة التي كانت في فمها في ألم كبير لتقذفها بعيداً في قلب البحر، سارت بين جموع الجالسين وهي تكاد تتعثر..

أإلى هذا الحد لا يحبها أحد؟!

أإلى هذا الحد حقاً؟!

رغم ما علمته واكتشفته تمت كثيراً لو أن أمينة وضعت طعاماً حقيقياً فقط لتمنحه لحنان وزوجها، كانت تُخرج لهم حبات الخيار والطماطم والجبن وتقسم عليهم أن يأكلوها في حب وامتان..

ربما فعلت؛ لأنها كانت تحتاج وجودها إلى جوارهم..

كانت تشتري إحساسها بأنها ليست وحدها لكن ما عساهم هم باللحم والخبز منها يشترون!!

في الطرف الخلفي من المركب وجدت مكاناً خاوياً، خطت نحو سور المركب ووقفت تنظر إلى البحر..

”أنا أحبك يسر“!!

صوت أمها يردد هذه الكلمات يطن في أذنيها كطبول الحروب

أتراها أوليجاً هربت منها وكانت كلمات حبها الأخيرة كذب!!

شعرت بدموعها تهطل على وجهها الذي يواجه البحر في قسوة
تستطع أبداً أن تهزمها، هي وحيدة لا تملك سوى بعض الميداليات
وصورة وشال صغير في حقيبة مدرسة على ظهرها، حتى النقود الم
أخبرتها عنها أمينة ما وجدتها..

هي بلا أم أو أب، لا أحد على الشاطئ ينتظرها..

هي بلا شاطئ، أو مرسى!!

كانت تشعر أن يداً تلامس ظهرها، أو تحسس خصرها لكن ظن
أنها جموع المسافرين معها عدا أنها بعد لحظات سمعت صوتاً يهمس
- هذه الدموع دواؤها عندي..

واعتدل صوت آخر يقول:

- عندنا ونيس عندك وحدك!!

استدارت في جنون لتجد ثلاثة من شباب المسافرين يقفون خلفها،
ورغم كل من حولهم إلا أنهم كانوا ينظرون إليها في نهم وجوع..
نهم فيه ضياع وجوع فيه يأس ولا مبالاة..

حاولت أن تمضي من بينهم إلا أن أحدهم شبك أصابعه في أصابع
الآخر في لحظة لتصبح يسر بداخل دائرة أحكموها حولها، شعرت

مر كبير ومن خلف دموعها نظرت إلى كل من يقف ويجلس على
أرض كأنها تستغيث إلا أن الجميع كان يرقب ما يدور في سكون..
هم إلى شيء كبير يخرجهم من خوفهم وجوعهم يحتاجون، هم
مبون وأحياناً ينسينا التعب جميع مبادئنا وقيمنا!!

حاولت أن تنحني وتخرج من تحت أذرعهم إلا أنهم أحكموا
ولها الحصار، كانوا يدورون حولها، ويرددون أغنية ماجنة في بلدة
برة، كانت تصيح في ذعر، وكان الجميع يراقب كأنه يستزيد المشهد
ولاً ويرجوه بقاء..

رغماً عنها أخذت تصيح وتردد اسم حنان وزوجها، ومع كل مرة
انت تناديهم كان جنون الرجال الثلاثة يعلنو حتى أن بعضاً من الجالسين
أوا يصفقون صفقات متتالية كأنهم يشاهدون حلبة صراع الثيران، لم
جد ممرًا أبدًا من أن تقترب منهم، وتحاول فك تشابك أيديهم بكفيها،
حين فشلت صاحت أكثر ورفعت يدها لتصفع أحدهم على وجهه..
سكت التصفيق، واتسعت أعين المشاهدين، ترقب الخطوة التالية،
أخذت تصيح في هستيريا "ابتعدوا عني"!!

أمسك الشاب الذي صفعته بذراعها، وفي اللحظة التي كاد يهوي
كفه على وجهها أمسكت بيده ذراع أحد عمال المركب يقول:
- كفى!! ابتعد عنها وإن لم تعمل أنفك في البحر..

لم يكن وحده، بل كان معه اثنان آخران من طاقم المركب، وكان كل منهما يحمل عصا غليظة في يده وقبل أن تصدر كلمة رأوا جميعاً شاب يتقدم نحو يسر ويقول:

- لا تعفر يدك بدمهم، أنا أفعل!! هي أختي ووحدتي أحميها!! أنا ممن في ثلاثة الأسماك ينامون لهذا تركتها هنا على السطح..

أمسك بذراعها بقوة وسار بها بعيداً عنهم، لم تحاول حتى أن تقاوم كأن كل قواها من الخوف غابت وسمعت يقول:

- عمال المركب لن يكونوا حولك دائماً، أخطأت حين صفعته، ما كانوا ليفعلوا شيئاً لكن بعد صفعتك هذه لن يتركوك.

كانت مستسلمة لذراعه، وهو يسير بها إلى الطرف الآخر من المركب حيث كانت تجلس وفي أحد الأركان أجلسها على الأرض وجلس إلى جوارها يردد:

- اسمعي، لست فارساً ولا بطلاً، أنا مثلك ومثلهم هارب، أعذك ألا يمسك أحد منهم بسوء.

كانت مفتوحة العينين رغم أنهار الدمع الهاربة منهما، و أمسك الرجل بوجهها بين كفيه وضغط على وجتيها بأصابعه وعاد يقول:

- أفيقي، نحن في البحر، لسنا في نزهة، قد نكون طعاماً للأسماك وقد يجمعوننا كالنفايات، لكن إلا الإكراه، لا وضاعة، أو حقارة كإكراه نفس على شرب كأس تعافه واستغلال ضعفها..

من أنتم وجتيها قالت ببقايا كبرياتها القديم:

- لست ضعيفة!!

وابتسم متهمكماً:

- امسحي دمعك إذن واستعدي لما سيفعلونه.. اشحذي قواك،

أفيقي!!

نظرت إليه في ذهول، يكبرها بعشرة أعوام تقريباً، لا تكاد أبداً ترى ملامحه لكن يكفيها ألا رائحة كريهة تنبعث منه، استدارت بعينها تنظر حولها والتقطت عيناها حنان تنظر إليها..

حاولت أن تبسم علّها تناديهما لكن أرخت الأخرى عينيها في خجل، وعادت تنظر إلى وجهه وهي لا تعرف كيف لا تبكي ولم تجد ما تقول سوى أن سألته عن اسمه..

هدأت قسماته قليلاً، وقال:

- عزيز الفوال، وأنتِ؟

كان يجبر قدميه خلفه، وهو في قرية «الشخلوبة»..

ثلاث ليال لم يُقم فيها الصلاة في المسجد، ثلاث ليال يستيقظ في الصباح ولا يعود من القاهرة إلا مساء..

هذه الليلة أدرك أنها ليست هناك لكنه لم يعد إلى بيته في «دمرو»..

توجه إلى «الشخلوبة»، وفي تناقل شديد خبر بوابة منزل صالح الشواف، لم يسأله أحد هذه المرة، عرفوه منذ تلك الليلة حين رأوا احتفاء سيد البيت به، حين طرق الباب وحين فتحوه وحين أسرع صالح بالظهور أمامه قائلاً:

- غريب، قصدت بيتك مرات كثيرة، ادخل، عندي ما يريحك، حسناً فعلت بحضورك..

كان غريب متعباً يدرك أنه إن أثنى ركبتيه، وجلس قد لا يستطيع النهوض مرة أخرى فقال في وهن:

- أريد العودة إلى بيتي، لم أجدها يا صالح، أريدك فقط أن تمنحني شريحة الهاتف كيف نسيتها هل حادثني؟!

أمسك الرجل بذراعه، وهو يصيح يطلب تجهيز الطعام، وسار به نحو أحد المقاعد قائلاً:

.. بل تجلس يا غريب وتأكل من طعامنا، أمتحك الشريحة لكن يسر
.. بحادثك، عرفت أنا أين هي ..

.. فان ساقيه ما كانتا تترنحان، كأن جفنيه ما كانا يرقصان، أمسك
.. راع صالح، وقال:

- خذني إليها ورحمة أبيك وأبي ..

في هدوء أجابه قائلاً:

- هي على أحد مراكب الهجرة، أخبرني أحد عمال الزورق الصغير
الذي أقلهم إلى المركب الكبير .. هي الآن في منتصف الطريق، لا سبيل
الموصول إليها أبداً، أيام ويلقونهم بالقرب من الشاطئ، ثم يقومون
بإبلاغ حرس الحدود الإيطالي عنهم ..

صاح غريب يقول:

- ألا يعيدونهم؟!

نكس صالح رأسه قائلاً:

- فلنأمل هذا، يضعونهم تحت الحراسة المشددة في البداية، ثم
بخففون عنهم الحراسة، منهم من يدرسون طلبه باللجوء السياسي، أو
الديني ومنهم من يعيدونه ومنهم من يهرب ومنهم يا غريب من ..

حين طالت لحظات صمته عاد غريب يسأله في لهفة ليكمل قائلاً:

- منهم من يموت قبل أن تصل إليه قوات الشرطة!!

«هل أحببتها إني هذا الحمد أم إني هذا الحمد كرهتني؟ وكيف تأتي عابرة لشيك من نشأت بين عينيك وتحتهما، هل تشرح لي؟»
خديجة حقًا غاضبة!!

أخبرتها عمتها أنه وفي اليوم الرابع لغياب يسر ما زال فريد لا يتناول شيئًا يذكر، أو يخرج إلى العمل مع أبيه، طلبت منها أن تحضر إليه وتحاول معه.

حضرت وتركتها معًا وحاولت كثيرًا لكن هي حتى لا تعرف إن كانت حزينة عليه أم تريده أن يتألم أكثر!!

ما تعلمه أنها غاضبة، بل لو كان الأمر بيدها وأطلقت لمشاعرها العنان لصفعت على وجهه ألف صفقة لكنها ما زالت تخشى إن فعلت أن يتركها، تموت إن تركها لتقف كما يقف هو الآن جريحًا مرفوضًا حزينًا..

أعادت عليه السؤال مرة أخرى لكن دون خنوع هذه المرة، أعادته بشيء من الغضب ورفع عينيه ينظر إليها قائلاً:

«أولاً هي ابنة عمي وليست عابرة، ثانياً لست حزينًا، أنا فقط أشتم رائحة مكيدة يا خديجة.

سكت قليلاً كأنه يخشى أن يتهمها اتهاماً مباشراً ثم عاد يكمل قائلاً:
- حين ذهبنا إلى القاهرة كانت رقيقة معي، في لحظة شعرت أنها
بدأت تبادلني الحب.

في حدة قاطعته بصوت جريح تقول:

- تبادلك الحب؟!

عض على شفتيه كأنه ما كان حريصاً بما يكفي، وقال:

- هل أكره ابنة عمي؟! أصدقيني القول؟! هل طلبت منها الرحيل؟!

أستعت عيناها وهي تنظر إليه، وقالت:

- وهل أطلب منها شيئاً؟ أنا؟! وهل إن طلبت تفعله؟! رأيت كيف

كانت تكرهني، أموت وأبقى في قبري أذكر نظرتها يوم دخلت علينا هنا
تدعونا إلى الطعام.

صاح في جنون:

- أريد أن أفهم، ما كان لها أبداً أن تفعل ما فعلت وحدها، ما كانت

تجرؤ حتى من الاقتراب من بوابة البيت فأين وكيف تلاشت؟!

اقتربت منه خديجة تحاول أن تكتم ألمها وحقدتها عليه وعليها
تقول:

- لن أحضر هنا مرة أخرى، ما زلت فقط أريد أن أعلم هل تموت

هكذا شوقاً إليها أم غضباً منها؟!

يريد أن يؤلمها فهو يشق أنها إن لم تدبر الأمر، وتطلب منها الرحيل
فهي على الأقل تكاد تطير من سعادتها كأمة، هو لا يملك أن يؤلم أمة
لكنه لا يريد أن يتآلم وحده.

رفع عينيه، وقال:

- كلاهما معًا!!

قبل أن تغادر بيت الغنادرة نظرت إليه قائلة في ألم:

- أنت تحفر قبرك بين ضلوعي يا جب العمر!!

سكت قليلاً كأنه يخشى أن يتهمها اتهامًا مباشرًا ثم عاد يكمل قائلاً:
- حين ذهبنا إلى القاهرة كانت رقيقة معي، في لحظة شعرت أنها
بدأت تبادلني الحب.

في حدة قاطعته بصوت جريح تقول:

- تبادلك الحب؟!

عض على شفتيه كأنه ما كان حريصًا بما يكفي، وقال:

- هل أكره ابنة عمي؟! أصدقيني القول؟! هل طلبت منها الرحيل؟!

أصمت عيناها وهي تنظر إليه، وقالت:

- وهل أطلب منها شيئًا؟ أنا؟! وهل إن طلبت تفعله؟! رأيت كيف

كانت تكرهني، أموت وأبقى في قبوري أذكر نظرتها يوم دخلت علينا هنا
تدعوننا إلى الطعام.

صاح في جنون:

- أريد أن أفهم، ما كان لها أبدًا أن تفعل ما فعلت وحدها، ما كانت

تجرؤ حتى من الاقتراب من بوابة البيت فأين وكيف تلاشت؟!

اقتربت منه خديجة تحاول أن تكتم ألمها وحقدًا عليه وعليها
تقول:

- لن أحضر هنا مرة أخرى، ما زلت فقط أريد أن أعلم هل تموت

هكذا شوقًا إليها أم غضبًا منها؟!

يريد أن يؤلمها فهو يثق أنها إن لم تدبر الأمر، وتطلب منها الرحيل فهي على الأقل تكاد تطير من سعادتها كأمة، هو لا يملك أن يؤلم أمة لكنه لا يريد أن يتألم وحده.

رفع عينيه، وقال:

- كلاهما معًا!!

قبل أن تغادر بيت الغنادرة نظرت إليه قائلة في ألم:

- أنت تحفر قبرك بين ضلوعي يا حب العمر!!



ضحك ضحكة كبيرة صاحبة ثم قال:

- هل تعرفين مسافرين الـ VIP الذين تقلهم سيارة خاصة إلى باب الطائرة بعد صعود كل الركاب وجلسهم على مقاعدها، هذه الأمانة فعلت معك ذلك، أنا وكل من حولك بقينا في حظائر التخزين أيامًا قبل صعودنا إلى الزوارق ووصولنا هنا، دفعت كثيرًا للتخلص منك، كيف خدعتك؟! أتمنى لو أراها، حقًا تعجبني النساء الذكية؟! 

في هدوء قالت:

- لم تخاطب عقلي لتختبر ذكائي، هي خاطبت قلبي واحتياجي ولهذا خدعتني!!

نظر عزيز إليها طويلاً ثم قال:

- كم عمرك لتقولي كلامًا كهذا؟! 

أرخت عينيها، وقالت: fb.com/Su7er.Elkotob/

- عمري أم وأب ماتا، عمري حصار، عمري سرادق عزاء، وقفت فيه أتلقى العزاء وأنا طفلة تعلم أن أمها على قيد الحياة، ورغم هذا تردد من الخوف "رحمها الله"!!

لانت قسماته، ومد كفه يربت على كتفيها في إشفاق قائلاً:

- لا أحد يجهل الغندور الكبير في محافظة كفر الشيخ بأكملها، أنا من "العنانية" وأسمع عنه وعن ثرائه لكن يبدو أن الفقراء وحدهم هم البلهاء.. كانت قد قصت عليه قصتها دون تفاصيل قصة أمها، ومع كل جملة كانت تحكيها كانت تشعر براحة أكبر. حاولت كثيراً أن تسأله عن تفاصيل قصته لكن ما قال لها سوى أنه الفقير..

قال "الفقير" هي الكلمة الواحدة التي تضم بين أحرفها ألف قصة وألف مرادف.

كلمة أكبر مرادفاتنا هو اليأس، يأس عزيز من كل شيء في وطنه فرمى نفسه في البحر والمجهول عليهما يكونان به أرحم..

كل الرؤوس حولهم كانت متدلية على أجساد أصحابها، منهم من نام جالساً ومنهم من وضع حذاءه في عنق جاره ومنهم من نام على كتفي رفيقه..

بالكاد أفصح لها مكانا ليلقيا بجسديهما، وناما هما أيضاً من الأعياء.. أخبروهم أن المركب تصل في الفجر القادم وغفت إلى جواره، ثم عادت تفتح عينيها تنظر إلى وجهه النائم..

أسمر ككل من رأته في دمرو، وجهه مستدير وسيم، في عنقه تبرز تفاحة آدم التي تحبها كثيراً وفي صبيانية، وبعد أن ظنته غاب في النوم مدت أصابعها إلى عنقه تتحسس تفاحته..

تمنت أعواماً أن تعرف كيف هو ملمسها، وفي اللحظة التي لمست أصابعها عنقه أطبق بكفه على يدها في قسوة وفتح عينيه كأنه يتأهب لهجوم كبير..

صرخت صرخة صغيرة تقول "إنه أنا!"

نراحت أصابع يده من حول كفها ورآها ترخي عينيها في خجل
وعلم أنها كانت تعبت بتفاحته..

وضع أصابعها على عنقه وأخذ يحرك تفاحته تحت يدها، وهي
تبتسم في خجل وفرح نسبت ملامحه منذ زمن!!

بعد لحظات مد لها ذراعه على أرض المركب، وقال:

هنا ولتنام!!

لا تعلم كم طال نومها لكنها استيقظت على قدم تركلها في ساقها،
وحين فتحت عينيها وجدت ذات الشباب الثلاثة أمامها وقبل أن تفتح
فمها، أو تمد يدها لتوقف من توسدت ذراعه أشار أحدهم لها بأصبعه
لنستدير ونرى الآخر يضع سكيناً صغيرة بجوار عنق عزيز..

كان يأمرها بالنهوض في صمت وإلا أقرب وأغمد السكين في
عنقه. وكان الثالث يمد يده إليها لتستد عليها وتنهض..

كان الذعر يكسو ملامحها، وكانت تتمنى لو تتوسل إليه أن يترك
عزيز وما أن أصبحت واقفة إلى جواره حتى همس في أذنيها:

- إن عدت هنا وحدك قتله، هيا بنا، سنعود بعد دقائق وعندها يبقى
من تطلقين عليه أخاك حياً!!

انتفض سعد في فرح، وهو يراه يخطو نحر المسجد بعد غياب أيام
وصاح:

- اشتقنا جميعًا إلى صوتك، كاد الجيران يقتلونني حين كنت أصلي
بهم حتى عودتك..

ريث على كتفه في حنان ورفع آذان الفجر بصوته الرخيم وبدأت
جموع المصلين تتوافد على المسجد وعلى وجوههم مسعادة حقيقية
بعودة غريب..

بعد أن أنهى صلاة الفجر وقف يدعو دعاءه الذي اعتادوه ويحبون
سماعه وفي نهاية الدعاء نهّدج صوت الغريب، وهو يتضرع بخشوع
مخلوط بالدمع قائلاً:

- اللهم رد علينا من غابوا سالمين، اللهم استودعناك أحياءنا الذين
فارقونا، احفظهم وارحمهم وأحنو عليهم فلا لنا ولا لهم سواك..

كان كل من أنهى صلاته باقي في صفه يردد بعده في هدوء "آمين"
ففي بيوت القرى غائبون كثر، وكان غريب يدعو كأنه لا يسمعهم، ولا
يرى سوى وجهها الحائر الباكي يوم التقطت من كفه قرط أمها حين
منحها إياه.

لا يرى سوى وجهها، وهي تبكي في ألم يوم أخبرها بوفاة أبيها ولا
يسمع سوى صوتها، وهي تغني في ذلك الحفل الذي مادعت إليه سواه.
كان يدعو الله في خشوع، رحل وحيد، وماتت زوجته، وبقي هو
يتألم على أمانة ما صانها وعلى فتاة أحبها كأنها أمه وأبيه..

لا تُسمعه عنها خبراً يدمي قلبه، ما عاد في القلب عروق تدمى..

لا تكسر لها يا إلهي، ما عاد في الروح روح تُجبر..

أعدها، أعنها، أجبرها..

ودون وعي منه قال بصوت يدمي القلوب:

- رب أهملني في العمر عمراً حتى أؤدي الأمانة إلى أهلها..

رب لا تردني إليك إلا وأنا عليها مطمئن، اللهم أعدها، أعدها عوداً
أحمد.. كن معها، احفظها أنت خير حافظ وأنت أرحم الراحمين..

كان غائباً يدعو ويتضرع وكان كل من خلفه يسمعون بكاءه ودعاءه
في لحظة أفاق على صوت أحدهم يقول:

- اللهم استجب لدعاء الرجل الكبير، اللهم أعد يسر الغندوز
إلى قلبه بخير وسلام، انصرها على الطمع والظلم وانصرنا على الذل
والفقر أجمعين!!

وبخشوع أكبر ردد الجميع في صوت واحد "آمين"!!

كان بكاءه مريراً حقاً حتى أن مجموعة من المصلين التفت حوله

واسيه..

قدريّة نجحت في إفشاء خبر هرب يسر حتى أنه ما عاد سرّاً على أحد، وحين هدأ الغريب قليلاً قال في ألم:

- ما ييكيني أنني كنت زمناً أدعوه، وأرجوه الموت، ولم يستجب لي، أخشى وأنا أرجوه اليوم الحياة ألا يستجيب أيضاً..

وضع أحد الشباب كفه على كتف غريب، وقال:

- يا من جمعنا على صوتك والصلاة خلفك، لِمَ لا تقل إن الله لم يستجب لك يوم طلبت الموت لأنه يعلم أن يوماً تطلب فيه العمرات!!

لا نعلم إن كان اختيارهم لمراحيض المركب كان لإذلالها أم فقط ؛
لأنها المكان الخاوي الوحيد في الفجر ذاك، وسقوط الجميع في النوم
لكنها كادت تنقياً في وجوههم حين دخل أحدهم بها إلى أحد حمامات
المركب، وعاد بظهرها إلى الحائط في قوة..

كانت ما زالت من عودتها في النوم تتخبط وفي خوفها وذعرها
الكبير هائمة عدا إنها لم تكن تبكي، أو حتى تشعر بالرغبة في البكاء..
كل ما كان يسيطر على رأسها هو كيف تصل بكفها إلى وجهه
وتصفعه من جديد..

كان ممسكاً بكلتا يديها بين يد واحدة وأمسك بوجهها بقبضته
الأخرى يهددها، وقالت:

- لا أخشاك، بل أخشى عليك، أنت في البحر، أين نهرب؟! دقائق
ويكشف الأمر، دقائق وبأتيك أخي ومعه رجال المركب، هذه المرة
سيلقونك في البحر..

كان ظهرها على الحائط، وكان ظهره هو إلى رفيقه الذي سمعه يشن
أجده طريق الأرض حين استدار إليه..

كان عزيز يقف، وفي يده عصا من الواضح أنه ضرب بها رأسه..

حين أفلتت من كفه ركضت من خلفه إلى خارج الحمام لتجد عددًا من ركاب مركبهم جاءوا مع عزيز..

في لحظة كانوا يقتادون الشباب الثلاثة في قسوة، وهم يصيحون جميعًا ليستيقظ البعض ويبقى المجهدون في سباتهم صاح أحدهم من على المركب يقول:

- ألا تخافون الله؟! نحن نستجديه النجاة وأنتم تطلبون غضبه علينا، أين عمال المركب؟! فليقيدوهم ويلقوهم إلى البحر..
أكمل بعدها في خوف هستيري:

- اللهم لا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا، اللهم لا تصب علينا غضبك..

أرعى الشباب الثلاثة رؤوسهم إلى الأرض، كأنهم أقاموا من اندفاعهم وجنونهم حتى إن أحدهم ما فتح شفتيه بكلمة..
تقدم عزيز نحوها ليضع ذراعه حول كتفها يسألها إن كانت بخير، ثم قال:

- لهذا طلبت منك أن تنامي على ذراعي لأشعر بتقلبك، أو غيابك..
هزت رأسها في هدوء وأسندته إلى صدره في اطمئنان، كانوا على منتصف سطح المركب يقفون واستدار عزيز ينظر إلى وجوههم في ألم، يعرفهم ويعرف أسماءهم وعائلاتهم، كل سكان قرى كفر الشيخ يعرف أحدهم الآخر تقريبًا..

ليسوا أشرازا، بل ربما هم أقل منه خطايا وذنوبًا، ماذا صنع بهم
الخوف؟!

كان الرجل ما زال يهلل بالدعاء عليهم كأنه يريد أن يوقف جميع
النائمین عليهم يقتلونهم معًا..

وصاح عزيز يقول:

- ساعات ونواجه المصير الكبير، ساعات قد ننجو بعدها وقد
نموت، قد نعود من حيث أتينا إلى الموت والظلم الذي هربنا منه، ألا
نستطيع أن نكون بشر ولو لساعات؟!

لماذا لا نفعل شيئًا مختلفًا، فليحكي كل منا قصته وليُخرج كل منا
شيئًا من صدره علَّ صدورنا تتطهر..

اتفق الجميع على إبقاء أكف الشباب الثلاث مقيدة وليتحدث من
شاء الحديث..

الحديث كالحب وكالنوم عدوى كبيرة وسريعة!!

ما أن بدأ أحدهم في الحديث حتى التقط الآخر أطراف الحكاية
وسرد قصته هو الآخر..

حتى النائمون فتحوا أعينهم واستمعوا وأكملوا الحكايا دون حتى
أن يشرح لهم أحد ما حدث..

الجميع على صدره تجثم قصته وأحلامه..

بدأت الأيدي ترتفع وأيد أخرى تمشح دمعاً سقط بعد الرواية وأيد أخرى تكتم شهقة وهي تسمع قصة تماثل قصتها..

الفقر.. اليأس.. الحلم والأمل!!

لا قصة قيلت دون أن يكون هؤلاء أبطالها..

كل القصص، كل الوجوه التي رصيت ذل وجودها على مركب كهذا في مواجهة مجهول كالقادم خلفها مريع الفقر واليأس والحلم والأمل..

وحدها يسر الغندورس وحده عزيز الفوال قصصهم تختلف ووحدها القصص المختلفة لا تُحكى ولا تُقال!!

كان قرب فجر اليوم التالي حين حانت ساعة الصفر..

لم ينم أحد أبدًا بعد أن أعلنوا اقترابهم من الحدود الإيطالية، البعض كان يظن أنهم قرب الشاطئ يهبطون والبعض ممن لا تجارب له كان يسأل في خوف وآخرون كانوا يكتفون بترديد الدعاء لكن كل العيون كانت مفتوحة، وكل القلوب لو أنصت سكان أوروبا بأكملها لحظة لسمعوا تسارع دقاتها وارتجاف نبضاتها!!

في لحظة ظهر أكثر من عشرة أشخاص صاح أحدهم في الميكروفون اليدوي الصغير يخبرهم أنها لحظة الهبوط، أخبرهم أن هناك عددًا قليلًا من سترات النجاة توزع على الأطفال والنساء، وعلى الباقي القفز إلى المياه والعموم باتجاه الحدود، كان من الواضح جدًا أن الأمر قد حسم وأن على الجميع الانصياع للأوامر، سترات نجاة قليلة تم منحها للقلائل ومنهم زوجة أحمد وولدها، منحوا سترة ليسر التقطتها في صمت وذهول وهي ترقب البعض يعلن أنه ليس سباحًا ماهرًا، ورغم هذا لم يمنحوهم شيئًا..

كان القمر غائبًا والبحر كالسما أسودان يلوحان بالخطر والموت!! تدافع الكثيرون خارج المركب كأن كل من قذف بنفسه وصل إلى درجة من الإجهاد والخوف أفقدته حتى الشعور بباردد..

كان الرجال العشرة يصيحون ويأمرون الجميع بمغادرة المركب، وكلما رمى أحدهم بنفسه إلى الماء تبعه عشرات، وفجأة علا صوت مجنون لأحد ركاب المركب يعلن في هلع أنه أبداً لن يقذف بنفسه إلى الماء..

كان كمن أصابه مس من جان، أو جنون يرتجف ويصيح "لا أستطيع.. لا أستطيع".

دون كلمات.. دون حتى محاولة لتهديته كأنهم اعتادوا مثل هذه الأمور تقدم نحوه اثنان من رجال المركب وقذفوه رغماً عنه خارج المركب في قلب الماء..

حين سقط عاود محاولة الصعود إلى المركب، وهو يصيح باكيةً مردداً نفس الكلمات في جنون، ويكل برود الأرض وغياب ضمير سكانها رفع أحدهم عصاته الغليظة وهوى بها على رأس الرجل الذي كاد يدخل إلى المركب من جديد ليسقط في الماء مضرجاً في دمايته وصاح آخر يقول:

- لا وقت للجبن والجبناء، من لا يغادر يموت ويلقى خارجها ميتاً..

في لحظة، بل أقل من لحظة رأت يسر بعينيها أحدهم يخرج بندقية آلية يصوبها نحوهم في ثبات ليتدافع الجميع للقفز في مياه البحر المتوسط وأمسك عزيز بكفها قائلاً:

- هل حقاً تجيدين السباحة؟!

أرخت عينيها وهي تنتفض مما رآته قائلة:

- كنت أنوي أن أسألك السؤال ذاته..

في أقل من لحظات كان مئات الفارين في قلب الماء، وسمعت قائدهم يقول:

- أرسل إشارة استغاثة إلى خفر السواحل الإيطالي لينتشلوهم من الماء!!

في اللحظة التي كانت تقفز فيها إلى الماء سمعت آخر يصيح قائلاً:

- جهاز اللاسلكي لا يعمل، هل نطلب منهم العودة حتى نصلحه؟!

وقفت يسر على حافة المركب تنظر إليه هي وعزيز بعد سماع تلك الكلمات في خوف كبير ليرفع يده مشيراً لها بمغادرة المركب..

ثم صاح بجيب زميله دون أن يتنبه أن "ميكروفونه" ما زال ينقل صوته لكل من قفزوا حول قاربه قائلاً:

- انتهت مهمتنا، حاول إصلاحه وليمت منهم من يمت وسيحيا من كتب له الحياة!!

من يظنون أن الظلام هو ذاك الذي نراه حين نستلقي في فراشنا
تحت أغطيتنا ونغلق جفوننا استعدادًا للنوم هم مدجج دون شك! الظلام
الحقيقي هو أن تُلقى في سواد الليل بين أمواج البحر محاصرًا بالخوف
والمجهول..

الظلام الحقيقي هو أن ترى كبرياءك يُسفك دمه، وأنت تبكي
وتطلب "الرحمة" ممن يمتنن الوحشية!!

حين سمعوا ما قاله رجل المركب، حين بدأت السفينة تبتعد بضوئها
الخافت الذي كان شعلة الأمل الوحيدة صاح بعضهم يأمر الآخرين
بالحاق بالسفينة..

صاح في صوت مبجوح صارخًا:

- لن يستطيعوا قتلنا إن نحن جميعًا صعدنا، اجتمعوا والحقوا بها.
لا أحد يرى الآخر، لا أحد يسمع سوى صوت الأمواج، وصوت
الأذرع التي تضرب فيها بكل الخوف الذي لا يدرك أحد مداه سوى من
عاش الظلام كما عاشوه..

في ألم همست بما لم تجد كلمة سواها قالت:

- عزيز..

أرخت عينيها وهي تتفض مما رآته قائلة:

- كنت أنوي أن أسألك السؤال ذاته..

في أقل من لحظات كان مئات الفارين في قلب الماء، وسمعت قائدهم يقول:

- أرسل إشارة استغاثة إلى خفر السواحل الإيطالي ليتشلوهم من الماء!!

في اللحظة التي كانت تقفز فيها إلى الماء سمعت آخر يصيح قائلاً:

- جهاز اللاسلكي لا يعمل، هل نطلب منهم العودة حتى نصلحه؟!

وقفت يسر على حافة المركب تنظر إليه هي وعزيز بعد سماع تلك الكلمات في خوف كبير ليرفع يده مشيراً لها بمغادرة المركب..

ثم صاح بجيب زميله دون أن يتنبه أن "ميكروفونه" ما زال ينقل صوته لكل من قفzوا حول قاربه قائلاً:

- انتهت مهمتنا، حاول إصلاحه وليمت منهم من يمت وسيحيا من

كتبت له الحياة!!

من يظنون أن الظلام هو ذلك الذي نراه حين نستلقي في فراشنا
تحت أغطيتنا ونغلق جفوننا استعدادًا للنوم هم سذج دون شك! الظلام
الحقيقي هو أن تُلقى في سواد الليل بين أمواج البحر محاصرًا بالخوف
والمجهول..

الظلام الحقيقي هو أن ترى كبرياءك يُسفك دمه، وأنت تبكي
وتطلب "الرحمة" ممن يمتنن الوحشية!!

حين سمعوا ما قاله رجل المركب، حين بدأت السفينة تتعد بضوئها
الخافت الذي كان شعلة الأمل الوحيدة صاح بعضهم يأمر الآخرين
باللحاق بالسفينة..

صاح في صوت مبجوح صارخًا:

- لن يستطيعوا قتلنا إن نحن جميعًا سعدنا، اجتمعوا والحقوا بها.

لا أحد يرى الآخر، لا أحد يسمع سوى صوت الأمواج، وصوت
الأذرع التي تضرب فيها بكل الخوف الذي لا يدرك أحد مداه سوى من
عاش الظلام كما عاشوه..

في ألم همست بما لم تجد كلمة سواها قالت:

- عزيز..

شعرت بذراعه تمسك بكفها، وقال:

- إياك، لن نلحق به، وإن لحقنا بها لن يسمحوا لنا، وفري طاقتك وجهدك ولا تتركى كفى أبداً، سنتظر ضوء الفجر.

غابت المركب في الظلام بعد لحظات قليلة كأنها ما كانت إلى جوارهم، لا أحد منهم يرى الآخر إلا من كان ملاصقاً له لكن كان هناك صوت صيحات وهمهمات بالألم ممزوجة، هناك من يسأل إن كان أحداً يرى الشاطئ، وهناك من يسأل أين رفيقه؟ وهناك من بدأ في البكاء والمويل كأن الندم بدأ عليهم غارة كبرى!!

ساعات قليلة طويلة ابتعد فيها من قرر تحدي الظلام واقترب فيها من قرر الانتظار..

أنهكهم الصراخ، وذبحهم الرجاء في ظهور مركب تلتقطهم، أو حتى شرطة الموانئ الإيطالية للقبض عليهم، أصبح الخلاص عندهم إما في ظهور خيوط الفجر، أو الموت إن تهالكت قواهم وعجزوا عن الثبات..

المياه الباردة، الجوع والعطش والأقصى من كل هذا كان الخوف الذي ينهش الأرواح دون رحمة..

من عساه في الظلام يقاوم كل هذا؟!

رغم ضعف صوته إلا أنها كانت تسمعه في وضوح، كان ابن حنان يكي وكان أحمد يصيح في هستيريا يظن من أمه أن تُسكته..

وحدها حنان لا أحد يسمع لها صوتاً..

في البداية كانت يسر مغناظة من صراخ الرجل وحدته لكنها مع الدقائق علمت أنه أكثرهم ضعفاً وخوفاً.

أخذت تناديهما وتطلب منها أن تتحدث لتصل إليها مع صوتها وأمسك عزيز بكفها وصاح أحمد على البعد يهذي بكلمات لا معنى لها يرجوها أن تصل إلى زوجته وطفله..

كانت تسبح نحو الصوت وعزيز إلى جوارها وبدا صوت الطفل على ضعفه أقوى من أصواتهم جميعاً، حين اقتربوا من صوت أحمد، حين أصبحت إلى جواره وتحسست ذراعها لتأخذ عنها طفلها ولتصبح بعد صمتها قائلة:

- لا أعرف ماذا أصابه، أنا حتى لا أعرف كيف أرضعه، سيموت، أريد فقط أن أموت قبله وأخشى أن أفعل ويحيا هو دوني..

أحاطته يسر بذراعيها وهي تبكي..

حنان على حق!!

لو قتلتها أوليجاً قبل رحيلها ما عاشت الموت بعدها كل هذه الأعوام.. حاولت كثيراً أن تساعد على إرضاعه، وهم في الماء لكن كان الصغير يصرخ رافضاً حتى صدر أمه، انفجرت الأم تبكي في جنون كأنها بدأت تفقد سيطرتها على التفكير والعقل، وانفجر زوجها يصبح من جديد يؤنبها على حضورها معه ورفضها البقاء بصغيرها في قريتهم، حتى يسر كانت تبكي في صمت وتهتر أطرافها مع بكائها وهي تشعر أنها تبتعد عنهم..

في لحظة سمعوا صباح أحدهم على البعد يعلن غرق صديقه بعد فشله في إنقاذه وعلا صوت البكاء أكثر حتى كادت يُسر أن تشعر بتفتت أضلعها، وهي تشعر أن الصغير هو الآخر يكاد يلفظ أنفاسه على ذراعيها، ودون وعي منها تذكرت تلك الأغنية التي كانت أوليغا تغنيها لها كلما بكّت، أو عصاها النوم..

ارتفع صوتها بالغناء رويدًا رويدًا وعلى عكس ما ظنت، لم يؤنبها أحد ولم يطلب منها أحد السكوت، حتى من كان يبكي موت رفيقه هداً بكاءً وسمعت عزيز يهمس بجوارها قائلاً:

- هناك أصوات تحيي الأمل، وتقتل الخوف وإن كانت من حنجرة محتضرة!!

غني إن استطعت حتى ظهور الفجر..

كان صوتها رغم الدمع قوياً هادراً حنوياً ابتلع مخاوفهم، وشد انتباههم، وسكت الرضيع عن الصياح، وصاحت أمه في ألم تسألها ماذا أصابه، وقال عزيز بعد أن تحسس كفه الصغير في لهفة:

- لا شيء سوى أنه على صوتها هداً ونام!!

أكمل وعلى صوته قطرات دمع أعلى من هدير أمواج البحر والظلام يقول:

- هناك أصوات أحنّ من صدر الأم وذراعيها!!



وحده اليأس أصبح سيد الموقف وريان من لفظتهم سفيتهم التي
دفعوا كل ما يملكون ثمنًا لارتياحها..

سقطت كل أقنعة الكبرياء الزائفة على اختلاف قوتها على وجوههم
وصدورهم..

أصبح صوت الأنين عاليًا والاستغاثات أكثر ذلًا ومهانة، أصوات
كثيرة تعلن عجزها وضعف سيقان أصحابها عن التحمل وانهيار قواهم
عن الطفو على سطح الماء..

بدأت يسرهم الأخرى ترتجف بردًا وذعرًا، حتى عزيز شعرت به
إلى جوارها يتفرض وفي لحظة أخبرها في سكون أنه يكاد يغرق، قال
في ألم:

- اسمعيني جيدًا، أعاني من إصابة قديمة وغائرة، لا أظنني سأصمد
أكثر من هذا..

مدت ذراعها في جنون إليه، وهي تخلع عن جسدها تلك العوامة
التي منحوها، وقالت:

- ارتدي هذه، لا أحتاجها لكن أرجوك لا تتركني. انظر إلى أين
جرفتنا المياه. أرجوك..

أسرع بكل ما بقي نه من قوى يقول:

- ارتديها، مازلت بخير لكن إن حدثت وفقدت قدرتي على المقاومة،
في جيب معطفي ورقة مغلفة بالبلاستيك عليها هاتف صديق لي،
حادثيه وأخبريه أن يساعدك..

بكت في جنون وهي تصيح:

- لِمَ تظنني أحيًا؟!

عاد يقول كأنه يبكي:

- لأنه العدل، أنا أستحق الموت وأنت تستحقين الحياة!!

أصبح كل من يسمع الآخر في حالة يرثى لها من الجنون والصياح..
وسمعت أحدهم يصيح ويطلب منها العوامة التي حول جسدها،
صاح عزيز بنهره وصاحت هي من جديد تتوسل إليه أن يرتديها،
وقالت:

- أنا بطلة الجمهورية في السباحة لا أحتاجها، خذها أرجوك..

ابتسم عزيز ابتسامة لم ترها لكن سمعت صوته يقول متهمكًا:

- السباحة في النوادي ليست كالبحر، السباحة مع صيحات التشجيع
وصفارات الفرع ليست أبدًا كالتوقف في الماء مع اثنين المحتضرين
وصراخ الظئمة واليأس. هناك فرق بين من يرسم بالألوان ومن ينقش
بالدم!!

كان حمى الخوف تفشت بينهم حيث عاد طفل حنان يصيح وصاحت أمه تخبرهم أن زوجها يكاد يفرق وعاد عزيز يحاول أن يتمالك ما بقي له من ألم وصاح يقول:

- من كان يسمعي فليقل اسمه ويتبعه برقم لنرى كم عددنا، وعاد يكمل والألم أصبح بادياً على صوته:

- أنا عزيز رقم (1)

وصاحت بسر من جواره تقول:

- سر.. رقم (2)

حنان أكملت وتلاها آخر وأصوات أخرى باكية حتى سكنت كل الأسماء والأصوات، وقال عزيز في ألم:

- كنا مشات وأصبحنا تسعاً وخمسين، فلنبق حيث نحن، الصبح قريب.

صرخة كبيرة كأنها صاعقة خرجت من حنجرة حنان تعلن أنها لم تسمع اسم زوجها ولا تجده إلى جوارها..

أسرعت بسر تحاول الوصول إليها من جديد..

هم يتعدون أحدهم عن الآخر رغماً عنهم، كانت تناديهما وتطلب منها الاقتراب منها فهي تخشى أن تترك عزيز الذي بدأت تشعر بنهايكه وعادت حنان تصيح أن جثة إلى جوارها ولا تستطيع أن تتحسسها لتعلم إن كان هو أحمد أم سواه..

بكل ما استطاعه من قوة صاح يرجو زوجها أن يعلن عن وجوده وانطلقت يسر تضرب الماء بذراعيها تحاول أن تصل إلى حنان وتخشى أن تبعد عنه وتشعر أنها هي أيضًا رغم بطولاتها وقوة شبابها بدأت تضعف وتنهار..

حنان غاب صوتها وبدأ الجميع في الأنين من جديد.. كان عزيز يسبح خلف صوت يسر واستطاع في لحظة أن يمسك بإحدى قدميها، وقال:

- لا تبتردي، انظري إلى السماء، اقترب الفجر، اصمدوا قليلاً!!
اصمدوا ما استطعتم..

غاب صوت عزيز كأنه فقد وعيه واستدارت نحو كفه التي كانت تقبض على ساقها تشعر بها وقد بدأت تسقط عنها ورمت بذراعيها حوله تمنعه من السقوط تحت الماء..

كانت تصرخ طلب أن يساعدها من هو منها قريب..

رغم كل شيء لا تستطيع أبداً أن تحمل رجلاً على ذراعيها لكن لا أحد يقترب، أو حتى يجيب..

أسندت رأسه على صدرها ولفت حول ظهره ذراعيها وبالكاد حفظت وجوههما فوق الماء وأخذت تصيح في أذنيه باكية:

- لا تتركني.. أفق يا عزيز.. الفجر قريب والصباح قادم!!



كان حقًا على حق..

هي ثوان قليلة بدأ بعدها الضوء يزحف على سماء تلك الساعات
السوداء..

ثوان قليلة كانت تحمله فيها على صدرها وهي لا تعلم إن كان غائبًا
عن وعيه أم فارق الحياة، أفاقت على صرخة عالية استدارت بعدها
تنظر حولها في ذهول..

كان هناك رؤوس قليلة متفرقة بعيدة عنها لكن استدارت جميعها
نحو تلك الصرخة الكبيرة التي خرجت من حنان وهي تحمل طفلها
الصغير، صرخات كثيرة متتالية تمزق نياط القلوب تردد فيها:
- أحمد.. لمن تتركنا.. لمن؟!

صاحت يسر تخبرها أنها تراها وأنها ستأتيها لحظة يفوق عزيز الطافي
على صدرها لكن حنان ما كانت ترى، أو تسمع..

كانت كالمجنونة تطلق صيحات ممزقة مبحوحة، استيقظ طفلها
على أثرها وبدأ هو الآخر في الصياح والبكاء وصاح أحد الأحياء
الناجين يزجرها قائلاً:

- اسكتي يا امرأة، أنت وطفلك بخير، كل منكما يرتدي عوامة.
اصمتي دعينا ننظر حولنا..

لا أحد في مواجهة الموت يهتم لشأن أحد..

وحدها يسر بقيت تنادي عزيز وتحاول أن تعيده إلى وعيه لتبحر
نحو حنان..

في لحظة رأتها على البعد تمد يديها نحو العوامة التي تلف جسدها،
وتخلعها عن جسدها في إعياء شديد، شعرت أنها فقدت سيطرتها على
عقلها، وأسرعت تضع ذراعها الأيسر تحت إبط عزيز وشحذت كل
ما بقي لها من قوى اكتسبتها من أعوام السباحة، وتمارينها وضربت
بذراعها الآخر في الماء، وهي تسحبه خلفها وتصيح باسم حنان التي
خلعت عوامة صغيرها في لحظة أخرى وضمتها إلى صدرها ويسر
تناضل المياه في اتجاهها ورأتها بعينيها تدخل بنفسها وصغيرها أسفل
ماء البحر..

كل من كانوا حولها ويرون ما يحدث شحذوا ما بقي لهم من قوة
وغاموا في اتجاهها ويسر ما زالت في كل ما استطاعته من قوة ترجوها
أن تخرج رأسها ورأس وندها من الماء..

في اللحظة التي وصلت كان أحدهم قد سبقها حيث اختفت فقاعات
الماء الصغيرة وأخرج الرجل رأسه من تحت الماء يحمل جسد الطفل
الصغير، وقال وهو يمسك بالعوامة الخاوية:

- قتلتها وماتت!!

لم تتوقف يسر أبدًا عن إبحارها وهي ما زالت تسحب رفيقها بأحد ذراعيها وتبكي في جنون تنادي حنان..

حين أصبحت إلى جوارها ألقى إليها بعوامة بعد أن ارتدى الأخرى، وهو يقول:

- لا تحاولي، ماتت!! ضعي العوامة حول جسد أخيك إن كان حيًا ولنفعل شيئًا..

ليت أوليجا قتلتها هي الأخرى قبل رحيلها..

ليت عصمت سقاها جرعة من المخدرات معه..

حنان على حق حين قتلت ولدها معها بعد غرق زوجها.

هناك أرواح إما أن تحيا، أو تغيب معًا..

بعد ساعات من ظهور أطياف ضوء الفجر وبعد أن سقط الكثيرون من إعيائهم وكادت هي أيضًا أن تفعل، صاح صوت يقول:

- أرى شيئًا يقترب، ارفعوا أذرعكم، صيحوا معًا!

حاولت أن تنظر، حاولت أن تسمع لكنها كانت ترتعش بين اليقظة والغياب، كان شعورها بجثة حنان وولدها يقتل فيها الروح..

هل هو الحب الذي جعلها تقتل ولدها ونفسها بعده؟!

أبدًا من لياليها إلى جوارهم عرفت أنها به ليست مفرمة، هو الخوف، هو الأمان!!

هو المجهول والعجز عن مواجهته!!

كان زوجها عندها هو ذاك الحائط الذي تظن بعض النساء أنه سند
وسكن..

إن ضاع السكن وسقط السند فالموت أكرم من الضياع..
ليست خطيئة حنان..

بل خطيئة زوجها الذي علّمها أن الحياة دونه موت، لهذا قررت أن
تموت هي وذاك الصغير الذي لم يحيا بعد..
يجب أن تعيش..

كانت تحيا أعمارًا دون أم وحتى دون أب، سندها نفسها، سكنها
أملها في رؤية أمها، يجب أن تقاوم، أملها ألا تحقق أمل الغداة
وتموت!!

فلترفع ذراعيها هي الأخرى وتلوح مع الناجين، من أجل عزيز الذي
فرش لها ذراعيه تغفو عليهما..

من أجل عزيز الذي أعلنها أختًا بينما لفظها عمها وزوجته، لن
نتسلم!!

فتحت عينيها المغمضتين التي كانت تخشى أن ترى بهما وجه حنان
وولدها، أو حتى زوجها ونظرت إلى حيث ينظر القلائل ممن شاء لهم
الخالق أن يبقوا أحياء..

زوارق صغيرة بمحركات كهربية تتقدم نحوهم وأصوات تتحدث
ميكروفونات..

ماذا يقولون؟ بأي لغة يتحدثون؟!

هل جاءوا ينقذونهم أم يقتلونهم؟!

في البحر ومع الضعفاء أنت لا تعلم هل تجذبك اليد الممتدة نحوك
إلى الحياة أم تتلذذ ببيكائك وأنت تموت..

ارتطمت عيناها بجثة حنان على الماء طافية وأغمضت عينيها في
ألم وفارقت وعيها هي الأخرى!!

لم تكن إغماءتها طويلة أبدًا، حين ظهرت القوارب المطاطية التي
نحمل رجال الشواطئ الإيطالية، حين حملها أحدهم على ذراعيه من
الماء ليلتقطها آخر على المَرَب فتحت عينيها في ذعر كبير ولم تقل
سوى عزيز!!

لم يفهمها أحد، ولم تتبه أنها تتحدث لغة فارقت أرضها وأهلها..
حاولت الوقوف على قدميها وهي تنظر من القارب الذي أصبحت
عنى ظهره لترى عشرات من مراكب الإنقاذ الصغيرة..

سمعت الأحياء يصرخون ورات جشًا طافية، وأخرى يخرج بها
البعض من تحت الماء، ركضت إلى حافة المركب ولحق بها أحد
رجال الإنقاذ حين شعر أنها تريد أن تلقي بنفسها في الماء..

أمسك بها من خلف ظهرها في قوة جعلتها تصرخ أكثر، كان يهمس
بكلمات لا تفهمها لكن كان واضحًا أنه يحاول تهدئتها..

استدارت برأسها إليه حين علمت أنها أبدًا لن تتمكن من الإفلات
منه..

قالت وهي تبكي:

- هل تتحدث الإنجليزية؟ الروسية؟ العربية؟!

أكملت بلغتها الإنجليزية تخبره أن أخاها في الماء حيًا لكنه غائب
عن وعيه..

كانت تصيح وتخبره أنها بطلّة في السباحة، بل ما زالت حقيبتها
الصغيرة خلف ظهرها وفيها ميداليات نجاحها، ارتخت ذراعا الرجل
حول جسدها قليلاً لكنه لم يطلقها، وقال إنهم حتماً سيجدون أخاها
وإن زوارق أخرى حملت بعض الأشخاص إلى الشاطئ، وأنه بالفعل
كان هناك بعض من جعلهم الإعياء يفارقون وعيهم..

قاطعت في جنون تخبره أن أخاها كان إلى جوارها على صدرها،
على ذراعيها فكيف لا تجده، كيف لا تراه!!

رغم أن الزورق كان يبحر في المياه، وعليه بعض الناجين ممن
كانت تعرفهم إلا أنها لم تستطع أبداً أن تهرب من ذراعي الرجل..
ما بقي لها سوى عزيز، بل ما أصبحت تريد من الأرض سوى أن
تكون إلى جواره..

عندما تجد شخصاً يقف معك في ضعفك، يحملك في لحظات
عجزك وينفك يوصيك وهو يكاد يموت فهل حقاً تريد غيره!!
كانوا يضعون الأغطية حول أكتاف الجالسين على الزوارق وكانت
هي تنتفض بين ذراعي الرجل وتصرخ تطلب منه أن يتركها لتبحث عن
أخيها..

شعر الرجل أنها بدأت تفقد السيطرة على نفسها وسمعته يقول كلمات بلغة لا تفهمها، وفي لحظة أدراها بين ذراعيه لتسرى الآخر يخرج شيئاً من حقيبة يضاء صغيرة ليتقدم نحوها..

دون مقدمات أمسك أحدهم يدها ليمزق عن ذراعها "كُم" ما ترتديه ورأت الآخر يمسك في يده إبرة طبية ليعلو صياحها أكثر..
صاح أحد من كانوا يعانون الموت منذ لحظات ينهرها قائلاً:
- لِمَ لم تموتي أنت والأحمق رفيقك؟ أخذوه يا بلهاء منذ..

لم تستطع أبداً أن تفسر ما قاله من كلمات، كان الرجل قد غرس في ذراعها إبرته لتغيب عن عينيها الصور، وتمنت لو يتركوها لحظة واحدة لتسمع ما يقوله الجالس عن عزيز، لكن هناك ثواني لا تريد سواها من الحياة عدا أنهم لا يعلمون!!



رغم الدمعات الصغيرة التي كانت تتساقط على كتاب الله الذي كان بين يديه إلا أنه كان يقرأ دون حاجة لرؤية الكلمات، هو فقط توقف عند الآية التي تقول:

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرًا جَمِيلًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْعَالِمُونَ الْحَقِيقَةُ ﴾⁽¹⁾

لم يستطع أن يكمل أبداً، انخرط غريب في بكاء حاد، وهو يتذكر وجهها يوم كانت تجلس إلى جواره في طريق عودتهم إلى "دمرو".

بالأمس أخبره صائح أن السلطات الإيطالية ما زالت تنتشل الجثث من المتوسط، أخبره أن عدد الناجين قليل..

كان ينظر إليه، وهو يعلم أن هناك معلومة ما يريد قولها، معلومة ليست سارة لهذا يحتفظ بها حتى نهاية الحديث، لم يستطع أن يتعجله ولم يستطع الآخر أبداً أن يكتبها..

بعد دقائق أخبره في ألم أنهم انتشلوا جثة أنثى..

أردف يختتم كلماته قائلاً:

- يا غريب لا أظن أن سواها من الإناث كان هناك.

(1) الآية 83 سورة يوسف

حين بقي ساكنًا ممامًا بتلون وجهه بالحزن ريت صديقه على كتفيه عائلاً "عشرات البيوت أعلمتها السفارة بوصول جثث أبنائها، من يعلم ربما من قرية أخرى، أو من زورق آخر كان هناك امرأة سواها، الأمل في نجاتها ضعيف".

عادت دمعاته تسقط في سكون..

ماذا لو ظهرت أوليجا الآن؟!

ما عساه يقول لها؟!

ما عاد حتى يعلم هل الأمل هو ما يحتاج أم هو حقًا بحاجة إلى اليأس..

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

وقفت عيناه على هذه الكلمات ورآها بوضوح رغم غمامات الدمع..

ربما هي رسالة، ربما هي إشارة!!

أبًا ما كانت، وإن كان الأمل وهماً، ما بقي في قلبه شيء يصدق أنها

على قيد الحياة، سيبقى على جمرة الحياة قابضاً بكفيه..

نهض عن مكانه وغسل وجهه بالماء، وعاد إلى مكانه في مسجد

القرية يرفع صوته بأذان الفجر، توجه ليفتح باب المسجد الذي أغلقه

على نفسه وعاد يجلس متربعا الأرض وقبل أن يخلق المصحف نظر من

جديد إلى ذات الكلمات كأن لا سواها في الصفحة المفتوحة ﴿عَسَى

اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.



هو مبنى كبير من دور واحد به عنابر كبيرة نظيفة ومرتبة، حين أفاقت يسر من غيبوبتها ذاك اليوم وجدت حولها نساء وأطفالاً لا عدد لهم، بعضهم من فلسطين وآخرون من المغرب العربي..

الجميع من أرض العرب وظلم حكام العرب وقوانينهم هارب!! حين انتفضت من فراشها الذي وضعوها عليه ونظرت في وجوههم صرخت أيضاً باسم عزيز..

لم تمر ثوان حتى ظهر أحد رجال الشرطة الإيطالية على باب العنبر يناديهما باسمها في ثبات، حين عاودت النظر حولها في دهشة كأنها تسأل كيف عرف وكيف جاء رأت إحدى السيدات تشير لها بابتسامة إلى أحد أركان سقف الغرفة، كاميرات كثيرة مثبتة على حوائط الغرفة. ذهبت إليه وهي حافية تنظر في دهشة إلى الجلباب الأبيض القصير الذي لا تعلم من وضعه على جسدها، أو كيف خلعوا عنها ثيابها..

كان الرجل يتحدث بعض العربية وفي سكون تبعته إلى حيث اقتادها، حين دخلت الغرفة التي أخذها إليها وقفت تنظر في ذهول حيث رآته في زيه الرسمي يجلس خلف مكتب متوسط الحجم وإلى جواره شاب يجلس إلى مكتب صغير.

نهض الرجل عن مقعده ومد يده يصافحها مبتسماً، وقال في لغة لم تفهمها بعض الكلمات..

استدارت تنظر نحو الشاب الذي قال في لغة عربية فصحي:
- أترجم لك ما يقول.

كان الرجل ينظر نحوها في ودّ، ودون تفكير أخبرته أنها تتحدث الإنجليزية وأيضاً بعض الروسية إن شاء.

اتسعت ابتسامة الرجل وأشار لها على المقعد المواجه له لتجلس.
أخبرها أنه يجري معها تحقيقاً روتينياً لتتخذ السلطات بشأنها قراراً، إما ترحيلها إلى بلادها، أو دراسة حالتها إن كانت تستحق الحصول على حق لجوء سياسي، أو ديني.

أخبرها أن لا شيء يعقد الأمور سوى الكذب، وأن كل من قاموا بترحيلهم وإعادتهم إلى أراضيتهم كذبوا رغم أن السلطات أخبرتهم بأنها ستجري تحقيقاً دقيقاً لإثبات صحة ما يقولون.

أرخصي رأسه لحظة ثم رفعها ينظر إلى وجهها قائلاً:

- أنت جميلة وفي عمر ابتي، أستطيع الحكم على الأشخاص جيداً لكثرة ما رأيت منكم، لست فقيرة، طالبة ناجحة متفوقة مثلك كيف ومن مساعدك على رحلة مهينة كهذه، أين أبوالك؟!

كانت تنظر إليه في ذهول وهو يتحدث وحين قرأ دهشتها انحنى أسفل ركبتيه ليعود بيده تحمل حقيبتها الصغيرة التي كانت تحملها على ظهرها.

في هدوء فتحها وأخرج تلك الميداليات الصغيرة التي أخذتها من شقة الدقي وفي سكون نسيت وجوده، نسيت شارات الاستفهام وطواحين الألم والخوف التي تدق في عروقها.

مدت أصابعها ودعمات صغيرة تزحف خارج عينيها الرمادية تحس حذاء الباليه الذي انكمش بفعل مياه المتوسط.

التقطت الصورة التي تجمعها بوالديها وضمتها إلى صدرها رغم أنها كانت شبه ممزقة وباهتة.

ضمتها إلى صدرها وأغمضت عينيها ليسقط منها زخات دمع، وقالت في ألم:

- أمي رحلت ومات أبي.

لم يتعجلها الحديث، بل نهض عن مكتبه، وذهب نحو نلاجة صغيرة عاد منها بقنينة ماء صغيرة وقطعة كبيرة من "الشيكولاتة" وضعها أمامها وعاد إلى مكتبه يقول:

- أسمعك حتى الصباح، إن كنت جائعة أحضر لك وجبة من الطعام، هناك أربع وجبات توزع على الجميع.

في ذهول التقطت قطعة الشيكولاتة رغم دمعها فتحتها، والتهمت منها قطعة والرجل يراقبها في إشفاق كبير.

طفلة هي رغم كل شيء!

ما إن ابتلعت ما قضمته حتى نهضت عن مقعدها كأنها تذكرت شيئاً
ما كان يجب أن تنساه.

قالت في تصميم ورجاء:

- أين عزيز؟!

ابتسم الرجل كأنه يعرف عن من هي تتحدث، وقال:

- هو أيضاً يبحث عنك، هل تقولين الصدق إن أحضرته؟!

تفعل أي شيء وتقول كل شيء فقط له رآته.

بعد لحظات وبعد طرقات صغيرة على الباب كان عزيز يقف داخل
المكتب يرتدي جلباباً كالذي ترتديه ونهضت عن مكانها، وفي ذات
اللحظة نطق كلاهما ذات السؤال "هل أنت بخير؟!"

وحدها من تقدمت نحوه، وحدها من ألقت رأسها على كفيه،
تحتاج أن يعانقها أحد، تحتاج أن تشعر بأنفاس دافئة كأنفاسه وصدر
كصدره وشعرت به يلف جسدها بذراعيه في تردد وهو يهمس:

- الحمد لله أنك بخير.

جلست وجلس عزيز على المقعد المقابل وتحدث الرجل.. أخبرهما
أنهما ليسا سجينين.. هما وكن من في المبنى الكبير تحت التحفظ.

الأبواب مفتوحة وخلفها حقائق كبيرة حولها سياج عال فقط إن
حاولوا تجاوزه يتم ترحيلهم إلى السجون، هم قيد التحفظ حتى انتهاء
التحقيقات. منهم من يتم ترحيله ومنهم من نسيح له الحكومة -البقاء.

عاد يردد "الصدق يختصر المسافات"

مد عزيز يده يربت على ركبتيها، وقال:

- أخبريهم كل شيء، هم بنا أرحم من البحر وبلادنا.

في خوف قالت:

- لا أريد أن أعود..

في ألم نظر إليها عزيز قائلاً:

- جئنا من بلاد لا قيمة فيها لما نريد، أو لا نريد، تحدثي إليهم، هو

أملك الأخير!!

أنا أخبرتهم بالحقيقة وما عاد يعنيني سوى الاطمئنان عليك، حتى

إن وضعوا الأصفاد في يدي لن أغيب قبل الاطمئنان عليك، هل

تصدقيني؟!

في تهالك نظرت إليه، ما أتعبها سوى أنها صدقت من لا يصدقون أبداً!!

استدارت بعينيها وجسدها بأكملها نحو الرجل الجالس خلف مكتبه

تقول:

- هل تمنحني أشياء إن أخبرتك الحقيقة؟!

بيديه وضع الأشياء داخل حقيبتها ومنحها إياها قائلاً:

- لا نعذب أحداً، خذي ذكرياتك وامنحيني الحقيقة علني

أساعدكم!!



أما كان هذا هو حلم العمر؟!

أما كانت تحلم بهذه الليلة منذ خطت خطواتها الأولى على أرض
العمر؟!

ما الذي تغير إذن؟!

لا يقتلنا التغير، ما يقتلنا حقًا هو الإدراك والبصيرة..

ما يذبح فرحتها ويحيل ثوب عرسها الأبيض إلى ثوب حداد هو
الحقيقة التي رأتها وأدركتها..

خديجة رأت رؤى اليقين حقيقة فريد.

رأت كيف في لحظة باعها وتبع ابنة عمه، ودلى أمامها رأسه وأذنيه
كحرد صغير.

رأت كيف أصر على إبقاء غرفة النوم التي انتقتها تلك الشيطانة
حمراء الشعر كاذبًا مدعيًا أنها من اختياره.

هي لا تنسى أن عمتها أخيرتها يوم وصلت الغرفة من مصر كم هو
سئ اختيار يسر وكم هو وضع ذوقها.

ابتسمت يومها وأخبرته أن الغرفة تعجبها، لكن ما عادت هذه اللعبة
التي ملها تعجبها.

رأت وجوههم على حقيقتها!!

فريد ضعيف لكنها ما زالت طوق نجاته، زواجه منها وحده يلمنم
كبرياءه المسكوب.

”دمرو“ بأكملها علمت أن العروس هربت من ابن عمها ليلة عقد
قرانها.

زواجها منه بعد أسبوعين من غيابها يريق بعضًا من التراب على دمه
المسفوك.

قبولها هي وأهلها قصة جبهما القديمة، موافقة الغندور الكبير وهذه
الموائد والذبائح كلها تدق مسامير في أعمدة كرامتهم المنهارة..

تمنت لو رفضت، تمنّت لو صرخت في وجه فريد وأبيه حين أتيا
دارهم التي لم يدخلوها منذ أعوام لا تذكر عددها..

تمنت خديجة لو أنها حتى استطاعت أن توافق على عقد القران
وتؤجل موعد الزفاف.

لا تريد أبدًا أن تنام على صدر فريد وهو ما زال مسكونًا بوجه تلك
الحمقاء لكن من يقول إن وجهها سيغادر وسادتهما وإن طال الانتظار؟!
لم تستطع أن تقل شيئًا سوى أن تهز رأسها بالموافقة.

ها هو حلم العمر يتحقق، وها هي ترتدي ثوب العرس، يفصلها عن
صدره وداره لحظات لكن شرخًا كبيرًا انصب بينهما يجعلها تشعر أنها
في طريقها إلى مهمة رسمية..

مهمتها أن تصبح زوجة الغندور الصغير وتدخل بيته وتنجب منه أبناء ويصبح والدها الفقير نسيب الغندور وتصبح أمها جدة الغنادرة الصغار..

حين انطلقت الزغاريد وسارت العروس إلى بيت حبيبها القديم وحين استدارت لترى أمها ترقص فرحاً وسعادة وعمتها مزهوة بنصرها لم تفعل شيئاً سوى أنها ألقت رأسها على كف أيها تقبله لتسمعه يقول على مرأى ومسمع من كل من حولهم:

- دخلت بيت الغنادرة فكوني ابنتهم وخادماتهم واعلمي أنك لن تخرجي منه إلا لتنامي في قبرك.

أوجعتها الكلمات، وقبل أن تفيق من ألمها سمعت عمتها، تقول:

- قبلي يد عمك واصعدي مع زوجك إلى غرفتك.

لم يمانع الغندور الكبير، لم يحاول حتى أن يسحب كفه من تحت شفتيها كما يفعل أباه أحياناً.

قبت كفه ورفعت عينيها تنظر إليه..

يوماً يموت ويوماً تموت عمتها وتجلس هي على مقعدها ويصبح هذا البيت بأكمله بيتها..

حين يأتي ذلك اليوم تترك كفه للغنادرة القادمين بغرقونب قبلات وابتهالات.

رأت فريد يقبل كف والده هو الآخر ويمسك بذراعها ليصعد بها
غرفتهما.

على أعلى درجات السلام رمقت بطرف عينيها وجه والديها
يجلسان في أدب ينتظران إعلان شرفها وابتسمت في مرارة.

ذبحت يسر الغندور كرامتهم ويتفكرون منها ما يستعيد به الغنادرة
شيئاً من رجولتهم الضائعة وسلطانهم المبتور!!



كان مضيًا مؤلمًا لقاؤهما!!

كان فيه مرارة وتحذُّ يحاول كل طرف منهما الا يظهره.

حديجة رغم استسلامها بين ذراعيه إلا أن شيئًا في أنفاسها كان فيه تحذِّدين وفريد رغم هدوته وحنوه في أخذها إلا أن تسلطًا وقوة خفية كانت تنفث أنفاسها من بين أصابعه..

كل ما غاب عنه الحب أصبح يابسًا كالأرض الـينة!!

كان يتمنى لو أن يُشر من كانت على هذا الفراش بين ذراعيه تغفو وخديجة كانت تمنى لو أن فريدها القديم هو الذي يعبث بجسدها لا هذا الذي هزمته شيطانة أصغر منها ومنه.

كلُّ منهما كان فيه جزء ضائع أضاع غيابه كثيرًا من زهوة لقاؤهما الأول، بل أضاع كثيرًا من نشوته بام أنه الأولى ونشوتها بانتقالها إلى غرفة أكبر من بيتهم مضافًا إليه عشرات البيوت ممن حولهم..

حين هذا وضمها إلى صدره، ورمى برأسه على الوسائد المجاورة لها غطس رأسه فيها.

كيف ينسى أن يسر اختارت الوسائد الناعمة. وحين ضحك يخبرها أنه اعتاد النوم على وسائد القطن اليابسة لم تقل شيئاً سوى أنها دججته باللوم والدهشة..

بقيت الوسائد وغابت من اختارتها..

بقيت الوسائد وجاءت امرأة أخرى تنام عليها.. امرأة كانت حلم عمره القديم وسمعها تهمس قائلة:

- هل تظنك حقاً أحبتها؟!

انتفض قلبه عندما شعر أن زوجته كانت ترى وتسمع كل ما يدور في ذهنه ووضع ذراعه حولها ليأخذ رأسها على صدره قائلاً في ألم:

- أنت حبيبة الصغر، أنت زوجتي، هي ابنة عمي لكنها عابرة اختارت الهرب، هي كسررتني وأنت لملمنتني، كيف أحبها؟!

ضحكة صغيرة مريرة خرجت من شفتي العروس، وقالت في ألم:
- ليتني أعرف كيف أصدقك!!

اعتادت أن ترافق عزيز إلى حدائق معسكر اللجوء قبل موعد الغروب كل يوم..

كثيرون هم من يخرجون إلى الحدائق وكثيرون من يقفون بجوار السياج العالي الذي يحيط بالحدائق كأنهم يخططون للهرب، بل في كل ليلة هناك محاولات للهرب نجح بعضها وعاد آخرون بعد القبض عليهم مرة أخرى إلى التخطيط والإعداد للهرب من جديد..

وصل اليوم وفد كبير من مجموعة قادمة من الشواطئ الليبية هذه المرة..

مؤلم جداً ما سمعوه، مات مئات منهم، ونقلت طائرات الصليب الأحمر عشرات من الناجين إلى المستشفيات، وانضم لهم عشرات من الناجين، ممن تسمح حالتهم بالبقاء في المعسكرات، قصص وبكاء وأنين، مخاوف وأحلام ووجوه خائفة قتلها اليأس وأفقدوها الأمل صوابها حتى أقدمت على هذه الرحلات السوداء..

لو علمت يُشر كل ما مرت به لربما فضلت الزواج من فريد والبقاء في دمره.

أطرقت برأسها لحظات، ثم عادت تنظر إلى وجه عزيز الهادي وابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة..

ما كانت لتلتقيه أبداً إن لم تقم بهذه الرحلة..

كان يخطو إلى جوارها وحين لمح وجهها يتسم أميبك بكفها بين يديه وسار بها نحو أحد المقاعد الخشبية المتناثرة ليجلسا معاً في هدوء قال بعد لحظات منه:

- لو أعلم ماذا يرسم على وجهك الابتسامة لما توقفت عن فعله، رائع وجهك حين تبسمين.

مالت برأسها على كتفه في هدوء ولف ذراعه حول كتفها في حنان صادق.

ما الذي يربطه بها؟! لا يعلم!!

لم يقل لها كلمة حب ولا يظنه يفعل!!

هي صغيرة رغم كونها أنثى مكتملة، هي رقيقة كجناح فراشة رغم أنها قوية جريئة.

كانها بسمه عميقة في وجه أقدار الأرض القائمة رغم كونها لا تبسم إلا قليلاً.

وضع كفه على شعرها كأنها ابنته، أو كأنها قطعة صغيرة احتمت به.

ترى ما الذي جعلها تبسم؟!!

من على كتفه سمعها تقول بصوتها الهادئ:

- اقترب موعد العودة إلى الدراسة عزيز، كان هذا سيصبح عامي الأخير في المدارس ورغم هذا لا أفتقد في مصر شيئاً سوى صالة تمارين الرقص.

فجأة دون مقدمات انتفضت من على كتفيه واقفة ونظرت إليه تقول:
- هل تريدني أن أرقص لك؟!!

أكل الذهول وجهه، لم يكن يتخيل أبداً أنها ترقص، هي في عينيهِ
أجل وأجمل!!

لم تنتظر أن يقول كلمة، بها للرقص رغبة كبيرة اليوم.
حين رأت وجوه القادمين الباكية، حين سمعت صيحات الأطفال
وعويل النساء الذين مات رجالهم غرقاً في المتوسط شعرت بالخوف
يسكن أطرافها من جديد.

لا شيء من الخوف والألم ينجيها سوى أن ترقص.
رفعت ذراعيها إلى الأعلى ودارت دورة كاملة حول نفسها، ثم
رفعت إحدى ساقها تلامس بقدمها ركبتها الأخرى وأخذت تدور
وتنحني ثم طارت في خطوات سريعة راقصة كأنها تحاول أن تغادر
الأرض.

كان ينظر إليها في انبهار.

كان يظنها تريد أن ترقص رقصة شرقياً، لم يكن يعلم أبداً أن هذا ما
نعيه.

دقائق وقف فيها كل من كان يسير في حديقة المعسكر يرقبها وهي ترقص، ثم تكن نرى أحدا منهم..

عزيز وحده يملأ عينيها حتى حجب عنها كل من هم سواء.

كانت تطير في السماء وتعود إلى الأرض، تدور وتنثني في خطوات رشيقة سريعة بعيون مغمضة على أحزان كبيرة وذكريات أليمة وشيء واحد يجعلها تشعر أن بإمكانها أن تفتح عينيها دون خوف طالما كان هناك لتبصره بعيونها.

دارت دورات كثيرة حول نفسها، كأنها تلك الفراشة التي تدور حول لهب نار لا تعرف أنها فيها ستسقط..

حين توقفت عن الدوران ورمت برأسها على صدرها وفراعاها مفرودتان سمعت تصفيق كل من كانوا في منزله المعسكر..

لم تنظر حولها، لم تنظر لأنها حقًا لم تكن ترى سواء..

إلى وجهه وحده نظرت وسمعت يقول كأنه غاب في طيات جناحيها الراقصين:

- هل تغنين لي تلك الأغنية؟!

رغم أنفاسها المتهدجة، رغم العشرات ممن كانوا حولها يقفون انطلقت بصوتها تغني تلك الأغنية التي غتها في المتوسط لابن حنان. سقطت دمعاتها وهي تغني عندما رأت وجه حنان تُغني طفلها وتغرق معه..

علا صوتها أكثر حين رأت تلك الفقاعات تطفو على وجه الماء بعد غرقهما، وعاد صوتها يعلو أكثر وهي ترى تلك الرسالة التي كشفت لها خديعتها في أمينة وقدرية..

الغناء ليس مظهرًا من مظاهر الفرح..

أحيانًا لا نغني إلا ونحن مذبحون!!

حين انتهت أغنيتهما كان صوت تصفيق كل من في الممتزدة أكبر من ألا تسمعه ورغم هذا ما نظرت إلا إلى عزيز، وقالت في ألم:

- لا أرى سوى وجه حنان وولدها.

أسرع بالنهوض إليها وأخذها على صدره وهمس في أذنها يقول:

- لا تظني بقاءنا على قيد الحياة أهون من موتهم أيتها الفراشة!!

سكت التصفيق ومضى كل في طريقه وعادت إلى الجلوس بجواره، وهي لا تدرك أبدًا أن عينًا على البعد كانت تراقبها في ألم..

كان المحقق "ألثرو أفرو" يراقبها في ألم عميق بعد أن رآها ترقص وغاب في طيات صوتها رغم أنه لم يفهم حروف كلماتها..

إلا إنه كان يراقبها هي ورفيقها منذ أجرى معهم التحقيق.

كل منهما قصص عليه قصته، وكل قصة مزقت أوتار قلبه، حين رفع تقريره عنهما أوصى بمنحهم حق اللجوء الإنساني..

هو دومًا يتعاطف مع هؤلاء اللاجئين، بل كثيرًا ما تفاضى رجاله عن هرب بعضهم بإيعاز غير مباشر منه، بل ومن رؤسائه، لكن مع هذه

الصغيرة ورفيقها، مع اهتمامه بها وخوفه عليها، مع تعلقه بها وتمسكها به يوم أحضر وهما غائبين عن وعيهما، وكما قص باقي الناجين قصتهم ما أصبح شعوره نحوهما إشفاقاً، أو تعاطفاً..

يشعر أنه يحبهما معاً..

لكن هو يتألم..

جاءت هذا الصباح كشوف القرارات!!

تم الفصل بشأن مهاجري مصر غير الشرعيين، منحوا حق اللجوء لأربعة منهم لتعرضهم للاضطهاد الديني.. وحق اللجوء الإنساني إلى فرد واحد منهم هو رجل فقد جميع أفراد عائلته في الرحلة، ثم أضرب عن الطعام والشراب، وتم نقله إلى مستشفى المدينة القرية..

سيتم غداً ترحيل الباقيين أجمعهم إلى بلادهم من جديد..

غداً يتم ترحيل عزيز الفوال ويسر الغندور إلى مصر من جديد!!



لن يغادر مكتبه قبل أن يفعلها!! لا يستطيع أبدًا ألا يفعلها..
ما عاد الأمر أبدًا ينحصر في إشفاقه عيها من رحلة الترحيل إلى
وطنها والتي يعلم قسوتها، ولا عادت القصة إشفاقه على رفيقها الرسيم
بعد قصته التي قصّها عليه..

”ألترو أفرو“ لا يريد أن تغادر هذه الزهرة جزيرة ”لامبادوزا“..
يريدها أن تبقى على الأراضي الإيطالية..

فتحوا أبواب المعسكرات للهرب أعوامًا كثيرة وطويلة.. ما يضير
لو فعلها مرة أخيرة؟؟

غداً يوم عصيب لا يريدها أن تشهده، كفى هذه الصغيرة ما رأت..
لا يكره في عمله شيئاً قدر كراهيته ليوم ترحيل الناجين إلى بلادهم
من هذه المعسكرات..

يرتفع عويلهم وبكاؤهم، تسقط آخر أقنعة كبريائهم وأدميتهم..
شهد بنفسه موت عشرات حين ينطلقون نحو أسوار حدائق المتزه
في جنون للهرب، منهم من مات ومنهم من تحطمت ضلوعه بعد قفزه
ليحملوه بين الحياة والموت إلى المستشفيات قبل معاودة ترحيله..

غداً يوم عصيب!!

تغيرت قوانين البلاد، وأصبح السماح بهربهم أمرًا مشددًا قد يحاسب هو ورجاله عليه لكن لا قطعة في روحه، أو جسده تنصاع له، أو تنهض به ليغادر مكتبه ويترك الغد يأتي وهي هنا..

إن جاء الصباح أصبح رحيلهما مستحيلًا..

تأتي قوات كبيرة مسلحة من الشرطة الإيطالية، كأنهم مجرمون يسوقونهم إلى السيارات المغلقة حتى المطار..

ألقى برأسه على مكتبه لحظات، ثم أخرج ورقة كتب عليها سطرًا كثيرة ونهض عن مقعده..

إن وجدها في المتزّه بجوار نافورة المياه كما يجدها في معظم الأيام وضع الورقة في يدها وإن لم يجدها خرج إلى بيته..

رفع وجهه الشرقي الملامح إلى نافذة مكتبه..

الأمر الآن متروك بين يدي الإله..

إن لم يجدها هي إشارة من السماء بأن يتركهم يعودون إلى بلاد لفظتهم ولفظوها ولينم هو هائنًا مستق الخاطر والضمير..

في تناقل نهض عن مكتبه وتوجه إلى طريق عودته إلى بيته، كان يكرر على نفسه أنه لن يقف لحظة ولن يبحث بعينه ولو دورة واحدة، إن كانت حيث اعتاد رؤيتها فعلها وإن لم تكن خرج إلى سيارته ومزق الورقة قطعًا صغيرة ونسي الأمر برمته..

في كل خطوة كان يخطوها نحو الفناء وفي اللحظة التي وقف فيها على باب المبنى الصغير الذي يقع فيه مكتبه كان يسمع صوتاً خافتاً يخرج من بين ضلوع صدره يقول "كوني هنا يا صغيرتي، من أجلي وأجله كوني" ..

استجمع كل شجاعة رجل التحقيقات القديم، ورفع عينيه يبحث عنها ثم أخفضهما بسرعة كأن جفنيه خائاه ..

ليست هنا، فليمض ..

هي مشيئة السماء!!

في طريقه وبعد خطوات رأها تقبل بخطواتها الرشيقة نحو نافورة الماء وحين أصبح أحدهما في مواجهة الآخر تبادلًا نظرة طويلة عميقة أخرج بعدها الرجل يده من جيبه وبسرعة خاطفة وضع ما فيها بين كفي يسر دون أن يترك لها لحظة واحدة تنبس فيها بحرف ومضى في صمت وسكون!!



لومت أنا كما مات أبوك ما واجهت ابنتي ما تواجهين.. لكن ما بقيت الثروة والسلطة في بلادكم هي هاجس حكامكم ووسواس شعوبكم سيبقى البحر المتوسط يشهد آلاف الهارين يتقي من يتلع منهم، ويلفظ لنا من عجز لتختمه عن ابتلاعه..

صدر القرار بنرحيلك ورفيقك إلى وطنكم صباح الغد!!
أغامر بشرف مهنتي بهذه الرسالة لكن أفضل أن أفعلها عن مغامرني
بعمق إنساني..

بعد وجبة العشاء ودخولكم أسرّتكم اخرجني إلى الفضاء وفي الركن الشمالي وخلف شجرة "السيكوي" العملاقة هناك تجددين في السياج بابًا صغيرًا سيكون مفتوحًا اعبريه ورفيقك الذي ستجدينه في انتظارك..
مزقي هذه الرسالة قطعًا صغيرة بعد قراءتها وانثري كل جزء منها في مكان..

لا أريد ولا تريدان لي تهمة الخيانة..

إن ضاقت بك الأمور أسألي عن مقهى الجزيرة الكبير وستجدين هناك من يهتم لأمرك إن ذكرت له اسمي، لكن لا تذهبي قبل أسبوع على الأقل وحتى تُنسى قصة هربكما..

هذه الأوراق النقدية ليست معونة هي دين عليك ..
 حافظلي على نفسك، واصنعي منها شيئاً وابني لها مكانة فأنت لا
 تعلمين متى أطلب سداد الدين ..
 أيتها الساحرة ..
 اتهمني صديقك أثناء التحقيق معه أننا بلا قلب أو مشاعر ..
 أخبريه أنني أسهل أمر هربه لأثبت له العكس ..
 نحن أيضاً نطلبكم في غريتنا بلا حقول أو رؤوس ..
 أمحك وصديقك الفرصة لتثبتا العكس ..
 فهلا تفعلا ن؟!

لم كذب نفسه حين أخبرته ألا يكمل تناول وجبة العشاء.. شيء ما
في مذاق قطعة اللحم كان مختلفًا، حتى كوب الشاي الذي شربه كان
به شيء يختلف..

كان جائعًا وحين نكون لا ننتبه للمسم كثيرًا وإن فعلنا يخبرنا جوعنا
أننا نتوهم..

الجوع يهدأ وبقى نحن من يتألم!!

يشعر بغثيان كبير لم يعد بإمكانه أن يقاومه، نهض عزيز عن فراشه
مسرعًا بخطواته نحو حمام العنبر الكبير الذي ينام فيه..

قبل دخول الحمام لمح أحد حراس المكان يتجول في هدوء..

أرخص رأسه، كأنه يلقي عليه التحية، وتقدم الرجل نحوه وأمسك
بذراعه قائلاً في عريية ركيكة:

- هو مجرد شعور، لن تنقياً شيئاً، ملابسك التي جئت بها من بلادكم
مع رفيقتك الصغيرة ستجدها خلف الشجرة العملاقة في الركن
الشمالي للفناء تنتظرك، إن تأخرت أعادوك وإياها غداً إلى بلادكم..

كان عزيز يحاول أن يفهم ويحاول أيضًا أن يتحكم في رغبته في
التقيؤ..

في لحظة نظر إلى الرجل وأدرك أن كل شيء مرسوم..
 وضع له شيئاً في الطعام وانتظره هنا من أجل هذه الرسالة..
 نظر إلى الجلباب القصير الذي يرتديه، وأعاد النظر إلى وجه الرجل
 الذي عاد يقول:

- إن تم القبض عليكم وأتيت بذكرى تموت هنا في اليوم التالي هل
 تفهم؟! امض الآن في هدوء كأنك تعاني من ألم أو أرق..
 لم ينتظر عزيز لحظة أخرى، بل مضى نحو الفناء وعيناه تتجولان
 بحثاً عن الشجرة كأنه نسي مكانها وتقدم نحوها في ثبات..
 ما زال هناك بعض من لاجئي المعسكر يتجولون في الفناء.. منهم
 من يعاني من الخوف ومنهم من عصاه النوم، ومنهم من هو بلا هدف
 أو غاية خرج إلى الحداثق..

حين أصبح بالقرب من شجرة السيكونيا العملاقة استدار حوله ينظر
 في عدم اكتراث خشية أن يجد من يتبعه، وفي لحظة اندس بجسده
 خلف الشجرة ينظر في ذهول..

هناك باباً صغيراً مفتوحاً في السياج الحديدي الغليظ وسمع صوتها
 تهمس:

- أنا هنا..

كانت تجلس خارج السياج على العشب الأخضر، انحنى يلتقط منها ثيابه وارتداها على عجل، ثم طوى جلبابه في أصغر حجم استطاعه، ووضعها على أحد أفرع الشجرة وانحنى يخرج إليها لتقف وهي تنظر إليه كأنها لا تصدق أنه جاء وسمعتة يقول:

- لا أفهم..

رمت بنفسها على صدره قائلة:

- ألترو فعلها، هل نذهب إلى صديقك الذي منحني رقمه من قبل؟!
 أمسك يدها، وهما يركضان في خفة ثم قال:
 لا أصدقاء لي هنا، أردت يومها أن أمنحك شيئاً من الأمل..
 حين شهقت ونظرت إلى ذاك الظلام الرحيب سألته في ألم:
 - أين إذن نذهب؟!

ركض بها إلى حيث لا يعلم قائلاً:

- الهاربون لا يسألون!!



حين يكون نصيب امرأة من زوجها يقتصر على نصفه السفلي
أصبحت معه في مهب الريح..

كيف كانت يوماً تملك كل ما فيه وأصبحت اليوم لا تصل إلا إلى
أضعف ما فيه..

انكسر في فريد شيء كبير يوم هربت منه يسر..

بل ما عادت خديجة تظنه حباً، أو عشقاً، تكاد تجزم أنه كبرياء
مذبوح يجعل منه هو الآخر نصف رجل..

عمتها أيضاً ما عادت كسابق عهدها معها، هي منذ دخولها بيتهم
حريصة على أن تذكرها دوماً أنها وحدها سيدة البيت وصاحبة القرار..

الغندور لا يعنيه أمرها في شيء، بل كثيراً ما شهق في استنكار حين
تظهر أمامه كأنه نسي أن وحيدة زوجها..

سيدخل فريد إلى فراشها بعد لحظات دون حتى أن يتنبه إلى ثوبها،
أو عطرها، ستري في عينيه رجاء أن تتركه ينام في سلام..

ينام دون قصص، أو شكوى، ينام دون أن تحسس جسده كأنها
تطالبه بمضاجعتها..

وضعت أصابعها في طيات شعرها تمسكه في ألم..

كان من الأجدر أن يسموها "وسيلة" لا خديجة، هي وسيلة أمها لتسحب من قدرية نقودًا وأطعمة وأثوابًا..

هي وسيلة والدها ليجلس بين علي "دمرو" كأنه يعلن أن الغندور ناسه مرتين؛ لأنه لا يقل عنه شأنًا، أو مكانة.

هي وسيلة عمته لإحكام السيطرة على ولدها، بل كانت وسيلة ولدها نفسه ليمسح في كبريائها ما أهدرته ابنة عمه من رجولة وكرامة.. هي "لاشيء"!!

حتى ذاك الحب تحول إلى مسخ يحاول كل طرف منهم أن يغمض عن دمايته عينه..

لهذا حين يدخل إلى فراشها لن تتركه، حين يخلع ثيابه، حين يضعف أمام جسدها ويلهث، وهو يركض بين صدرها وشفتيها تشعر أنها قوية، قوة لا تستمر إلا لحظات لكنها تشعر أنها بها تثار لكل ما تم ذبحه فيها على يد الغنادرة..

يومًا تقف أمام قدرية وتذللها، يومًا ترفع صوتها عنى أنغندور حتى يبقى صدى صوتها يطن في أذنيه وإن غابت عن عينه لا ينساها ويفاجأ بظهورها كما يفعل..

انزلت قدمها في اللعبة ولن تتركهم يكسرون ساقها..

استدارت بجسدها كأنها أفعى حين رآته يلقي بجسده جوارها على فراشه..

أغمض عينيه في ألم، يتمنى لو تركه حتى يشاق إليها لكنها دوماً
تستغفر فيه الرجل لا الإنسان..

يشفق عليها وعلى بقايا حبه لهذا كثيراً ما يستجيب لها..
حين زحفت بشفتيها على وجهه وشعرت بتصاعد حرارة أنفاسه
همست تقول:

- متى ننجب؟؟!

في حزن وتهكم مرير، قال وهو يخلع عنها ثيابها:
- لسنا في عجلة، أصبحت من الغنادرة ولست أبداً في حاجة إلى ما
يؤكد وجودك..

رعشة صغيرة سرت في جسدها وهي تسمع كلماته، يفهمها كما
تفهمه، وقالت كأنها تتعمد إيلا مة:

- ربما أريد طفلاً لتنسى تلك الطفلة التي قتلت حيناً..

أحياناً نشعل النار بدما تانا فقط حين لا نجد شيئاً آخر نحرق به من
آلمونا..

شعر كأن شهوته انطفئت لكنها عاجلته بقبلة جعلته يتلع كلماتها،
ويقسو على جسدها رغم ما به من ألم وقسوة الذكريات..

كيف حقاً فعلت به يُترك كل هذا؟!!

كيف تركته ضعيفاً مقضو حاً مذبو حاً أمام هذه الفتاة التي تحمل من
جبروت أمه الكثير؟!!

أمسك بشعرها بين أصابعه في قسوة وتعمد أن يؤلمها في كل قطعة
وصل إليها، وقال وهي تن من ألمها:

- لا امرأة على الأرض عاد فريد يهتم لأمرها، أو يكثرث!!

لا تنكأ علينا جراحنا القديمة إلا حين نراها طابت !!

خانهُ الجرح القديم في المتوسط حين فقد وعيه وبقيت يسر على ذراعيها تحمله حتى انتشلتهم السلطات الإيطالية وها هو في الليلة الخامسة لهربهم يشعر بإصابته القديمة تشحذ قواها لشن غارة ألم جديدة..

أعيام الهرب !!

رغم النقود التي منحها لها المحقق لم يجد في أي فندق كبير، أو صغير على الجزيرة من يقبل استضافتهم..

لا أحد فيهما يملك إثباتاً لهويته، أخذوا من جميع الناجين تحقيقات شخصياتهم وجوازات سفرهم المبللة بماء البحر المتوسط، كان عزيز يضع جواز سفره في عدة أكياس من البلاستيك مع بعض الصور حول جسده، عند التحقيق معه منحه الرجل الصور ورفض منحه جواز سفره..

أربع ليال نامت فيها يُسر على كتفه، أو ساقه في محطات حافلات البلدة، أو على مقاعد الشواطئ في الظهيرة، أربع ليال كلما أخبرته فيها أن يبحسأ عن ركن مترو، أو حتى حظيرة مظلمة تنام فيها يكرر عليها أن أفضل مكان تختبئ فيه من القانون هو "قسم الشرطة" نفسه..

في النور لا أحد يبحث عنك، أو يفتش وجهك، في الظلام فقط يحشدون حشود الفضول والتشفي والدناءة بحثاً عنك..

أربع ليال بعد انقضائها كان يجوب محلات الجزيرة ومطاعمها بحثاً عن عمل..

لا يمانعون في إلحاقه بالعمل إن كان بقاؤه غير قانوني، بل على العكس يرحبون بذلك لأنهم في هذه الحالة يمنحونه أقل من ربع ما يأخذه نظيره الإيطالي، أو من له إقامة قانونية لكن لا أحد أبداً يسمح له بدخول مكان عمله وإن كان نظير طعامه ونومه إن كان بلا هوية، ما منحه الرجل لهما من نقود يكاد ينفد..

بالكاد يشتري لها شطيرة خبز وقينة ماء، يجب أن يفعل شيئاً حتى يمر أسبوع على هروبهما ويتمكنان من البحث عن المقهى الكبير واللجوء إلى مالكه..

حادثة هي يُسر رغم ارتعاد أوصالها جميعاً..

تتظاهر بالمرح ويعلم أنها تكاد تسقط من الألم والإعياء..

ما كان يريد أبداً أن يحمل مسئوليتها لكن كيف يتخلى عنها وهو يراها تتعلق به كالأطفال..

يذبحه أن تمسك بملايسه بأصابعها وهي نائمة كأنها تخشى أن يهرب منها..

ربما تشعر أنه لا يجيد شيئاً إلا الهرب!!

أغمض عينيه في ألم وهو ينظر إلى وجهها النائم على ساقه على أحد مقاعد الحافلات ثم مر بأصابعه على جبهتها..

لو اجتمع سكان الأرض جميعًا وأقسموا له أنه يومًا يترك أنثى تنام على ساقه بعد ما حدث لابتسم من غبائهم..

ربما لأنها طفلة!!

لا.. ليست طفلة!! هي امرأة صغيرة شابة ركبت البحر والمجهول؛ لأنها اختارت حرمتها ورسم مصيرها..

أسوأ ما فيها أنها تبتعه وأسوأ ما فيه شعوره بأنه بدأ يحبها..

أشاح بوجهه بعيدًا عن التحديق فيها..

لن يسمح أبدًا لنفسه بقتل امرأة أخرى..

يطمئن عليها ويرحل، عهد يكرره على نفسه كل ليلة..

شعر بها تجذبه بأصابعها المعلقة في قميصه وهي تحاول أن تستدير في نومها..

كانها سمعت ما يقوله لنفسه وكأنه بحرارة أنفاسه أيقظها..

فتحت عينها كأنها شعرت بأنها تكاد تسقط عن المقعد المعدني وهمست:

.. غفوت على قدمك من جديد..

حاولت أن تنهض عن مكانها، وأعادها بذراعيه حيث كانت وهو يقول:

- لا تخشي شيئاً، أكملني نومك، أستطيع النوم وأنا جالس وإن لم أستطع أنام في الظهيرة على الشاطئ، نامي أرجوك..
لِمَ يحنُّ عليها إلى هذا الحد؟! وَلِمَ تتعلق به كل ليلة أكثر من سابقتها..

أهو الحنان؟! أم هو الاحتياج أم أنه الحب؟!
وما الحب إن لم يكن حناناً واحتياجاً وأماناً!!
في خفة نهضت عن مكانها واستدارت تحضر الكيس الصغير الذي كان راقداً خلفها..

أخرجت منه الشطيرة التي اشتروها معاً وقامت بقطعها جزئين غير عابئة به وهو يصيح:
- لا شهية لي، تناولوها وحدك..

ابتسمت تنظر في عينيه البنية العميقة، وقالت:
- ألا تمل من قولها؟! ألا تصدق أنني لن أبتلع لقمة إن لم يكن في فمك نصفها..

عشر دقائق ويأتي الباص، ككل سائق سينظر إليهم كأنه يتوقع صعودهم وينظرون إليه كأنهم يرجونه الرحيل!!

الجزيرة كبيرة رائعة وشواطئها ساحرة.. لكن هم دائماً من خوفهم يتفضون، لا يدخلون حمامات محل واحد أكثر من مرة، لا يجلسون

على مقاعد شاطئ واحد أكثر من مرة، حتى محطات انتظار الباصات يحاولون دومًا ألا تتكرر حتى لا يعرفون وجوههم، أو يثيرون فضولهم. حين انتهوا من ابتلاع اللقمة الأخيرة ظهر الباص وكالعادة نظر السائق إليهم وقبل أن يمضي وقفت في جنون وتقدمت نحوه وهو يتبعها في ذهول وسمعها في إنجليزيتها الطليقة تتحدث إلى السائق.

أخبرته أنها خائفة وأنها تريد أن تركب الباص مع صديقها دورة كاملة وابتسم السائق يخبرها أن هذا يستغرق ساعتين، نظرت إليه وهي تمسك بذراع عزيز الذي يحاول جاهدًا أن يجذبها دون أن يشعر السائق، وقالت:

- لا نملك مالاً؟! هل بإمكانك أن تأخذنا وتعيدنا دون أن ندفع شيئاً؟!

نظر السائق طويلاً إلى وجهها وعاد ينظر إلى وجه رفيقها لحظات أخرى ثم أشار بأصابعه إليهم بالصعود في صمت.. الفراشة الرقيقة جذبت في قوة إلى سلالم الباص دون أن يستطيع مقاومتها..

كانت تردد كلمات شكر كثيرة ما رد عليها السائق بكلمة..
رآه عزيز في المرأة يرقبهما وهما يجلسان متجاورين على أحد المقاعد بجوار النافذة..

ظن أنها تنام بعد أن يتحرك الباص، بل ظن نفسه يسقط في النوم لكن فتح كلاهما عينيهِ يرقب شوارع الجزيرة التي ما استطاعا الوصول

إليها على قدميهما طوال الأيام الأربعة الماضية، شوارع جميلة واسعة وميادين خضراء مزهرة، المدينة بعيدة عن منطقة الشواطئ التي بقيا فيها، بل هي حقاً تختلف..

صاحت تحادث سائق الباص المخاوي وسألته:

- أين هو مقهى البلدة الكبير؟!

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة قائلاً:

- في المحطة الثالثة القادمة آنستي يقع أكبر مقهى للبلدة، هو في أكثر مناطقها ازدهاراً، أما قلت أنكم تريدون العودة إلى حيث كنتم؟! تبادلت وعزيز نظرة طويلة كأنهما أجريا فيها اتفاقاً، وقال دون وعي وهو يضع ذراعه حول كتفها:

- أرجوك أخبرنا حين الوصول إليه، سنهبط بالقرب منه..

وضعت رأسها على كتفه، وقالت:

- نعم.. يجب أن نكون بالقرب منه، لا أظننا نحتمل انتظار أسبوع..
ذاك الهدوء الذي كانا فيه على أطراف الجزيرة ما عاد له أثر حين وصلا إلى ميدان "لامبادوزا"..

محال صغيرة كثيرة متناثرة ومفتوحة حول الميدان وشوارع صغيرة كأنها أزقة مضيئة ومشاة كثيرون يتجولون هنا وهناك..

تتهد عزيز، كيف ظن لغبائه أن الجزيرة تقتصر فقط على تلك الشواطئ وتلك الشوارع والفنادق، كأنها الإسكندرية، بل كأنها "محطة الرمل"، أو "ميدان العتبة" لكن بألوان ورائحة أكثر نظافة وتناغم..

حين وقف الباص واقتربا من سلالمه وقف يخبر السائق أن معهما نقود قليلة بإمكانه أن يمنحه بعضاً منها وابتسم الأخير يقول:

- أبرمنا اتفاقاً وعار أن يرجع أحدهنا فيه..

كونا حذرين!! في هذه الميادين يكثر اللصوص وأيضاً يكثر رجال الشرطة!!



لم يكن المقهى كبيرًا لكن كان اسمه "المقهى الكبير" ..

هو أقدم مقهى في قلب الجزيرة يطل على الميدان الكبير المزدهم من واجهته الأمامية حيث يقع البار الذي لا يغلق أبوابه أبدًا والمطعم الراقى الكبير في الخلف يطل على أكبر متزّه في الجزيرة ووحده يغلق أبوابه في الواحدة صباحًا ..

حين دخل الهاريان وسألًا عن صاحب المقهى قادهما أخذ السقا إلى الخلف حيث شهقت يُسر وهي ترى كم هو أنيق المطعم الخلفي، لم تستطع أبدًا رغم إعيائها الشديد ألا تقف وتنظر إلى الجالسين على طاولاتهم والموسيقى الهادئة تناسب في جنبات المطعم ..

المقاعد كلها مكسوة باللون الأبيض كستائر المطعم وطاولاته وبقاات الزهر الكبيرة في أركانه ..

على كل طاولة صحون من أطقم "زاركاوزا" الغالية أيضًا، هناك قطعة صغيرة من الفضة مرشوق عليها بعض من زهر المشمش المنمنم تتلألأ ألوانه على تآرجح شمعة من نفس اللون ..

حين اتسعت عيناها على ملابس النساء والرجال شعرت أنها تكاد عن وعيها تغيب ..

استدارت تنظر إلى عزيز، وقالت مبهورة:

- لا يمكن أن يكون هذا مطعم عادي!!

انهمس بمسك بذراعها ويقودها إلى الساقى الذي كان يقف على حافة سلالم ضيقة ناظرًا إليهما في ضيق لوقوفهما بباب المطعم، أرخت غنيهاً وخطت نحوه تتمم بكلمات اعتذار كثيرة..

كانت الدرجات المصنوعة من الخشب ضيقة لكنها أنيقة وهبطوا عليها ليصلوا إلى الدور الذي يقع أسفل الدور الأرضي ووفقا على باب غرفة دخل الساقى وحده إليها ثم فتح لهما الباب بعدها بلحظات ليدخلا..

كلاهما شهق حين دخلا إلى المكتب الواسع الكبير وعلى المكتب كانت تجلس سيدة اليتيمى ومالكته..

لم تكن أبدًا بشوشة ولا أشارت لأحدهما بالجلوس..

رفعت رأسها ونظرت إليهما نظرة طويلة متفحصة، ثم قالت بالإنجليزية:

- أخبرني ألتر عنكما..

لم تمنح أحدهما فرصة للحديث، بل نهضت عن مقعدها بعد أن فتحت أحد أدراج مكتبها والتقطت مفتاحاً وضعت في جيب الجاكت الذي ترتديه وخطت نحو باب الغرفة وأمرتهما باتباعها..

السيدة جميلة أنيقة، شعرها المصفف في عناية يفسر أناقة المطعم الذي حبس أنفاس يسر..

قادتني في هدوء إلى سلالم أخرى أخذتهما إلى الدور الثاني تحت الأرض وفتحت لهما باب غرفة متوسطة الحجم بها سريرين معدنيين وخزانة ملابس خشبية تفصل بينهما واستدارت تقول:

- تمامان هنا وحين يأتي تفتيش على موظفي المقهى أعلمكما وتأثيا هنا حيث لا يصل أحد..

اقتربت من عزيز وأطالبت النظر إلى وجهه وابتسمت ابتسامة صغيرة ساخرة ثم قالت:

- أعلم أنك ستبحث عن فريسة إيطالية تتزوجها، إياك أن تفعل داخل هذا المبنى، أو مع أحد رواده..

استدارت نحو يسر التي غاب وجهها في غيمة من الخوف والألم لتقول:

- لك أيضًا نفس الرسالة أيتها الجميلة!!

حاول أن يتحدث لكنها قاطعته قائلة:

- كل منكما سيعمل ثماني ساعات، أنت تفرغ حمولات سيارات الفاخرة واللحوم التي تأتي بعد الواحدة، وستجد من يخبرك ماذا تصنع، أما أنت..

نظرت يسر إليها في ذهول تسمعها تكمل:

- تعملين من منتصف الليل أيضًا وحتى الثامنة صباحًا في المطعم الذي وقفت ببابه، نظافته عليك مع آخرين، كلاكما ينتهي عمله في الثامنة وبعدها لا أرى وجرتكما.. لهذه الغرفة باب يقود إلى الأعلى، لكما ثلاث وجبات من المطعم وأجرة، تنامان هنا لمدة شهرين وبعدها لنا لقاء آخر نتحدث فيه من جديد..

قبل أن تخرج من الغرفة أشارت بيدها تقول:

- في الردهة الخارجية حمام. لا يعمل عندي أحد إلا ورائحته تفوح نظافة، أتكفل بالماء والصابون..
قاطعها عزيز هذه المرة قائلاً:

- لا ملابس لدينا، هل بالإمكان أن تمنحينا بعضًا من أحرنا..
قاطعت السيدة تقول:

- في الخزانة ملابس اشتريتها لكما خصيصًا.
بنظرة ثاقبة هادئة نظرت إلى يسر، وقالت:

- أرجو ألا تمارسا الجنس هنا وإلا رميت بكما إلى حيث أتيتما!!
انفضت عروق يسر خجلاً وألماً، وقال عزيز كأنه يشن:
- هي أختي!!

في سخرية ودون تفكير قالت:

- العرب والكذب!!

صاح كأنه يبكي قائلاً:

- أعني أنها في مكانة أختي..

مضت السيدة نحو الباب تقول:

- لا يعنيني ما تعنيه، ما يعنيني أن تفهم ما أنا حيت !!

أراكما في منتصف الليل، وبعد لحظات تأتیکما وجبة اليوم؛ لن
تأخذها إلا بعد أن تتحمما وتغسلا ملبسكما..

قبل أن تمضي سمعت السيدة صوت الشابة يقول:

- بماذا ناديك؟!

بعد نظرة أخرى أكثر جمودًا وقسوة، قالت:

- أنسيدة بوسکیمی !! اسمي هو "إليزابيتا" نكن لك الحق أبدًا

في مناداتي به، هل أرضيت فضولك يسر؟!

لم تنتظر منها كلمة، بل خرجت وأغلقت خلفها الباب ليتبادل كلا

الحائزين نظرة طويلة تقطر حيرة وألم!!

لا تعلم كم أنت متعب إلا حين ترى أمامك فراشاً نظيفاً ووسادة ناعمة غابت عنك زمناً!!

ما إن أنهى كلاهما حمامه، وارتديا ما أحضرته السيدة من ملابس ولقيمات الطعام حتى أصبحت عيناها معاً لا تبرحان الأسرة المعدنية لكن شيئاً في صدر كل منهما يمنعه عن الركض إليها..
في هدوء تنهد عزيز قائلاً:

- نمنا معاً على المركب، وغفوت أياماً على ساقبي، وسقطت على كتفك.. لماذا نخشى النوم هنا على سريرين متباعدين؟!
في حيرة كبيرة رفعت رأسها تنظر إليه وأرخت عينيها دون كلمة واحدة لينهض عن مكانه قائلاً في كل ما استطاع سكره من مرح على صوته:

- هل تذكرين ما كان أحمد مظهر يفعله وسعاد حسني في ذاك الفيلم حين اضطرتهما الظروف للنوم في غرفة واحدة؟!

كانت ترقبه في هدوء وهو يفتح الدولاب الموجود ليخرج ملاء نظيفة ليقوم بوضعها كساتر يفصل سريرها عن سريرته، وأخذ يبحث عن مسمار يثبت به ما يحمله في يده..

لم تحرك ساكنًا، بل أخذت ترقبه وعلى وجهها ابتسامة نقية، وقالت:
- تقتلك السيدة بوسكيمي إن دقت مسمارًا وأقتل نفسي إن كانت
قطعة من القماش هي ما تحميني منك.

حين سمع كلماتها تلك ارتخت يده وسقط منها ما تحمله واقترب
نيجلس أسفل قدميها ونظر إلى وجهها طويلاً ومن خلف دمعة صغيرة
ترقرقت في عينه قال:

- يقول أبو بكر الصديق: "اللهم اغفر لي ما لا يعلمون واجعلني
خيرًا مما يظنون".

في أنم شديد حاول أن يكمل قائلاً:

- لست أبدًا كما تظنين، أنا..

أسرعت تضع أصابعها على شفتيه، تقول:

- لا تقل شيئًا.. فلننس ما فعلوه بنا هناك، وما جعلونا نفعله بهم
وبأنفسنا، لا تقل شيئًا أرجوك.

نهض، وقال مبتسمًا:

- نعم فلننس.. لكن أريد فقط أن أتذكر اسم الفيلم..

ألقت بجسدها على سريرها الممدد،ني وأحكمت حولها الغطاء،
وفي لحظة أغلقت عينيها وقبل أن تسقط في النوم ضحكت قائلة:
- "ليلة الزفاف"!!



أمام كل أمر تصدره قدرية تصدر هي أمراً له ذات الصلف والغباء..
حين ألقت بملمقتها في صحن الطعام، ونظرت إلى وجهه في حدة
تخبره أن مرور ستة شهور دون إنجاب هو أمر يجب أن يتخذ بشأنه أمر،
وأنه من الضروري أن يجرباً فحوصاً طبية أخبرته زوجته في المساء أنها
ستجري الفحوص في القاهرة، ولن تقيم إلا في شقة الغندور الراحل..
شعر أنها تفعل ذلك لتؤلمه فهي تعلم أن يسر ما زالت تضرب تحت
جفنيه بفأس غيابها وأن حضوره إلى بيتها يزيد من سوء الأمر ووحشية
الألم لكنها ما تراجعت عن قرارها ولا قبلت رجاءه..

لا يستطيع أن يقسو عليها كما يفعل أبوه، بداخل فريد شعور عميق
بالذنب تجاهها، ليس تعبث بجسده يأخذها وإن كان كارهاً للدنيا
بأكملها لا لممارسة الحب فحسب، حين تطلب مبالغ كبيرة يعلم أنها
تمنحها لوالديها لا يعارض حتى باتت تظنه ضعفاً ويراه هو تعويضاً!!
أي تعويض ذلك الذي يكفي حباً إن ضاع وقصة إن ماتت، ضاع
حب طفولتهم وماتت قصتهم تلك ؛ لأنها ما خرجت من أرواحهم، بل
فرضت عليها بيد قدرية فرضاً!!

وما هو يقف أمام باب البيت الذي دخله مع يسر قبل اختفائها ذات يوم لكنه يقف بيد ترتجف لا يعلم كيف يشتها على ثقب المفتاح دون أن تلاحظ خديجة ارتعاشتها وارتعاشة القلب بين الضلوع..

في هدوء وفي ابتسامة باردة متشفية وضعت كفها على يده والتقطت المفتاح وأدارته ليدخلا في هدوء وما أن وضعا حقيبتهما على الأرض وجلسا على أول مقعد وجداها حتى قال كأنه ما زال يرجوها:

- لا شيء يرغمنا على المبيت في بيت مهجور وأثاثه مدفون تحت التراب، هي فرصة للنزول في أحد الفنادق الكبرى.

باستهزاء لا تخطئه عين نظرت إليه ودارت بعينيها في البيت ثم نهضت دون كلمة تتجول في الغرف المغلقة..

وقفت عيناه على المكان الذي انهارت فيه ابنة عمه وسقطت على كتفيه، هل يشاقها أم هو كبرياؤه الجريح الذي يتمنى عودتها ولو يومًا واحدًا يصفعها فيه صفة كالتي طالت روحه وأجهزت عليها؟!!

هل حقًا يشتها أم هو غروره الذي يتمنى لو يضاجعها مرة واحدة ثم يخبرها أن خديجة أشهى منها ويصق على جدها وفيه ثم يمضي!!
ما عاد يعلم سوى أن نازًا اسمها يسر تشتعل في عروق رجولته ولا يطفئها سوى أن تعود ولو ليلة يثار فيها منها ويهدأ، بل ربما عاد بعدها يشعر بزوجته وحبها من جديد..

كان صدره يتهدج وهو ينظر في الفراغ حيث كانا معًا بقفان، وأعادت خديجة نداءها أكثر من مرة قبل أن يتفرض ويتبعها إلى حيث قادته نحو غرفة حين دخلها استدارت نحوه لتقول:

- ننام هنا ونضمني إليك بعيدًا عن عمتي وعن أيك.. أريد أن أنام على صدرك هنا قبل الذهاب إلى الطبيب وقبل أن أسمع شيئًا يكسرني أمامك..

لم يعلم كيف يهرب من عينيها، لا يريد أن أبدًا أن ترى ألسنة اللهب التي اشتعلت في صدره، هي غرفة يسر وهو فراشها.

زوجته تريد ذبحه، وإن كان الثمن مرور السكين على صدرها هي أولاً، بكل ما استطاعه من قوة جذبها إلى صدره، وهمس قائلاً:

- لا شيء يكسرك.. أيا كان ضعفك ستبقىين دومًا أقوى من الشظايا التي تقف أمامك!!



كان يرقبها في سكون، وهي تقف على طرف البحيرة تُخرج من كيسها الصغير الذي أحضرته معها دوائر الخبز الصغيرة التي تجمعها طوال الأسبوع من بقايا خبز المطعم، وتكورها كرات صغيرة لتحملها يوم إجازتهم الأسبوعية وتقف لتلقي منها على بط البحيرة الملون..

اليوم وبعد أربعة أشهر من حضورهم الأسبوعي رأى البط الصغير يتجمع تحت قدميها قبل حتى أن تخرج كيس الخبز من جيب ثوبها.. أصبح البط يحبها وينتظرها ويشتم رائحتها لا رائحة الخبز، ستة أشهر كاملة ينامان في غرفة واحدة ويستخدمان حمامًا واحدًا ولم يجمعا قرشًا واحدًا..

ما تمنحهم إياه السيدة من أجره أقل من أن يدخر منه شيئًا، بالكاد يتناولان به طعامهما يوم الإجازة حيث لا وجبات لهم في يوم لا يعملان فيه، وإن كان عطلة، تلك كانت قرارات بوسكيبي..

بدأ عزيز في الانهيار، جرحه القديم بدأ يتمرد، لم تعد ساقاه تحتل حملات الخضار والفاكهة التي يقف كل يوم ينقلها من وإلى المطعم والمقهى..

حين يأتي الصباح وينتهي عمله يرتمي على فراشه متسنيًا لو يصرخ من ألم ساقه، ما يقارب الستة أشهر وهو يكتنم ألمه وصيحاته رفقا

بهذه الفتاة، لكن هذا الصباح شعر أن الأمر يقلت من يديه، حين أيقظته للخروج إلى نزهتهم الأسبوعية شعر أن ساقيه ثقيلتان لا يستطيع الهبوط بهما عن فراشه، تلكاً كثيراً وتذرع بأعذار كثيرة حتى، شعر بها حزينه بعد أن طلب منها الخروج وحدها لتتركه في الفراش..

لم تعترض، رآها فقط تخرج كيس الخبز من جيبها وتقول:
- أنا أيضاً لن أخرج، في المساء نذهب لتأكل شيئاً، أو أذهب وحدي لشراء بعض الفاكهة..

حتى ساقيه المصابة لم تحتمل حزنهما، تحركتا في ألم ونهض عليهما يخبرها أنه كان فقط يريد استثارة غضبها لا أكثر.

كل خطوة سارها إلى جوارها كانت تؤلمه، حين وصلا إلى البحيرة القريبة من المقهى ارتقى على هذا المقعد متظاهراً بعدها بالنوم، وحين نهضت فتح عينيه من خلف ظهرها يرقب تظاهرة الحب الكبرى التي أقامها حولها البط وأفراخه.

نعم يحبها، لكنه حب من نوع آخر ليس أبداً كذاك الحب..

في سخرية مريرة ابتسم يهز رأسه يسأل نفسه: هل الحب أنواع؟
أحمق من يقولها!!

الحب واحد، طرق التعبير عنه هي التي تختلف، هناك حب نعبر عنه بالكلمات والنظرات والسكون والأشعار يُطلق عليه «حب عذري» وهناك حب نعبر عنه كل أعضائنا ليكون حباً «مكتملاً»، أو «مجنوناً»، هناك حب نريد به أن نغلق عيون من نحبه عن الأرض والسماء فلا يرى

سوانا ليصبح «سيطرة وتملكتا» وهناك حب لكثرة ما يمنح وفي يسقط
إن رميناه بزهرة!!

لا فرق.. في الحب أنت إما عاشق، أو مخادع!!

يحبها لكنه يكتم شفاه الحب ويوثق عنها ذراعيه ليس خوفاً عليها
لكن خجلاً من الحب ومن نفسه!!

يعلم أنها تفتنى هي الأخرى كل يوم في تلميع أدوات المطعم
وغسيل صحونه، لن ينسى أبداً كيف رآها تبكي منذ أيام وهي تتحسس
أصابعها المتورمة من مساحيق التنظيف والتلميع..

رفع عينيه الغائبة في الدمع ينظر إليها وهي ما زالت على البحيرة
تقف وحولها تجمعات البط..

سكين حادة تشق ركبتيه وسيف أكثر شراسة يشق صدره وبشطر
عروقه..

كلاهما ضعيف والحب الذي بدأ يتأجج في صدريهما هو الضعف
الأكبر الذي لا أحد فيهما يحتمل وجوده.. الحياة على أرض الغرب
تلفظ الضعف والضعفاء!!

منى تتدير وتعود إلى المقعد الذي يجلس عليه عزيز؟!
أكثر من ساعة وهي تتظاهر بإطعام البط وأفراخه وتعجز عن
الإستدارة إليه..

تخشى أن يكون مستيقظاً ويرى هذا الدمع الذي لا تعرف كيف
تسيطر عليه، أو ترقفه!!

تعبت، بل تشعر أنها تكاد تموت من الألم، السنة عالية من اللهب
تسكن أصابعها وكفيها، جربت ارتداء القفازات الخفيفة لكن ما زال
كفاها يؤلمانها، أخبرها أحد رفقاء العمل أنها بحاجة إلى طيب،
الطيب بحاجة إلى نقود، لا نقود لدى أحد منهما، بالكاد تكفيهما
أجرتهما للخروج وشراء بعض قطع الحلوى التي يشتهونها..

تعبت يسر من الألم والأكثر ألماً من الألم ذاته هو أن تمنع نفسك
عن التعبير عنه..

لو أنها فقط تستطيع الصراخ والبكاء لربما ارتاحت قليلاً!

جابا كل المحال والمطاعم بحثاً عن عمل بأجرة أكبر..

الجميع يمنح قروشاً قليلة لعمال «العمل الأسود».

أصبح هذا العناء والموت اسمه عملاً أسود في عرف البلاد؛ لأنه من أشخاص غير معترف بدخولهم البلاد.

تعبت وما عادت تحتمل، تزداد ضعفاً كل يوم إلا حين تعود إلى غرفتها وتجده غارقاً في الإنهاك والألم، عندها فقط تجد ابتسامة ترسم وحدها على وجهها وتتقدم نحوه وتطلق بعضاً من قصص ونكات لا تستمر سوى دقائق أصبح عزيز يغيب بعدها في النوم..

أحياناً تشعر به يتظاهر بالنوم ليستدير عنها بظهره ويبكي هو الآخر في صمت!!

ألفت بحبات الخبز الصغير المتبقية في كفيها واستدارت في جنون بكل دمعاتها وكل خطوط الألم المرسومة على ملامحها لتراه على المقعد بعض على شفتيه ودمعات أخرى تتسلل على وجته..

تشتهي لو يضمها، تشتهي لو يأخذها عزيز بين ذراعيه القويتين ويسحقها حتى تصبح ذرات من التراب تتطاير ثم تسكن أسفل قدميه لكنه لا يفعل!!

لم ينهض عن مقعده ولم تتقدم نحوه، بل دارت حول نفسها دورة كاملة ورقصت كما لم ترقص يوماً قط..

كل زوار المتنزه وقفوا يرقبونها في ذهول!!

كانت تطير في الهواء وتسقط على أطراف أصابع قدم واحدة ثم تشتهي حتى تلمس أصابع قدميها وتنهض من جديد لتدور دورات

سريعة كاملة وترفع ذراعيها لتفتح إحداهما في زاوية قائمة وترخي رأسها عليه..

كان واضحاً أنها تبكي وتحترق واختارت الرقص تعبيراً عن البكاء والاحتراق!!

لحظات طويلة تهدج فيها صدرها واضطربت أنفاسها حتى انتهت رقصتها وسكنت حرائقها وصفق كل من تجمع حولها من زوار المتزه وتقدم أحد الأطفال يمنحها زهرة بيضاء جميلة أمسكت بها بين يديها وهي تنظر إلى عزيز الذي بقي على مقعده يصفق لها ولا يبالي بوجه غسلة الدمع..

تقدمت نحوه ومدت يدها إليه بالزهرة وحاول أن ينهض ليأخذها إلى صدره لكنه سقط على المقعد وأطلق صرخة صغيرة من الألم. ساقاه خذلاه!!

اتسعت عيناها في خوف وهي تضمه إلى صدرها تسأله ما به.. كان يهددها ويطمئنها ويكتم صيحات ألم لو أطلقها لاهتز المتزه ومات ببطء البحيرة خوفاً واهللاً!!

بعد لحظات قال في ألم:

- أتمكز عليك حتى نصل إلى المطعم، لا أظني أستطيع الحراك وحدي ولا أظني على حمل الصناديق بت أستطيع!!



بعد طرقات صغيرة متوالية فتحت وحدها الباب دون حتى أن تسمع
إذناً بالدخول، كانت كل قطعة في جسدها ترتجف مع تساقط دمعاتها
وانتفاضة ملامحها..

حين وقفت أمام مكتبها وحين رأت السيدة ترفع حاجبها وتنظر لها
في غضب واستنكار كبير قالت:

- اعتذر سيدة بوسكيبي لكن عزيز بحاجة إلى طبيب، أنا لا أعلم
ماذا أفعل، هو محموم وبالكاد ويمساعدة أحد المارة وصلت به إلى
المقهى، أرجوك ساعديني، هو عن الوعي غائب.

بقيت لحظات ترمقها في غضب، ثم ودونما اكتراث ألقت ببعض
الأوراق على سطح مكتبها ونظرت إليها من جديد تقول:

- هل أنت على استعداد لمواجهة ما قد يحدث إن أنا استدعيت له
سيارة إسعاف تنقله إلى المستشفى؟! قد يطلبون أوراقه وحين يعلمون
ألا أوراق لديه يعالجهونه ولكن حين يتم شفاؤه يتم أيضاً ترحيله، هل
أنت حقاً على الحياة بدونه قادرة أيتها العاشقة الصغيرة؟!

دون تفكير وفي هستيريا بكائها قالت دون تردد:

- فليفعلوا ما شاءوا فقط لا أريده أن يموت.

اقتربت من خلف المكتب نحوها وهي تكمل:

- كل من أحبتهم ماتوا، ما فائدة أن يموت إلى جوارى، أريده أن يحيا وإن كان.

قاطعتها بوسكي في حدة قائلة:

- عودي إلى مكانك ولا تقتربي مني أبداً حين تحدثيني، إن كنت لرحيله لا تبالين فأنا قانوناً أجازى لتستري عليه والحاقه بالعمل عندي، حذيه واخرجني به إلى أقرب مستشفى لكن إياك والعودة هنا..

عادت إلى حيث كانت تقف في ذهول، وعادت تخبرها أنها عجزت عن السير به وهو في وعيه فكيف تخرج به وهو عن الوعي غائب؟! في كل ألم الأرض وتذللها طلبت منها أن تحضر له طيباً وأجابتها الأخرى بذات الهدوء:

- هو الحل الوحيد لكن هل تملكين أجرة انتقال طيب إلى هنا؟!

كتماثيل الرخام الكبيرة المتشرة في ميادين الجزيرة وقفت يسر لحظات وحين صرخت فيها بوسكي تأمرها بالعودة إلى حيث كانت نظرت إليها، وقالت:

- أملك أجرة الطيب، إليك بهذا..

في هدوء مدت أصابعها المرتعشة تخلع قرط أمها من أذنيها ومدت به كفها تقول:

- هو من الذهب والماس، هو آخر ما منحه لي أمي وأنا طفلة قبل رحيلها، بيعه وإن لم يكف ثمنه أعمل لديك ما بقي من عمري، أعمل ورديتين، أو أغلقني باب الغرفة خلفي واحتفظني بالمفتاح حتى أرد لك الباقي، أرجوك سيدة بوسكيمي أرجوك!!

أشاحت السيدة بوجهها لحظات ثم استدارت تقول:

- ضعيه على المكتب واذهبي، سأحدث الطبيب!!

في طريقها إلى الباب سمعتها تناديه قائلة:

- إن قال الطبيب إنه يموت سأطلب من عمال المقهى إلقاءه بالقرب من باب أقرب مستشفى، أما إن كان مرضاً قابلاً للشفاء تذهبين إلى عملي في موعده وتنقطع أجرته حتى يعود إلى العمل، هل تفهمين؟! في سكون هزت رأسها وركضت خارج الغرفة نحو عزيز، كانت تشعر أنها تركت آخر ما بقي من روحها ملقى على مكتب بوسكيمي، قرط أمها كان آخر نزع في روحها، ليت لا يموت علها تسترد الروح، وإن ضاع القرط وغابت الأم!!



سقط الصحن من يدها مرتين وفي كل مرة كان قلبها ينخلع من خلف ضلوعها خشية أن يُكسر، بعد أن التقطته في المرة الثانية مسحت بمرفقها قطرات العرق الغزيرة التي تصببت من جبهتها، شعرت بعدها بكف زميلتها تلتقطه من أصابعها ويدها الأخرى مسحبت أحد مقاعد المطعم وطلبت منها الجلوس قائلة:

- اجلسي لن يراك أحد، اهتمي بالمعائق والسكاكين، سأهتم أنا بأمر الصحن، أنت مرهقة ولن تستطيعي، إن كُسر الصحن لن تكفي أجرة الأسبوع القادم بأكملها لداد ثمنه، اجلسي ولا تخافي.

رمت بجسدها على المقعد في نهالك واضح، عيناها متورمتان وجسدها تخور قواه..

أسبوع كامل منذ سقوط عزيز وحضور الطبيب ليعلن أنه يعاني من حمى قد تقتله ولا يعرف لها سبباً..

لا تنسى أبداً تلك اللحظة التي حققه فيها بخافض للحرارة وطلب منها أن تخلع عنه ملابسه الثقيلة..

صاح الطبيب وهي تسدل عليه الغطاء ممسكاً بيدها لتنظر حيث نظر وهو يتحسس ركبتيه يقول «ما هذا بحق السماء؟!»

كان على ركبتى عزيز آثار خياطة لجرح كبير يبدو أنه بقايا عملية جراحية أجريت فيهما، اقتربت منه وتحسست آثار الخياطة وزاد نحبيها وهي تخبر الطيب عن الأثقال التي يحملها في عمله من صناديق الخضر والفاكهة وكراتين اللحوم والدواجن ومخلفات المطعم..

أسبوع وهي تركز إلى صالة المطعم لتقوم بعملها الشاق فيه وتركض في الصباح إلى الغرفة لتمرّض عزيز ومنحه الدواء وكما دات المياه الباردة كما أمرها الطيب..

أسبوع تنام فيه وتصحو وهي تجلس على حافة فراشه بينما يغيب في هذيانه ويعود ليفتح عينيه ويجدها تمسك بكفه، أو تنثني على جبهته بمناشف كماداتها الباردة.

كلما غلبها البكاء أمسكت بكفه وغنت «يا عزيز عيني».. تغني وتغفو لتصحو وهي تردد اسمه في رجاء وخوف..

أسبوع تورم فيه جفناها حتى أخبرها الطيب في إحدى زيارته أنها من الإعياء الواضح عليها قد تقط إلى جواره.

أخبرها الطيب أنه توسل إلى السيدة بوسكي مي لتمنحها إجازة يومين لكن الأخيرة رفضت..

لا شيء يهم، بالأمس بدأ عزيز في التحسن، انخفضت الحرارة وذهب وحده إلى حمام الغرفة دون مساعدتها.. غداً إجازتها الأسبوعية، ستخرج في الصباح بعد انتهاء عملها لشراء بعض الفطائر

والعصير وتعود للنوم، بل ربما لا تحتاج النوم إن كان يستطيع الخروج،
منصطحبه إلى البحيرة القريبة، لم تنس رغم كل شيء كرات الخبز،
تريد أن تأخذه في موعدهم إلى البحيرة كأن هذا الأسبوع الأسود ما
كان.

حين أنهت تلميع جميع أدوات المائدة تحاملت على ساقبها
ونفضت تذهب إلى رفيقتها تخبرها أنها أفضل حالاً وستكمل معها
شيف الصحون وإعادة توزيعها على الموائد، قالت في امتنان:
- أنا بخير، اللحظات التي قضيتها جالسة جعلتني أفضل، أريد
العودة إلى عزيزي..

سألها الأخرى في حنان:

- أما قلت إنه تماثل للشفاء؟!

ابتسمت في ألم تقول:

- لهذا أريد العودة إليه، هو يوم إجازتي، إن كان يستطيع اصطحابه
إلى البحيرة.

وابتسمت الأخرى قائلة:

- ظننتك تنامين!!

في حنان رغم الإجهاد أجابت:

- ننام لترتاح، راحتي في إطعام البط وصحبته، أريد أن أراه يخطو
على قدميه..

دون وعي منها تحسست أذنيها الخاوية من قرطها وأكملت تقول:
- أريد أن أنسى ما حدث كأنه ما كان..

انتفضت الشتاتان معاً كأن تياراً من الكهرباء تخلل جسديهما حين
رأيا السيدة بوسكيكي تدخل إلى صالة المطعم وتقدمت نحوهم في
هدوء، وفي حدة طلبت من الجميع مغادرة الصالة إلا يسر وحدها..

حين أصبحا وحدهما انتفضت الأخيرة في خوف تسألها إن كان
خطأ ما صدر منها وأطالت السيدة النظر إلى وجهها الشاحب ثم قالت:
- كدت تموتين في تمریضه بكل تكادين!

لم تكن أبداً تحتمل الوقوف على قدميها، هي حقاً تكاد تموت من
إجهادها وتمریضه وحينما لم تجد ما تقول أرخت رأسها في سكون
لتسمع الأخرى تقول في صوت أعلى قليلاً من عادته:

- هل تعلمين ماذا فعل حين التقط أنفاسه؟!

رفعت يسر وجهها تنظر إليها في ذهول لتسمعها تقول:

- جمع أشياءه وسرق نقودك ورحل!!

كانت عينا يسر زائغتين كأنها لم تفهم ما سمعته وأعادت السيدة
كلماتها تقول:

- نعم رحل!! تعلّمي الدرس أيتها الحمقاء.

استدارت كأنها تود أن تركض إلى غرفتها وصاحت بوسكيكي

قائلة:

- ما زال على موعد انصرافك ساعة، إن خرجت الآن يُخضم منك اليوم بأكمله.

كانت تقبض على ذراعها بقوة وتنظر إلى عينيها الغائمة خلف دموعها في قسوة، وقالت:

- أما وعيتِ الدرس؟! رحل منذ ساعات، لا يستحق أبدًا أن تضحي بأجرة اليوم وعنائه من أجل البكاء على فراشه الخالي أيتها الحمقاء!!



نظرت في ألم إلى الفراش الخاوي وأغلقت باب الغرفة في سكون
وهي تحمل حقيبتها وتمضي نحو الباب الرئيسي..

كان أسبوعًا مريّرًا لكن مرار ختامه يجعل من مرارة الأرض ذاتها
شلالات شهد وسكر!!

أيهما المسكين حقًا؟ هي أم فريد؟!

لم تخبر أمها شيئًا، ولا أخبر أمه شيء، لم يتفقا حتى على شيء
يقولانه..

بالأمس وبعد أن علموا كل الحقائق وعندما غفيا على فراش تلك
الحقيرة نظر إليها في مرارة وقال «لا أظنك بعد اليوم تتلهفين للجنس
خديجة!!»

تمنت لو ترفع كفها وتصفعه ألف صفقة لكن كان على حق، منذ
تزوجا وهي تراوده كل يوم حتى إن كانت لا رغبة لها فقط لتثبت له
ولنفسها أن شبح يسر ليس بينهما وأيضًا لتحمل في أحشائها جنينًا
يتنفخ به بطنها ليرى الجميع أن من وقع في غرام ابنة عمه، وحدها ابنة
خاله تحمل منه طفلًا!!

ماتت كل الأحلام!!

نجت يـر من رجل عقيم ومقطت هي فيه!!

أسبوع من التحاليل والكشوفات المهينة لهما معاً..

أسبوع كامل من البكاء والخوف والرجاء ليعلن الطبيب بالأمس
بعد أن تجول في أكوام الأوراق التي دفعوا فيها نقوداً ودمعاً وكبرياء أن
فريد الغندور لن ينجب قط!!

«هي حالة Azo-spermia للأسف، السائل المنوي يخلو تماقاً
من الحيوانات المنوية، حتى العينة التي تم أخذها من الخصية أثبتت
أن خلايا ما قبل الحيوانات المنوية بكل أسف غير موجودة على
الإطلاق!!»

نكس الطبيب رأسه لحظات، ثم عاود النظر إلى وجوههم الباهتة
وأكمل في ألم:

- لا تحاول يا ولدي أبداً.. اقبلا بالأمر.. ليس الإنجاب خيراً في كل
الأحوال!!

نظر إلى وجهها هي بالتحديد، وأكمل يقول:

- أعرف نساء بقين سنوات يجاهدن من أجل الإنجاب، وحين حدث
ماتت الأم، أو ولدت أجنة مشوهة مريضة، الله لا يختار إلا الخير..
في كل غيظ الدنيا وجنونها نهضت عن مقعدها وقبل أن تتركه مع
زوجها قالت:

- تحدث فقط عما تعرفه، لا تتحدث أبداً عما تجهل أيها الطبيب!!

انتظرت زوجها كثيراً في السيارة حتى هبط إليها، لم يقل كلمة ولم ينبس حرفاً سوى ما قاله في فراش يسر، وفي الصباح حين فتحت عينها وجدته حزم الحقائق وأخبرها أن الأمر متروك لها إن شاءت يطلقها ويمنحها مبلغاً كبيراً من المال، وإن شاءت بقيت لكن دون كلمة واحدة يسمعها منها.

قال في كبرياء ذبيح:

- لن أسمعك يوماً تتحدثين عن عقمي، أو احتياجك للأبناء، إن قلتها أطلقك في لحظتها!! إما الرحيل وإما البقاء دون كلمة واحدة.
لا شراسة كشراسة مذبوح في كبريائه ولكن من قال إنها ليست مثله!!

هل تتركه.. هل تبقى؟!

لا تعلم.. خديجة بحاجة إلى وقت تفيق فيه من هذه الصدمة وبعدها تقرر.

أغلقت باب الغندور الراحل وهي تتمتع بلعنات كثيرة، ليتها حقاً لم تأت إلى بيتها، كان فريد على حق، ربما لو ذهب إلى فندق لما أصابتها لعنة يسر وعائلتها المسمومة!!

وهي إلى جواره في السيارة حادثت عمتها تخبرها أنهم في طريق العودة وسمعها فريد تقول في حزم:

- يحكي لك فريد التفاصيل ولكن اطمئني أكد لنا الطبيب أن كلانا بخير وأن الأمر متروك للأيام، أرجوك أن تبليغي أمي فهي لا تصدقني!!

حين أغلقت الخط امتدارت تنظر إلى زوجها لحظات ثم قالت :
- هذا ما منقول حتى نرى ما تقوله الأيام !!

هي نائرة مذبوحة كل مشاعرها مختلطة لكن اليقين يسكنها أنها لعنة
ابنة الروسية وبيتها لكن وحدها اختارت أن تدخله ووحدها من قررت
النوم على فراشها الملعون !!

عندما يصينا القدر بطعنة لا نهذاً حتى نلقي التهمة دوماً على من
نكرهم وإن كانوا وكنا نعلم أنهم أبرياء !!



لم يكن يصدق أبدًا أنه سيلجأ إليه، ما كان يصدق أبدًا أنه يطرق باب أحد ممن يعرفون قصته لكن ما تركت له سر خيارًا آخر..

مال بجسده المرهق قليلاً وأخرج تذكرة الباص الأخير الذي يصل به إلى الدانمارك ليعيدها إلى جيبه بعد أن ألقى المحصل عليه وعليها نظرة متشككة ومضى إلى بقية الركاب..

ثلاثة أيام قضاها في التنقل من بلدة إلى أخرى ومن صاحبة إلى أخرى مستعينًا بالنقود التي سرقها من سر..

رأى السيدة بوسكيمي تمنحها النقود ورآها تلقي بالمظروف الذي يحتويها على فراشها وهي تبكي في ألم..

لا بد أنها تلعنه في اللحظة ألف مرة!!

ليت ربها إلى دعائها عليه ولعناتها يستجيب، ليت هذا الباص الذي يستقله بنقودها تضربه صاعقة من السماء ويموت لكن حتى الموت هو يخشاه.. يذهب إلى الآخرة إن مات ما عساه لها يقول وكيف يفتح فيها عينه..

هرب من الموت ؛ لأنه يعلم أن اللحظة التي يغلقون فيها خلفه
القبر ويمضون تأتي إليه مها والجحيم أن ينظر إلى عينيها بعد أن خذلها
وتركها أمام عينيها تموت !!

الخوف من النظر إلى وجهها وانكسارها وحده أبقاء حيًا، وها هو
الآن يكرر شابة صغيرة على وجه الحياة ما فعلت شيئًا سوى أنها وثقت
فيه وسهرت على تمريرة حتى تورم جفناها ونحل جسدها..
سرقها ومضى !!

الهرب والتخلي أرحم من البقاء والخذلان !! ليتها تعلم، ليتها حقًا
يومًا تعلم !!

كيف يترك باب "وليد"، لماذا لم يحادثه، معه رقم هاتفه فلماذا لم
يحادثه؟! لأن عزيز ما زال خائفًا يرتعد من مواجهة من يعرفون قصته
لكن ما بقي أمامه خيار آخر !!

أن يسقط أمام صديقه القديم أفضل ألف مرة من أن يبقى إلى جوار
يسر ويرى نفسه يخذلها كما خذل زوجته.

حين يخذل رجل امرأة مثل مها فهو دون شك مع سواها يفعل وإن
كانت مثل الفراشة !!

حين غادر الباص، وتجول في شوارع "براندا" التي يقيم فيها
صديقه القديم شعر أن كل شارع فيها يشتهي رؤيتها، يشتهي خطواتها
ورقصها وغنائها..

ابتسم في مرارة ودمعة تسقط على خده لم يقاومها لكنه كان من نفسه يهزأ..

الدانمارك بأكملها لا تعرف يسر حتى تشاقها، أو تشتهيها وحده عزيز يفعل، وحده يموت شوقاً إلى فتاة صغيرة سرقها ودون كلمة هرب وتركها!!

حين أصبح أمام باب البيت، وبعد أن قرع الجرس مرات كثيرة أدرك أن صديقه غير موجود..

جائع هو وما زال مرهقاً وساقاه لم تماثلا للشفاء بعد لكن لن يفرط فيما بقي من قروش حتى يعلم موقف صديقه منه..

قد يدعى أنه لا يذكره وأيضاً لن يحزن، بل وعلى أحسن الأحوال قد يعتذر عن مساعدته فزوجته سيدة دانماركية قد تكره من يأتي من ذلك البلد الذي هرب منه..

ألقى بجسده على سلالم البيت وانزوى في ركن منها لينتظر ما سيفعله به صديقه وأغمض عينيه وهو يتمتم في ألم "سامحيني يسر سامحيني".



في السادسة مساء قرر عزيز أن ينهض عن سلالم البيت ويذهب لشراء شطيرة من الخبز وبعد خطوات قليلة بعيدًا عن بيت صديقه رآه يغادر سيارته قادمًا نحو بيته..

كم يتمنى لو كان بإمكانه أن يتعد قبل أن يراه.. ما زال لا يحتمل رؤية أحد ممن يعرفون قصته لكن هو متعب هارب وأيضًا جائع..

في صوت محشرج صاح يناديه ووقف الآخر يتلفت حول نفسه بحثًا عن مصدر الصوت وعاد في صوت أقرب للبكاء يقول:

- هنا يا وليد هنا.. عزيز، ألا تذكرني؟!!

بقي الرجل ينظر إليه لحظات كأنه لا يفهم ولا يصدق ما تراه عيناه إلا أنه أفاق ليركض نحوه ويضمه إلى صدره في حنان وهو يصيح:

- عزيز!! متى وكيف أيها الصديق؟!!

على كتفيه بكى قائلاً:

- هربت منها.. هربت من صورها وصوتها وأنفاسها وجئت هذا

لأسرق وأقتل أخرى يا وليد، هل تساعد جبانًا مثلي؟!!

سار به نحو سلالم البيت، وما زال ممسكًا بيده يقول:

-زوجتي أينما تقضي أسبوعاً لدى أهلها.. أسبوعاً كاملاً بإمكانك أن
تصيح وتبكي وتنام وتفعل فيه ما شئت دون أقنعة.. الآن لا تقل شيئاً،
الآن نأكل وتنام!!

عندما يمسك بأيدينا من يشفق علينا ويرحمنا يرفع الكبرياء عن
أجسادنا وأرواحنا حصاره ونعود دون رتوش ودون خجل..
ليس هذا عزيز أبداً الوسيم المفتول العضلات، ليس أبداً الهادئ
المتزن..

بل هو الضعيف التائه الباكي..

لا يُسقط عن وجوهنا الأقنعة إلا كف صديق!!



النساء لا تشيخ بعد بقائها على قيد الحياة أعوامًا طويلة، النساء تشيخ عندما تضع قوتها وأحلامها في بناء حائط تستند عليه فيسقط على رأسها!!

ها هي عجوز في الثامنة عشرة من العمر، بل تقترب من التاسعة عشرة وها هي بعض الخطوط ترسم حول جفניה كتلك الخطوط التي يشقها الزمن على وجه أربعينية في العمر!!

ما يقارب العام على هرب ذاك العزيز لم تبتسم مرة واحدة، عام تقريبًا وهي تنهي ساعات عملها في مطعم المقهى وتذهب إلى غرفتها وتنام بعد أن تبقى ساعات بين الأسئلة والبكاء..

عزيز يسرقها؟ يرحل دون كلمة؟!

كل شيء مات بداخلها يومًا بعد يوم في العام الماضي..

كلماتها قليلة، ترى بعينها جثث أحلامها وآمالها تطفو واحدة تلو الأخرى كل صبح.

حسني أمها بات لقاؤها جثة لا يعينها أمرها في شيء، كيف تحلم بقاء أوليها وما حافظت على عهدا معها.

خلعت قرطها من أذنيها من أجل سارق سرق ما بقي من ثمنه الذي صرفته على علاجه وطيبه، وكيف تحلم بلقائها وهي ما باتت تؤمن بكلمة "صدق" مع الغير كانت أو مع النفس.

حتى بط البحيرة ما زارته يسر مرة منذ عام، لا شيء يلتف حولك إلا إن كانت يدك مملوءة بشيء هو فيه يطمع.

أمانة ضمتها إلى صدرها فقط لتلقى بها في البحر.

عزيز ضمها إلى صدره فقط ؛ لأنه كان عاجزاً يحتاجها ويوم باعت فرط الذهب سرق ثمنه وهرب.

فريد رقص حولها يوماً شهوة وطمعاً!!

حتى غريب تظنه تخلى عنها فهي لا تصدق أبداً أنه كان من الصعب عليه أن يطرق باب الغندور يوماً ليسأل عنها!!

لا أحد يلتف حولك إلا إن كان لديك ما يريد!!

حتى البط وأفراخه بعد أن انقطعت عن إطعامه زمناً أصبحت تعلم أنه لن يقبل عليها إن وقفت على حافة البحيرة!!

ما عاد يعينها أمر شيء ولا يربطها بالحياة شيء.

هي ككل هذه الوجوه تعمل وتأكل وتنام حتى يأتي يوم تنام فيه إلى موعد القيامة لتصحو وتسالهم جميعاً لماذا فعلوا بها هذا؟!

في ذاك اليوم لن يقوى أحد على الكذب، أمام الله لا يكذب أحد..

غداً يوم إجازتها الأسبوعية، ادخرت في الشهر الماضي ما يكفيها لشراء كتاب جديد...

وحدها انكتب أصبحت الرفيق، رفيق كاذب تعلم كذبه فتخطو في أحشائه وأنت مطمئن الضمير قرير العين، صفحات تتجول معها لتقرأ أكاذيب منمقة عن الحب والسعادة وذاك الذي اسمه قيم وتلك التي اسمها مبادئ ثم تصل إلى صفحة النهاية لتلقيه بعيداً وتعود إلى الأرض التي لا نهذاً عليها إلا لحظة نومنا تحت سطحها!!

كيف أصبحت عجوزاً في عام؟! كيف أصبحت مدرستها ورقصها وغناؤها كأنهم رفاق قرون بعيدة، كيف مات حنينها إلى كل شيء حتى ذراعي أمها!!

الخدلان لا يقتل في الروح روحها فحسب، بل تقسم أن الحياة بروح ميتة أسهل وأقوى من الحياة بأخرى حمقاء نابضة..

في هدوء صعدت درجات السلام التي تفصل غرفتها عن قاعة أشهر وأعلى مطاعم الجزيرة، دقائق ويبدأ موعد العمل.

حين استندت بأصابعها على باب المطعم وقفت عيناها لحظة على كفها، أصابعها متورمة من مساحيق تلميع الأواني الفضية لكن ما عادت حتى تهتم لأمرهم، اعتادت احمرارهم وتورمهم واعتادها المهم حتى يش من الإلحاح عليها!!

منذ متى لم تنظر إليهم وتفقدتهم وتتحهم في إشفاق؟!

منذ أصبح النظر إليهم يذكرها بتلك الليالي التي قضتها في تحسس
جبهته المحمومة ووضع كمادات الثلج عليها.

عمر الموت في حياتها قارب على العام!

أرخت رأسها وفتحت باب المطعم لتجد حركة غير معتادة، عمال
كثيرون يحملون طاولات المطعم ويخرجون بها من الباب الخلفي له
وآخرون يحملون "الجراند بيانو" من ركنه العتيق ويضعونه في ركن
آخر..

لم تفهم وإن كان لا يعنيه أن تفهم، كل ما يعنيه أن تمارس عملها
وتعود إلى غرفتها، على البعد لمحت رقيقة عملها الرقيقة وتقدمت
نحوها لتقف إلى جوارها، وقالت هامسة في أذنيها "غداً يوم بوسكيمي
المعهود الذي تأخر بضعة شهور هذا العام!"

حين استوضحتها أخبرتها أنه في كل عام هناك يوم من أيام الربيع
وفي إجازة المطعم الأسبوعية يتم إفراغ المطعم بأكمله من كل مقاعده
وطاولاته لترك فقط طاولة واحدة بالقرب من النافذة المطلّة على
النهر وهذا البيانو العملاق، أكملت تخبرها أنهم اليوم لن يعملوا وغداً
إجازتهم الأسبوعية هناك فقط ساقى واحد يأتي من المدينة القريبة
ووحده يتولى تقديم الطعام والشراب إلى بوسكيمي وزائرها السنوي..

ضحكة صغيرة أطلقتها الشابة، وقالت:

- السيدة تقضي الليلة بأكملها في المطبخ لتعد ما تتناوله معه في
الغد بيدها..

كانت تستمع في ذهول وهمست تسأل:

- هل هو حبيبها؟!

مالت الشابة على أذنيها تقول:

- عشيقها، يقضي ليلة الغد في فراشها، وبعد الغد ترتدي بدلة بيضاء،
ليلة واحدة في العام ويوم واحد فيه ثم تعود إلى زيتها المعتاد.. هيا بنا..
لا مكان لنا هنا!!

في ذهول سارت خلف رفيقتها، بوسكيمي لها حبيب، يزورها ليلة
كل عام وترتدي ثوباً أبيض.

جنون ما سمعه وجنون أكبر أن تصدقه.

في الطريق إلى غرفتها خلعت المعطف الذي ترتديه فوق ثيابها
حين تعمل، ستنام حتى الغد.

في ملل فتحت باب غرفتها لتتفحص أوصالها ويسقط معطفها عن
ذراعها حين رأتها تجلس على حافة فراشها، وقالت في حزم:

- أخبروك النبأ؟

في تلثم وهي لا تصدق أن بوسكيمي في غرفتها بعد عام بأكمله
قالت:

- نعم، أخبروني أنه لا عمل اليوم، أو الغد في المطعم.

نهضت المرأة عن مكانها وتقدمت نحوها تقول:

- الرجل القادم ليس رجلاً عادياً! هل أخبروك من هو؟!

حين أصبحت أمامها استدارت وأمسكت بكفها بين أصابعها
ومضت بها نحو خزانة الملابس وفتحتها تقول:

- أريني ما لديك من ثياب؟!

كانت كفها ترتجف بين أصابع بوسكيكي لكنها تركتها في هدوء
وأرخت رأسها في خجل قائلة:

- ليس عندي سوى..

أغلقت الزائرة خزانة ملابسها وفي حزم قاطعتها:

- أنت من يتولى تقديم الطعام لي وللسيد "فيركال" غداً، إن أسأت
التصرف، أو إن خرج أحد أنفاسك عكس ما ينبغي تحزمين حقائبك
وتلحقين بصديقك السارق، وإن أحسنت التصرف قد يكون لك شأن
آخر..

لم تسمح لها بكلمة، بل اتجهت نحو باب الغرفة واستدارت ويدها
على المقبض تقول:

- سير "بجاد فيركال" أكبر وأشهر موسيقى في أوروبا، نامي ملء
جفنيك وفي الخامسة عصرًا تكونين في المطعم ترتدين الزي الذي
يأتيك صباح الغد.

حين وصوله في الثامنة وحتى يغادر باب المطعم في الحادية عشر
مساءً أريني ماذا تصنعين وتذكري أن في هذه الساعات الثلاث إما
رحيلك، أو مولدك من جديد!!

كانت تقف أمامها في ذهول كأنها تغرق في فيضان ما ألقته المرأة في أذنيها ولم تجد ما تقول سوى أنها بصوت مرتعش كبير قالت:
- للسقافة فن وآداب أنا لا أعرفها.. أخشى أن أفسد البيلة، أو أثير غضب الزائر.

كان صوتها يتلون بالدمع والخوف وأكملت والسيدة ما زالت تمسك بمقبض الباب تقول:

- لا مكان لي سوى هنا ولا أعرف أين أذهب، بل لا أريد أن أخرج، أعمل لديك بالمجان سيدة بوسكيمي فقط لا..

دون نظرة إشفاق واحدة تقدمت السيدة نحوها وأمسكت بذراعها لتكمل في إنجليزيتها قائلة:

- لا أحد بإمكانه أن يُفسد قدوم الأسطورة السنوي إلى لامبادوزا.. كبير سقافة فندق "كيمينسكي" هنا كمادته، إن رأيتني أرفع يدي اليمنى لك في أي لحظة تطلبين منه أن يُكمل ما بدأته وتحضرين هنا لحزم أشياءك وتخرجين قبل أن يأتي الصباح.

ابتلعت دمعها في ألم، لن تذلل لها أكثر، هي امرأة لا قلب لها ولا روح فيها.

أرخت السيدة رأسها، وقالت:

- سأخبر الساقى أنك ستمضين الليلة معه في مكثي وسأطلب منه أن يُعلمك.. أصاليه ما شئت، هو معك حتى الفجر..

شيء كالأمل في صدر الصغيرة المذبوح وشيء كالابتسامة التي
 ما عادت تذكر ملامحها بدأ يهب على ملامحها وقبل أن تنبس حرفاً
 عادت بوسكيمي ترفع كفها الأيمن وتقول:
 - إن رأيتني أفعل هذه الحركة تنسحين في صمت ولا أراك بعدها
 أبد الدهر!!



ما عاد يحتمل ما تفعله، ما عاد يحتمل أبدًا هذه النظرة الحقيمة التي ترميه بها في كل مرة تطلب مبلغًا كبيرًا من المال، أو تسجيل قطعة أرض باسمها.

يشعر أنه يخون، أخير والده أنه وحده المسئول عن عدم الإنجاب وأن خديجة تخلو من العيوب..

ثلاثة شهور قضياها في "أوروبا" يجوبان المستشفيات وعيادات الأطباء.

أخبره الطبيب الأخير ألا أمل، هناك رجال يمكن استخراج الحيوانات المنوية من أعضائهم التناسلية لكن دون الرجال جميعًا فريد الغندور رصيده منها صفر.

حين أعلن أنه كره خديجة، كرهها رغم الحب القديم، كرهها ؛ لأنها حين أصبحت منه أقوى أصبحت عليه بكل شيء تَمُن.

لا حاجة له بها وأصبحت في غنى عن كل حاجة هي ووالداها، يريد أن يطلقها، يريد أن يتخلص من هذه النظرة التي يراها في عينيها إن اقترب منها، أو ابتعد، لكن الغندور الكبير أقسم عليه ألا يفعل، أخبره أن نظرتها له ليست الألم، الألم الحقيقي لهما معًا هو أن تفتح هذه الأفق فمها وتخبر الناس بالأمر.

خديجة يخرسها الفتات، وهم في قماصهم منه الكثير.. هي امرأة
تفرغ فيها شهوتك إن اشتيت وهي المسكينة التي تشفق عليها من
الطلاق لعجزها عن الإنجاب كما نخبر الناس وهي أيضًا ابنة خالك!!
أقسم عليه ألا يطلقها أبدًا في الوقت الحاضر لكنه لا يحتمل.

يعلم أن والديه يموتان ألمًا.

انقطع الأمل في استمرار الغنادرة.

إن مات هو ومات والده ورثت خديجة وأهلها كل شيء.

أشاح برأسه بعيدًا، وهو يخطو في الشارع الضيق، يتظاهر أنه يسير
على غير هدى لكنه يعلم إلى أين يذهب وفي أي موضع يضع قدميه.

يريد أن يصل إلى المسجد الذي يؤم فيه الغريب المصلين، ما زال
الغريب وحده آخر آماله في الوصول إلى يسر.. وحده حبيبها ووحدها
الآن من الغنادرة.

وحدها من أصبح بإمكانها أن تلد الغندور الأخير، وإن كان من ظهر
غير ظهورهم.

أهي عدالة السماء!؟

أن يشقى بحبها ويعجزه وبانتظار ظهورها.

هل تظهر أم أنها ذابت وماتت كحلمه في أن يكون رجلاً يضع في
أحشاء امرأة بذرة تُبقي على عائلة أطاحت رؤوسًا لتبقى ويبقى اسمها
مدى الدهر!!

حين أصبح على باب المسجد يقف رأى الغريب بلحيته البيضاء التي أطلقها يجلس على الأرض وأمامه مصحف كبير.

خلع حذاءه ودخل ليجلس إلى جواره، حين رفع الغريب عينيه ورآه ما استطاع أبدًا أن يختار كلماته، ما استطاع أبدًا أن يحتفظ بقناع الغنادرة، بل وضع يده على المصحف، وقال كأنه بنهار:

- وحق هذا الكتاب أريد إعادة كل شيء إلى يسر عّلّ الله يغفر لي، وحق هذا الكتاب إن كنت تعرف عنها شيئًا أخبرني.

من خلف طبقة كثيفة من الدمع تكونت على جفنيه قال الغريب:

- وحق رب الكتاب لو أنني أعلم عنها شيئًا، لو أنني أطمئن عليها لأغمضت عيني ورأيت ولدي!!



يعشق شوارع "ليجولاند" الدانماركية..

هذه المدينة التي يزورها منذ شهور وأصبح يقضي فيها جميع أيام عطلاته..

كل ما في المدينة على شكل قطع "الليجو" الشهيرة حتى شارات المرور، يومًا كان يحلم هو ومها بأن يشتريا كل أنواعها وأحجامها لطفلهم القادم ليبنى منها قلاعًا وبيوتًا وسيارات..

انقبض صدره وهو يتذكر زوجته وذاك الذي كان يومًا يتكون داخل أحشائها..

أين يهرب من الذكرى، إلى ذكرى يسر؟!

توقف عزيز عن السير وجلس على أقرب مقعد خشبي له ألوان مكعبات "الليجو" وارتمى عليه..

عام منذ سرق نقودها وهرب..

هرب منها في اللحظة التي علم فيها علم اليقين أنها تحبه ويحبها..

في اللحظات القليلة التي كان يفيق فيها من تلك الحمى كان يراها وهي تسقط من الإعياء برأسها على صدرها وما زالت كمادات الماء البارد بين أصابعها..

حين علم أنها باعت قرط أمها لعلاجها، حين شعر بجسده يصحو وهي تمر بأناملها على جبهته..

يوم علا ديب قلبه، وهي تضمه باكية وتهمس "كدت أفقدك"، حين تمنى وهو ما زال نصف محموم لو يقبلها ويأخذها ويذوب في عروق جسدها أدرك أنه يجب أن يرحل!!

أكان يجب أن يسرقها؟! كان أضعف من أن يبحث عن عمل يوفره مصاريف التنقل حتى الوصول إلى الدانمارك..

أكرمه وليد، أكرمه الصديق القديم، وبالأمر استخرج له إقامة عمل حين جعل منه شريكاً صورياً معه..

أحبته زوجته وأحبها عزيز وأحب الحياة في هذا البلد.. حياة هادئة ممتدة رتيبة عاد فيها رجلاً بلا رجولة، عاد عزيز كما كان قبل هربه من مصر لا شيء ينبض فيه حتى ألم ركبتيه..

كل يوم يفتح فيه عينيه يتمنى لو يرسل إلى أسر أضعاف ما سرقه منها..

كل صباح كهذا الصباح لا يعمل فيه يتمنى لو يضع نفسه في قطار ويذهب إلى رؤيتها ويتمنى لو يأخذها لتعالج أصابعها إن كانت ما زالت متورمة..

لكن إن فعل يعود إلى الحياة، إن رآها يصحو فيه الرجل وينبض فيه القلب..

يريد أن يكمل ما بقي من حياته ميتاً ويريدها أن تكرمه لتحيا..

هي أجمل وأنقى من أن يلوثها رجل له ماضيه..
هو يدخر من نقوده نقودًا ويومًا يبحث عن أمها، أو يذهب إلى مصر
ويستخرج لغريب تأشيرة ويطلب منه زيارتها..
هذا ما قد يسعد يُسر وهذا وحده ما قد يجعله يصفح عن نفسه..
أغمض عينيه ورآها وهي ترقص على أطراف البحيرة.. سكّت كل
أبواق السيارات وعلا صوتها في أذنيه يوم كانت في اليم تغني..
عشقها ربما أكثر من عشقه لزوجته..
عشق يعود بك إلى الحياة بعد موت طويل هو أكبر وأعمق من عشق
كنت تحيا به يومًا..
لِمَ تتصب في رأسه اليوم أكثر من كل أيام العام الماضي؟!
مصلوب هو بين امرأتين قتل إحداهما وسرق الأخرى..
مصلوب هو بين شوقه إلى امرأة ماتت هربًا منه وأخرى يموت هو
شوقًا إليها وخجلًا منها..



رجل واحد فقط دون رجال الأرض جميعًا هو من يستطيع بكل
بساطة أن يمد يده ودون أن يشعر إلى صدر امرأة ويخرج منه بامرأة
أخرى لا يعرفها أحد حتى ذات المرأة نفسها!!
هو ذاك الذي تعشفه المرأة بصدق!!

كادت تشهق، بل كادت تصيح حين خرجت تحمل على يدها
اليمنى كوبي الكريستال على صينية الماء إلى بوسكيمي وزائرها..
كادت يسر تتعثر وتقع إلا أنها ابتعلت شهقتها وتقدمت في خطوات
هادئة منتظمة تمامًا كما علمها الساقى الإيطالي ليلة الأمس..
ليست هذه المرأة أبدًا التي تعرفها، هي امرأة أخرى خرجت من
حيث لا أحد يعلم..

امرأة أصغر وأجمل وأيضًا تبسم.

هل يفعل العشق هذا؟!

أرخت عينيها في هدوء لتضع كوبي الماء أمامهما، وتعود بخطواتها
إلى الخلف دون أن تستدير وتقف في مكانها كأنها أحد تماثيل "مدام
توسو"!!

أخبرها الساقى أن تقف هناك دون أن يهتز لها جفن ولا تتحرك إلا
لتملاً ما ينقص من الأكواب إن شربوا منها، أو إن أشار لها أحدهما
وطلب شراباً أو طعاماً!!

”لا تنظري إلى وجوههم، لا تصدرى صوتاً، إن حدث وأتاك
سعال، أو عطاس ابتلعه وإن لم تستطيعي تعودين بظهرك كجنود قصر
باكنجهام وتحزمين أشياءك وترحلين لأكمل أنا الليلة!“

تكتسب سعالها وروحها ولا تركهم، هي فقط تريد أن ترى الرجل
الذي فعل هذا ببوسكيمي، تريد فقط أن ترى ملامحه..

كان ظهره لها، كل ما تراه منه شعره المجمع الذي يصل إلى نهاية
عنقه..

بعيداً عن مشاعرها تجاه سيدتها تمت بصديق لو يبقى زائرها معها
العمر كله..

كأن وجهها وحده من يضيء أركان المطعم، كأن ابتسامتها هي التي
ترقص على أنغامها الشمعات الصغيرة المتناثرة في المكان..

حقاً هناك رجال رفقتها تحي، ورجال رفقتها تقتل النساء!!
بعد دقائق من انتصابه ظهرها وأكتافها بدأت تهدأ ويهدأ جسدها،
بدأت تتجول بعينيها في أركان المطعم دون خوف..

بوسكيمي لا تراها، هي لا تسمع، أو ترى شيئاً سوى همساته لها..

كانت على البعد ترى أصابعه وهي بين حين وآخر تعود بخصلات
شعر رفيقته إلى الخلف، أو تراه يميل ويضع قبلة على عنقها ثم يعود
إلى احتساء رشفة ماء كأنه يشرب لترتوي وتورد أكثر..

بعد أكثر من نصف ساعة رفعت بوسكيجي أصابعها لتقدم في هدوء
وتعود بخطواتها إلى الخلف وتعود بعد برهة من الوقت تحمل صحن
الطعام اللذين أعدهما الساقى لها..

من خلف ظهر المرأة وضعت الصحن الأول ورفعت رأسها لحظة
تسترق نظرة إلى وجهه.

لم يكن ينظر إليها، بل كان يمسك بكف صديقته وضحك مهلاً بما
يراه في صحنها.

أرخت رأسها بسرعة والتفت لتضع أمامه الصحن الآخر وتعود إلى
حيث كانت..

ما رآته منه يكفيها..

هذا العبقري الذي خلق امرأة من وحش أصغر منها، هو في نهاية
الأربعين وسيم ويستم!!

هل تراه مثل رفيقته وحشاً في باقي أيام العام ووحدتها من صنعت
منه الليلة هذا الطفل الضاحك؟!

وإن كان وكانت لم لا يتزوجان، أو حتى يحييان معاً؟!

من يكتفي بسعادة يوم وهو يملك أن يكون سعيدًا باقي الأيام؟
لكن من قال إنهما حقًا يملكان؟

حين انتهاء من طعامهما وحين حملت عنهما صحنونهما وعادت
تنتظر شارة تقديم الحلويات رأت بوسكيمي تميل على أذني زائرها
وتخبره شيئًا ويعد أن أجابها رفعت أصابعها إلى يسر لتتقدم نحوها
وتسمعها تقول:

- أخبرني السيد "ألثرو" أن لك صوتًا جميلًا حين كنت تغنين في
المعسكر، أسمعنا شيئًا.

لم تكن أبدًا تتوقع شيئًا كهذا، ولكن لهذا اختارتها، لتقوم بدور
الساقى والمطرب!!

أرخت رأسها في هدوء وهمست نالها إن كان بإمكانها أن تجلس
إلى البيانو وكان بوسكيمي القديمة عادت، في غضب نظرت إليها
كأنها تخبرها أن البيانو تم نقله وتنظيفه هذه الليلة فقط لأمير الليلة لكن
وللمرة الأولى رفع الزائر وجهه ينظر إليها، وقال:

- تعزفين أيضًا؟

قبل أن تجيب أشار بيده إليها أن تذهب وذهبت، جلست في تردد
وما زالت عيناها تنتظر موافقة بوسكيمي كأنها جرو صغير لا ينفذ إلا
تعليمات مالكه.

لم تستدر إليها، بل في مكانها كانت باقية ورجلها يقف خلف مقعدها واضعاً كلتا ذراعيه حولها وهو يرقب الشابة في ابتسامة هادئة لا تخلو من السخرية!!

غنت تلك الأغنية التي غنتها في حفل المدرسة، وما أن ارتفع صوتها بعد ثوان تآل "لماذا لا نكون أصدقاء" حتى رأت بعينيها كيف غابت السخرية من ملامح الرجل وكيف اعتدلت السيدة تنظر إليها في ذهول..

حين انتهت لم يتسم أحدهما ولم يصفق لها كف أي منهما، من مكانه وكفاه ما زالتا تتحسان عنق خليلته وشعرها سألها وهو يملأ عينيه منها كأنه الآن فقط رآها:

- من أي بلد أنت؟!

حين قالت "مصر" رأت يده تقف عن رحلتها في رأس السيدة، رآته هو أيضاً يتقدم نحوها كأنه يزحف على صخور من ألم، حين أصبح أمامها نهضت عن مقعدها لتسمعه يقول في لغة عربية لها لكنة لم تفهمها:

- غني بالعربية!

في حيرة نظرت إليه وفي هدوء وضع كفه على كتفها، وقال:

- أرجوك!

تلك الأغنية التي كانت أوليجا تغنيها بعد أن تعلمت العربية، تلك الأغنية التي حفظت كلماتها وهي طفلة فقط لتذكرها عندما تكبر وتفهم معانيها، لا شيء سواها يطن في أذنيها.

أشار لها بالجلوس أمام البيانو من جديد وعاد يهمس:

- أرجوك!

لا تعرف موسيقاها لكنها نقرت في هدوء بما يشبه موسيقى الرحبانية وفي لحظات كانت تقول:

سنرجع يوماً إلى حينا ونغرق في دافئات المعنى..

سنرجع مهما بمر الزمان وتنأى المقافات ما يتنا..

سنرجع.. خبرني العنديل غداة التقينا على منحني

بأن البلابل لم تزل هناك تعيش بأشعارنا..

فيا قلب مهلاً ولا ترتمي على درب عودتنا!!

سنرجع.. ما زال هناك مكان لنا!!

حين تلون صوتها بالأهة الفيروزية الطويلة رأتها يتقدم خلف البيانو لتنهض وتترك له مقعدها..

في لحظات كان الرجل يعزف كأنه هو الآخر من كتب الحكايا جاء..

عزف لحن أغنية فيروز وحين حاولت أن تخطو أمسك بكفها بين أحد كفيه يرجوها أن تغني، أكملت وحين قالت "يا قلب مهلاً ولا

ترنمي على درب عودتنا" رأت أصابعه تطير من جديد ويعيد اللحن من بدايته لتعيد غناءها أكثر من أربع مرات، نهضت بوسكيمي بعدها ترقبهم في ذهول..

حين أنهى كل منهما ما يفعله، كان وجهه بالدمع مغسولاً، وحين رأى لهفة حبيبته وحيرتها قال في الإنجليزية كأنه يريد يُسر أن تفهم:
- لا شيء، إليزابيتا لا شيء كالغناء عن الوطن وإن لفظنا أو قتلنا!!



لا شيء يطفى شموع الحب ويقتل توهجه في لحظة إلا الحديث
عن النقود وإبرام الصفقات!!

في لحظة ما عادا عاشقين، في لحظة أمسك فير كال بيد يُسر وأجلسها
على مائدتهم، وقال في إنجليزيتة:

- أعلم فيما تفكرين إليز وأعلم أنك على صواب، إن أنتِ الحقّتها
بالغناء في مطعمك تحقّقين أرباحاً هائلة، لكنّ مستغرقين وقتاً طويلاً
في استخراج أوراق رسمية لها، أنا أفعلها في شهور..

غابت كل ملامح العشق عن وجه بوسكيمي وهي تستمع إليه، أرادت
فقط أن تُمتعه لكن لو كانت تعلم أن صوت هذه الجنية من السماء قادم
ما فعلتها لكنه على حق، سيدربها ويجعل منها شيئاً آخر..

في هدوء قالت:

- ألا تسألها رأيها؟!

دون حتى أن تستدير إلى الشابة أكمل يقول:

- موافقتك أولاً، أنتِ من قدمتها لي وأنتِ الباقية معي!!

حين أعلنت موافقتها، استدار يحدث يسر بعربيتة التي ما عرفت
أبداً مسقط رأسها، أخبرها أنه سيأخذها إلى المدينة، سيجعل منها امرأة

ثرية، فنانة يأتي العالم للاستماع لها، أخبرها أنه سيمنحها أجرًا شهريًا كبيرًا، وأنها ستقيم في جناح خاص في بيته الكبير..

كانت تستمع إليه في ذهول، أخبرته أنها لا تريد أن تصبح شيئًا كبيرًا، ماتت بداخلها كل الأشياء..

أخبرته أيضًا أن كل ما تريده هو الوصول إلى أمها..

من خلف دمعة طفت على عينيها، وفي طفولتها التي ما زالت رغم كل ما مرت به تسكنها أخبرته أنها تريد قرط أمها وفي لحظة أمك فيركال يكفها في قسوة، وقال في حزم وحدة:

- اسمعي أيتها الصغيرة، الله لا يمنح المواهب الكبيرة للضعفاء واليائسين..

يلقيها الله في أعلامهم وأصواتهم وعقولهم ليعادوا بها بؤساء الأرض وإن كانوا هم أكثر منهم بؤسًا وشقاء!!

هذا الصوت ليس ملكًا لك، الموسيقى التي يلهمني إياها الله ليست منكًا لي، الروايات التي تبقى بعد رحيل كتابها لم تكن من صنعهم..

هي رسائل لتضميد الجراح، هي عود ثقاب لإشعال المصابيح في عتمة الدروب..

ليس خيارًا، بل هي رسالة واختبار، ما أتيت من مصر إلى إيطاليا عبثًا وأنا ما هربت من الجزائر جزافًا..

هل تفهمين؟؟



دونما أدنى اكتراث وفي قسوة كبيرة نظر إليها، وقال:

- هي اختيارك!! هي من أَرْضَعَتْ حَبْها قسراً، لو أنه تزوج أخرى
لكان لديك حفيد.

في جنون رفعت قدريّة عينيها الغاضبة عن صحن طعامها وألقت
نظرة على وجه ولدها وزوجته وصاحت تخبره أن ابنة أخيها كوله لا
عيب فيها وأنهما فقط بحاجة إلى بعض العلاجات، أو ربما التعويضات.
وقفت على وجه خديجة الذي اعتادوا جميعاً شحوبه وجموده منذ
أعوام وهي تصيح:

- لا أفهمك فريد ولا أفهمها، إن كان الطب يقول لا عيب ماذا نتظر
ولماذا نرفض بعض الآيات أو التعويضات؟! ماذا نتظران بعد خمسة
أعوام؟!

نهضت الزوجة الشابة عن مقعدها في سكون ككل مرة تثير فيها
عمتها القصة وصعدت إلى غرفتها لتكمل الأم صياحها وتأمّر ولدها
بالتدخل، وعندها صاح الغندور الكبير:

- لو أنها يسر لربما كانت حاملاً، لو أنك ما أشعت في نفسها الخوف والرعب ما هربت ولكان لديه الآن زوجتان، إن لم تنجب إحداها أنجبت الأخرى..

ما عادت قدرية تحتمل هذه الكلمات وما عادت أيضاً تحتمل مرور الأعوام وولدها لا ينجب، باتت تكره خديجة لرفضها كل الوصفات التي تؤكد لها النساء فعاليتها..

الحمقاء تخاف على نفسها من وصفاتهم، أصبح كل ما يهمها جمع النقود والبيت الذي كتبه الغندور لأبيها.

خمس سنوات، وهي تتظاهر بالرضا؛ لأن المال والبيت من نصيب أخيها لكنها اليوم لا تستطيع.

بيدها دقت على المائدة التي يجلسون عليها، وصاحت كأنها تريد أن يصل صوتها إلى من انسحبت في سكون، كانت تئن من تقريع زوجها، تئن من انكسار وحيدها، تئن من جمود زوجته، تئن من نظرات وأسئلة نساء وخادمات وحتى رجال البلدة.

صاحت تقول:

- أقسم عليك برأس أمك وأبيك أن تتزوج، اختر أي فتاة أخرى وإن قبلت ابنة أخي بقيت وإن لم تقبل فلتذهب وكفاها ما جمعته خمسة أعوام.

كانت ترتجف رغم صوتها الهادر، كانت تتفرض مع غضبها العاصف.

لم تنتظر لحظة أخرى، لم تنتظر كلمة من أحدهم، بل أسرع إلى سلام البيت تصعد إلى غرفة خديجة.

حين دفعت الباب الذي كان شبه مفتوح بكفيها رأت خديجة تقف في منتصف الغرفة تنظر إليها في تحدٍّ كبير.. تحدُّ تراه قدريّة ولا تفهمه، دومًا تُكذِّب عينيها فيه، وتختار له عنوانًا آخر لكن الآن وبعد أن قطعت هذا الشوط الكبير في تعبيرها عن غضبها لا تراجع.

قبل أن تجد ما تقول أشاحت خديجة بوجهها بعيدًا وسارت لتجلس على حافة فراشها تنظر إلى أصابع كفيها التي شبكتها معًا لتقاسمها حيرة الأعوام الخمسة.

الغندور يُذلها، يتعمد القسوة في كلماته؛ لأنه يعلم أنها تقبض الثمن، تراه يراهن بحياته على صحتها ولا يعلم أنها ما عادت بالنقود ولا بحياتها تهتم.

ما عادت سعادة أبيها بالبيت تعنيها ولا زهو أمها بجدرانها وغرفة يكفيها، ما عاد أبدًا يعنيها أن آلفًا من الجنيات باسمها وهي التي ما كانت على بضعة منها تحتكم.

عندما يضعون الأرض والسماء في كفة ميزان ترجع أبدًا الكفة الأخرى إن كبوا عليها كلمة "أم"!!

انطلقت صرخة حبيسة من صدرها رغمًا عنها، تشتهي طفلًا، تشتهي أن تتفخ أحشاءها وتحسبها، تشتهي عيني حماروين لا تنام

من صراخ رضيع وبكائه، تشتهي ما لا تشتريه ثروة الغندور ولا جاء بيت بالحرمان لو الديها اشترته.

صاحت صيحة كبيرة محملة بكل زيف الجمود الذي على وجهها أعواماً رسمته، صيحة مخلوطة بدم كبرياتها المسفوك على قدمي فريد في كل مرة يأخذها إليه رغم أنه ورغم أنها يعلمان ألا فائدة ولا أمل من لقاءهما يرجى أو ينتظر.

في لحظة مدت يدها إلى صدرها تشق ثوبها عنها كأنها تريد التخلص من مرار الأعوام التي في الصمت معهم عاشتها.. لم يكن صياحاً، بل هي صيحة واحدة عالية جريئة جعلت قدرية تنظر إليها في ذهول، وخلفها كان الغندور وولده يركضان نحو الغرفة على صوت ممزق حاد كأنه من الجحيم يستغيث!!

حين وصل، حين رآيا صدر خديجة عار من ثوبها الذي شقته عنها سمعوها جميعاً تصيح:

- طلقني، لا أريد شيئاً، أريد فقط أن أكون أمّاً.

استدارت تنظر إلى وجه عمتها الغائم، وأكملت تقول:

- ولدك عقيم يا عمتي، عقيم..

لم ينتظر لحظة أخرى، بل غادر الغرفة بعد أن ألقى عليها يمين الطلاق كأنه هو الآخر يتحرر من قيد ما بات عليه يقوى..

كانت تصيح وتبكي وتضحك بعد أن سمعت يمين طلاقها، وكانت الأم في ذهول صدمتها غارقة، وحده الغندور الكبير تقدم نحو من

كانت منذ لحظات زوجة وحيدة وأمسك بأطراف ثوبها الممزق بأحد كفيه في قسوة وأمسك بوجهها بالكف الآخر في قسوة أكبر قائلاً:

- حسناً فعلت بتمزيقك ثياباً ليست لك، عودي إلى أرضك وثيابك، عودي إلى مكانك فأنت لا تتمين لنا ولن تفعلني، أحذرك، بل أعلمك، لن يتزوجك رجل من هذه البلدة، ستبقىين محرمة على رجال المحافظة بأكملها، سرقت الغنادرة خديجة لكن لن تدليهم أبداً!!

ترددت لحظات قبل أن تفتح المظروف الذي وقَّعت على استلامه،
لا أحد تعرفه في الدانمارك لكنه باسمها، وعليه عنوان مطعمها.
حين فتحته وجدت ظرفين على أحدهما اسمها والآخر مكتظ بأوراق
نقدية قامت بعدها في ذهول وحين فتحت الآخر علمت مصدره..
هو من ذلك العزيز السارق يرجوها أن تقبل اعتذاره وتمنح يسر النقود.
أطلقت بوسكيمي ضحكة صغيرة مريرة، ومالت بجسدها لتفوص
في مقعدها.

أربعة أعوام منذ خرجت يسر مع فيركال، زارها فيهم ثلاثاً من
زياراته السنوية، وأخبرها في الأخيرة أنه وبعد شهرين يرسل لها دعوة
لحضور حفل يقيمه وتشارك فيه يسر، أخبرها أنها بعد أربع سنوات من
الإعداد والتدريب أن أوان خروجها للناس.

بعد تهيدة صغيرة أخرجت ورقة كتبت عليها سطوراً، وجمعت كل
ما وجدته في المظروف الآخر لتضع معه الورقة في ظرف آخر كبير
واسدعت أحد عمال المطعم، وقالت في حدة:

- إلى البريد فوراً على أن يدفع المستلم ثمن الرسالة.

سيد عزيز:

أحمق من يظن أن ضميره يستيقظ بعد خمسة أعوام من النوم..
الضمانر لا تنام لتستيقظ وإن أعبتها صحوتها يوماً تغفو لحظات
لتجلدنا بعدها في قسوة!!

نحن إما بضمير حي لا يغفو نحيا، أو بضمير ميت نبقى حتى نموت!!
صَحِيحَتُ التي سرقناها ما عاد لها وجود هنا منذ أربعة أعوام..
هل اشتقتَ إليها؟! أم تراك تريد منها شيئاً ثمنه أكبر من ألفي يورو؟!
وكيف أصبح لسارق مثلك أن يضع مبلغاً كهذا في مظروف ويرسله
إلا إن كان بضمير ميت جمعهم؟!
لا تدع ضميرك يخدعك..

هو ميت وفي مكاني هذا لا أرحب برسائل الموتى!!
إن أرسلت رسالة أو فكرت بالوقوف على باب مطعمي أستدعي
لك الشرطة وأعيدك إلى بلاد تحبون فيها بضمانر ميتة وصدور عمياء!!
إليزابيتا بوسكيبي

آه من انتظار باب لا يدق ورنين هاتف لا يأتي.

ألف آه من التوسل إلى موت آتٍ لقليل من الانتظار..

أصبح الهاتف المحمول في كل يد وفي ثنايا كل جلباب، ورغم هذا مع كل رنة تأتي من حوله يتفض قلب غريب ويمسك بهاتفه الذي لا يفارقه علَّ الرنين منه يأتي..

خمس أعوام لم يرن فيه الهاتف الرنة التي يحلم بها!!

خمس أعوام ما أقام صلاة ولا أنهاها إلا وهو يدعو الله أن يأتيه صوتها ولو مرة واحدة.

أكرمه الموت بالانتظار، لكن بدأ اليأس في نسج خيوطه حول قلبه العجوز وروحه التي غاب عنها كل من كانت بهم ولهم تتنفس..

يُسر مات كما مات عبدالرحمن وأمه..

فليعلنها وليمسك بهذا الهاتف اللعين، ويقذف به في قلب البحر لتلقفه شباك الصيادين، أو يسكن جوف سمكة!!

في تناقل نهض عن الصخرة التي كان يجلس عليها أمام البحر، وأخرج كفه من جيبه بالهاتف الذي لا يدق..

رفع ذراعه به كأنه يهم حقًا بقذفه إلى البحر لكن تيسر ذراعه في الهواء..

عدونا هو وصديقنا اللدود!!

هل يلقيه في البحر؟! أبعد بكاء وصلاة ودعاء يعلن بأسه من رحمة الله؟!

أرعى ذراعه في سكون ورفع وجهه إلى السماء يستغفر خالقها..

هرم غريب فوق هرمه، رغم السكينة والضوء الأبيض المريع الذي أصبح أكثر إشراقًا من وجهه ولحيته البيضاء لكن السكينة لا تشفع..

هرم الغريب وهرم الأمل في صدره حتى يكاد يراه في النزاع الأخير!! حين استدار يخطو على رمال الشاطئ في طريق عودته إلى بلدته ومسجده استعدادًا لصلاة الظهر شعر بشيء في ثيابه يتحرك..

صدره لا يحتمل وروحه أيضًا لا تحتمل..

لحظات كأنه فيها يتحقق أنه ما جُنَّ، لحظات أخرج بعدها هاتفه الذي كان ومنذ شهور لا يدق..

هو اتصال خاطئ ككل المرات المتباعدة لكن عليه أن يجيب..

في خوف فتح الخط، وقبل أن يقل كلمة سمع صوتها تصيح:

- غريب؟! وصلت أرض مصر منذ لحظات أين أنت؟!

أين هي يسر؟ غريب هل تسمعي؟!

فتح باب التراس الكبير الذي يطل على بحيرة "كومو"، في هدوء وجلس على أحد المقاعد الوثيرة، وككل المرات رفع ماقبه يضعهما على سور التراس المنحوت في أناقة معمارية لا مثيل لها..

لا يستطيع أبدًا أن يمنع عينه عن الغوص في ماء البحيرة الأزرق.. دار بعينه إلى الخلف وابتم في مرارة، بعض السياح يمرون بالقوارب في ماء البحيرة لالتقاط الصور لمنزله المنحوت في الجبال الخضراء من الخلف، وترقد عواميد واجهته الأمامية داخل البحيرة..

لا يظن الجنة أجمل!!

ثلاثة ملايين من اليوروهات دفعها ثمنًا لهذا البيت، رحم الله أباه لو أخبروه يومًا أن ذاك البائس الصغير يشتري يومًا بيتًا بهذه الملايين لمات قبل موته..

بيته ملاصق لبيت "جيانى فيرساتشي" و "دومنيكو دولتشي" حيث تقف قوارب السياح لالتقاط الصور لبيته وبيوتهما ليس فقط لجمال البيوت، بل لشهرة سكانها!!

إيطاليا منحة الشهرة وملايين اليوروهات، أصبح حلمًا وقصة، بل أصبح أسطورة الموسيقى والأوركسترا، أصبح في كل حين له ليلة مع امرأة ما تنتظره، امرأة يصدق بين ذراعيها تصفيق جمهوره وانتفاضة

من يطلبون معه صورة، يحيا مع جسدها رعدة الأمل فيمن يحادثونه
 يطلبون حديثاً صحفياً، أو مقابلة تليفزيونية، ورغم هذا ما زال يشعر أنه
 طائر سنونو سائر كلما جلس على مقعده هذا أمام بحيرة "كرومو"..
 نساء تبقى أعواماً، ونساء تبدل كل عام، وهذا البركان الكبير بداخله
 لا يهدأ يوماً أو ينام!!

لماذا نحب أوطاننا رغم بخلها علينا، ووأدها لنا؟!

لماذا نشاق إليها إلى هذا الحد، ونحن غاضبون منها فوق كل حد؟!
 لأن الوطن كالأم يقتلك أن تكشف قسوتها، ورغم هذا يبقى فؤادك
 يهفو لها مهما أشحت عنها بوجهك، أو أعلنت أنك منها بريء..

كان والده من قيادات الصف الثاني في جبهة مقاومة الاحتلال
 الفرنسي في الجزائر، تعرض للتهديد والاعتقال والتعذيب، وفي كل
 مرة كان يغيب، يظنونه لن يعود، وحين يعود مثقلاً بجراح تعذيبه كان
 يقسم عليه أنهم إن مزقوه أشلاء يجمع أشلاءه ليقاوم من جديد.

كان بطلاً وجاء ابن البطل ليعاني كلاهما ككل الأبطال من الفقر
 والجمود، حين أعلن معلموه في المرحلة الابتدائية أن جهة ما يجب
 أن تحتضن موهبته الموسيقية التي لا تتكرر أجيالاً طويلة مات أبوه
 البطل ركضاً وبحساً عن من يتبنى موهبة ولده، ويسمح له بالالتحاق
 بمدرسة متخصصة أو ينال منحة دراسية تكفل له دراسة الموسيقى،
 نسي الجميع كفاح البطل وحقه، تنكر المسئولون لتاريخه الكبير،
 وسقط الخنجر في صدر والده عندما انهار يوماً أمام ولده يخبره أن

الوطن الذي منحه هو الروح يبخل عليه بمنحة دراسية لولده ينالها أبناء
المستولين دون موهبة!

أنت أبداً لا تحب أمك أو وطنك ليطعموك، أو يسقوك لكن أنت
تجن إن علمت أنهم ينكرون عليك حق الطعام وشربة الماء!!

مات البطل من الحسرة، رغم أنه لم يمّت من التعذيب والاعتقال.
مات من خيبة الأمل، ويوم أغلق بجاد عليه قبره أغلق حقيقته وجاء
إلى إيطاليا، لم يستطع أبداً أن يتوجه إلى فرنسا رغم أن معظم أصدقائه
وأقاربه على أرضها يعيشون.. لم يستطع أبداً أن يفعلها!

شعر أنه يخون والده، شعر أنه قد يتناول شطيرة خبز من ذراع ضابط
فرنسي يوماً عذب أباه، أو أحرق منزل من قاوموه..

فتحت له البلاد ذراعيها، بعد أول لقاء له مع مدير أوركسترا روما،
وعده بمنحة في معهد الموسيقى الإيطالي..

شهور وأيام وأعوام أصبح بعدها "فيركال" أسطورة الموسيقى..
لو أن إيطاليا ما قدمت له كل هذا لربما ما اشتعل كل هذا الغضب
بداخله من وطنه..

وطن المليون شهيد ليس أبداً وطن أبنائهم من الأحياء!!

عشرون عاماً لم يزر وطنه زيارة واحدة!

في حفله الموسيقي السنوي تأتي الجالية الجزائرية، بل يدعو كثير
من أعضاء الجاليات العربية للحضور، يسمع تصفيقهم في أذنيه،

تصفيق له رنة أخرى غير سواء، يطلبون السلام عليه والتقاط الصور معه، يتمتعون عليه إقامة حفل في الجزائر لكنه يعتذر.

كان فيها ولفظته، كان فيها، وبخلت عليه فلم اليوم تريده وتدعوه؟! لكن ما زال هناك ورید في جسده يتفض كلما ذكروا اسمها، ما زال شريان في قلبه يرتعش كلما سمع كلمة باللغة العربية.

لا يعرف كيف يتحرر أبدًا من إشكالية الحب والغضب التي تسكنه.. في مرات كثيرة اشترى تذاكر لزيارتها، كان يحلم أنه يغلق حقييته ويركب الطائرة ليصل ويتجول في شوارع مدينة "عانة"، التي يرقد فيها جثمان أبيه، يموت شوقًا إليها ويحيا غضبًا منها..

غاضب حائق لكنه عاشق مشتاق إلى ثراها!!

يوم غنت يسر منذ ما يقارب الأربعة أعوام أغنياتها في مطعم بوسكيمي استيقظت قبائل الشوق في دمه، وحين علم أنها مصرية أشهرت تلك القبائل سيوفها في وجهه وسقط..

سقط فيركال أسطورة الموسيقى حريقًا عندما غنت "سنرجع يومًا"!

ثلاثة أعوام ونصف وهي تقيم في الملحق الصغير لبيتها، أعوام من دروس الموسيقى والصوتيات والأوبرا واللغة الإيطالية وهي مستسلمة لا تقاوم وهو بها يزداد تشبثًا وعليها ينفق ولمولدها يرتب ويعد..

لأنها عربية مثله!!

لأن يومًا والده أخبره عن حبه لمصر وحب مصر للجزائر وأبطالها؟!
أم لأنها كسيرة مهزومة رماها وطنها بين كفي بوسكيبي الذي يعلم
قوتها وقسوتها حتى وهي تتأوه تحت جسده وبين ذراعيه!

أم لإيمانه بصوتها وهدير غنائها!!

أم لعقدة قديمة يخجل منها ويريد أن يثبت لها ولنفسه أن في بعض
العرب خيرًا وأنه "العربي" الذي يمد يده بالعون إلى ضعيف لا يملك
المقابل!!

لا يعلم، لكن منذ دخول يسر إلى قلعة يزداد إصرارًا على أن يعلن
لنفسه وللعالم أن هناك معجزات تولد فقط بعيدًا عن بلاد العرب رغم
أنها منهم وعلى أرضهم تكونت وولدت..

بلاد العرب!!

لماذا لا يحتضنها؟! لماذا لا يحنو عليها؟!

أكثر من ثلاثة أعوام يلتقيها يومًا واحدًا أسبوعيًا، كأنه طيب يتابع
تطور حالة مريضه..

أصبحت تتحدث الإيطالية، أصبحت تعرف عن الموسيقى ما
يقترّب مما يعرفه هو لكن ما زالت وما زال كل منهما يجهل ما في رأس
وقلب الآخر..

أخبرها أن الأسبوع القادم هو موعد ولادتها على مسرح "تياترو
الاسكالا"⁽¹⁾ بميلان.

حفظت ما ستقدمه حتى أنه يظنها تعرفه أكثر مما تعرف عن وطنها
وأرضها!!

رغم هذا ما زال وما زالت تغنيه أمامه كل ليلة!!
جزائري ومصرية..

موسيقى وصوت يعلم أنه بعد انطلاقه لن يقف أمامه صوت إلا
وانحني له احترامًا وتقديرًا..

هل يريد لها حقًا أن تنجح أم أن كل ما يريده حقًا أن يرى العالم كيف
الأوطان تقتل وكيف الغرباء يحيون!!

أيًا كان ما بداخله، وأيًا كان ما بداخلها.. لها صوت يستحق أن يعلو
وهناك أناس لطيبها تستحق أن تستمتع به..

سيعلن الرجل الإيطالي الجزائري على تياترو الاسكالا للعالم أن
الله ما زال يختص بلاد العرب بهبات من جئاته!!

ابتسم وهو يراها في الحديقة تجلس على العشب، وإلى جوارها
كلبه الضخم..

(1) يطلق عليه أيضًا تياترو لاسكالا

رفع ذراعه يلوح لها طالبًا منها الحضور، في هدوء نهضت، وهي تربت على رأس كلبه الذي تبعها إلى السلالم الجانبية ليصعدا معًا حيث يجلس.

ركض الكلب نحوه ليأخذه بين ذراعيه، ويحتضنه في شوق، بينما وقفت هي مكانها في سكون، حين اعتدل بمقعده، وجلست بعد أن منحها الإذن بذلك رفع رأسه ينظر إليها..

كبرت في الأعمار التي تقارب الأربعة، زاد طولها واستدار جدها وشفيت أصابعها التي جاءت بها متورمة وبقيت تحت العلاج شهورًا. وضع كفه على رأس كلبه يمسح عليه، وقال في عريته التي تحب لكتتها وإن كانت تجد بعض الصعوبة في فهمها:

- الوقوف على خشبة "تياترو ألاسكالا" يختلف عن مسارح المدارس، هل أنت حقًا مستعدة؟!

أومأت بالإيجاب، ورأى كلبه ينهض من تحت كفه ليذهب ويجلس تحت ذراعها الذي رفعته لتضمه إليها..

نهض عن مقعده في طريقه إلى الداخل قائلاً:

- تتوقف جميع البروفات في الأيام القادمة، تأتين معي ليلة العرض إلى الاسكالا في بروفة نهائية.

انحنى على رأسها، وهمس:

- تغنين الأغنية التي أعدناها، وإن نجحت وصفق لك الجمهور
كما صفق لي لك أغنية تختارينها وتغنينها دون موسيقى، ولك أيضًا
عندي مفاجأة لا تحلمين بها.. اجتهدى، اجتهدى كثيرًا ولن تندمين!!
استدارت خلفه واقفة تنظر إليه في دهشة ما زالت تسكنها رغم
انقضاء الأعوام، في صوتها الهادئ قالت:

- سيد بجادا!!

حين استدار ينظر إليها أرخت عينها في خجل، لا تستطيع أبدًا أن
تخبره ما يدور في صدرها..

أربعة أعوام تقريبًا تحيا معه في ذات البيت لكن ما زال كيوم رآته،
هو السيد وهي التلميذ..

ضحك ضحكة صغيرة، وقال في صخب مرير:

- لا تقولي شيئًا، غدًا أذهب إلى "ميلان دوم" وأشتري لك ثوبًا من
"فرساتشي" لترتديه يوم الحفل..

لا تتعجلي الألم يسر، لا تتعجليه!!

ظنت أنها تركض نحو السلام، فإذا بها نحو حرب ظالمة كانت
تسرع الخطى!!

ظنت أن رحلتها مع الألم والشقاء في نهايتها وإذا بها كانت تتعجل
ألمًا أكبر وشقاء بلا حدود!!

أعاد عليها القصة عشرات المرات، ويعنيها رأت عشرات الدمعات
تسقط على لحيته البيضاء الكثيفة وهو يخبرها بكل التفاصيل والظنون،
وحين أعياء طول صمتها، وفي صوت بالك قال غريب:

- سيدة أوليجا، الغندور لا يعرف شيئًا، فريد ما زال يزورني بين
الحين والآخر ظنًا منه أنني أعرف عنها شيئًا، لكن أشعر أنها بخير، إن
كانت حقًا على تلك المركب فلقد نجت، وإن هربت فهي أيضًا بإذن
الله بخير.. لم تكن هي المرأة التي ماتت على المركب اللعين.

مضى عليها أكثر من ساعة منذ دخلت بيته ورأسها ملقى بين كتفيها،
وهو يحكي ويعيد ويكرر، ما حركت رأسها ولا رفعت عينيها..

لم تتغير كثيرًا السيدة أوليجا لكنها ازدادت جمودًا وصلابة فقط لو
يعرف كيف يجعلها تتحدث..

نهضت عن مقعدها، واتجهت نحو باب الغريب، تبعها يقول كلمات كثيرة لا يظنها تسمعها وحين سألتها إلى أين.. وقفت واستدارت تنظر إليه وتخبره أنها إلى الغندور تذهب..

أمسك بذراعها، وأقسم عليها ألا تفعل، الغندور ليس في أفضل أحواله، منذ طلق ولده زوجته وهو يزداد صلاقة وتعالٍ، خاصة بعد ما تردد عن عجز ولده عن الإنجاب..

لا شيء من زيارته ستجنيه سوى الألم، هم لا يعرفون شيئاً.. انتفضت، وهي تشعر بيده تمك ذراعها وصوته يرجوها، وقالت: - إن كان لا يعرف عنها شيئاً فليعرف أنني أتألم، فليعلم أنه كان سيئاً في قتل عصمت حين تركه نصف رجل فقط لكي يتخلص منه. صاحت تخبره أن الغندور يجب أن يعرف كيف قضت في السجن أعواماً، وفي الذل والألم والحرمان، وأكملت تصيح:

- الغندور يجب أن يبحث عنها معي، ليس بماله لكن بمال أبيها لا أملك شيئاً يا غريب، استدنت ثمن تذكرتي التي اشتريتها قبل أن أغسل عن جسدي تراب السجن، فليمنحني من مالها ومال أبيها ما أصل به إليها، أو إلى اليقين.

صاح الغريب في ألم يقول:

- الغندور؟! لا يريد عودتها، يسر هزمته وفضحته هو وولده ليلة زواجه منها، ينفق جميع ماله ولا تعود..

لم تعد تملك السيطرة على نفسها، أو دمعها فصاحت تقاطعه:

- لم يطلقني عصمت، لي في ماله نصيب.

أرعى رأسه يقول:

- لم يكن يملك شيئاً، حتى بيت الدقي وشقة وسط البلد، كنت أدفع
النواتير وأعلم أن كل شيء باسم الغندور الكبير..

لا تريد أبداً أن تصدق ما يقول، لا تريد أبداً أن تأس من أمل عاشت
عليه لكنها صاحت كأنها تن:

- أولمه إذن، أولمه بالكلمات والدمع علني أنشفى..

نكس رأسه، وقال:

- يا سيدتي وأختي وحييتي، هناك أناس خلقهم الله ليؤلّموا سواهم،
هم كالغندور بالألم لا يشعرون!!

أخذت أوليغا تلمت حولها وهي تبكي ثم ألقت بنفسها على كتفي
المعجوز تردد:

- ضاعت يسر؟ فقدتها هي وعصمت؟!

يوماً كانت تضمه كهذا العناق، يوم مات ولده ولحقت به زوجته.

أخذ يربت على كتفها في حنان كيوم كانت تربت فيه على كتفيه
وأخذ يردد:

- أنا باقي معك حتى تعود، كما أعادك الله لي يعيدها لي ولك، هو
كبير يا أوليغا..

كبير وقدير!!



الشيب والصبا كلاهما أقوى من أن ندّعيهم مهما فعلنا، أو نخفيهم
مهما حاولنا!!

انتقى لها ثوباً أسود من الدانتيل الأسود، بأذنيها سمعته يخبر مصفف
الشعر والمكياج أنه يريد أن تبدو أكبر سنّاً، بجاد لا يهمه ما تريد، بل
هو حتى لا يتخيل أنها تريد شيئاً..

هو ككل العابرة مجنون يرى نفسه على رسم خطوات وملامح أي
إنسان أقدر من الإنسان ذاته!!

حين وقفت يسر أنام المرأة تنظر إلى خط الكحل الأسود العريض
فوق عينيها وإلى اللون الأحمر على شفتيها، حين رفعت عينيها ونظرت
إلى الخصلات النحيلة التي تسربت من رأسها في عناية حول باقي
شعرها المجموع فوق رأسها في بهاء ابتسمت في مرارة!!

ما زالت تبدو صبية صغيرة في بداية العشرينيات من عمرها، كان
يراقبها كما نراقب لوحة رسمناها، أو تمثالاً نحتمناه!! ليس حباً ولا
إعجاباً، بل هو تفقّداً وتفحصاً ورغبة في الكمال..

استدار في هدوء ليحضر صندوقاً أبيض لم تره من قبل، وأخرج
منه حذاء من الدانتيل الأسود مرصع بحجارة سوداء صغيرة تبرق في
جنون..

طلب منه أن تنهض عن مقعدها ودار حولها دورة كاملة..

الثوب جميل يصل حتى نهاية ساقها وبه فتحة طويلة على منتصف ساقها اليسرى تكشف عنها حتى نهاية فخذه..

كان مبهوّرًا لا بشخصها لكن بما خلقه منها وما جعلها عليه، انحنى بضع الحذاء أسفل قدميها وفتح كفيه يشير لها أن ترتديه..

له كعب عال وهي سوى أحذية الباليه لم ترتدي لكنها تدرك أنه لن يسمعها إن قالت ولن يدعن إن اعترضت..

رفعت قدميها ودخلت بهما في الحذاء لينحسر الثوب عن ساقها اليسرى وحتى أعلى فخذه، حاولت أن تتعلم أطرافه حولها لكن دون جدوى، الثوب ضيق وسبق ساقها مكشوفة وفخذه عاريًا كقلبها وروحها..

أمسك بيدها، وسار بها خارج الغرفة حتى وصل بها إلى مقعد في كواليس تياترو الاسكالا وانحنى على أذنيها يهمس:

- حين أناديك تدخلين، لا تنسي أن مفاجأة رائعة بانتظارك إن أجذب ما علمتك إياه.

ابتعد دون حتى أن ينتظر منها كلمة، رآته يحادث أعضاء الأوركسترا الكبير، وب نفسه يتفقد نوت الموسيقى، ويصلح من ثياب السيدات، ورباط عنق الرجال، وحين دق جرس اقتراب العرض رأت عينه بالخوف تشتعل.. كأنه طفل في لحظة!!

رأته يغلق عينيه، ويقرأ آيات قرآنية بلكنته العربية، وغابت في حيرتها..

ذاك القوى يكاد يرتجف؛ لأن موعد دخوله إلى مسرح اعتاد الوقوف عليه قد حان، يرتجف بينما تجلس هي على مقعدها في ثبات دون خوف أو اكتراث..

عادت تنظر إلى وجهه الوسيم، وشعره الذي يصل إلى نهايات عنقه ويكاد يلامس كتفيه، إلى حلته الأنيقة والعصا التي يمسكها في يديه.. هو يرتجف خوفاً؛ لأنه عاشق لموسيقاه وعمله..

فقط عندما نحب نخاف!!

هي لا تحب الغناء لهذا لا تخشى ما هي عليه مقبلة، لو كان هذا عرضاً للبالية لربما وقفت كما يقف ترتجف خوفاً وترقباً..

حين دقت الدقات الأخيرة رأته يفتح جفنيه ويتجه نحو خشبة مسرح قاعة تتسع لما يقارب من الثلاثة آلاف شخص، وقبل أن يدخل لمواجهة الجمهور نظر إليها كأنه يضع عليها ختم الموافقة وقال في هدوء:

- لن نخذليني بعد أربعة أعوام وأعدك أن مفاجأتي ستنال رضاك!!



ساعتان كاملتان تناثر فيهما يعود الأوركسترا الكبير الذي يعزف فيه
موسيقاه حيناً ويشاركهم العزف حيناً آخر..

ساعتان جاءت بعدهما لحظة الحصاد حين بقي منحنيًا ما يقارب
أربع ساعة أمام عاصفة التصفيق التي بدأت تهز جنبات "تاترو
الاسكالا" انتهى..

في هذه الدقائق طعمه وشرابه الذي يحيا عليه حتى الحفل القادم،
في هذه الدقائق التي يقف فيها الجمهور على قدميه عاجزًا عن التعبير
سوى مدق الأكتف هو يسني..

بكاد رأسه يحسب عدد اللحظات وعلو التصفيق، في انحناءته تلك
التي يرفع فيها رأسه لحظة يتجول خلالها بسرعة على الوجوه ويقرأ
السعادة التي صبغ بها روحهم، ينحني بعدها من جديد لثلا يرى أحد
تنهيدة صدره، وهي في ضلوعه تصيح:

"لا تخش شيئاً. مازلت كما أنت في أعينهم!!"

قبل أن يتحرك الحضور من صفوفهم إلى الخروج وللمرة الأولى
اعتدل فركال بجسده اظويل رافعاً كفه يستبقيهم ويطلب منهم الهدوء..

للمرة الأولى ربما في تاريخه الطويل يراه جمهوره يمسك بالميكرفون في يده..

هناك نساء حبست أنفاسها لا تصدق أنها سوف تسمع صوته لا موسيقاه، وهناك رجال رفعوا أكفهم كأنهم يتوسلون إلى الحضور سرعة التوقف عن التصفيق ليسمعوا ما سيعلن عنه..

لم يتحدث فور سكوتهم، بل كان سعيداً بذاك الترقب والخوف على ملامحهم وفي صوته الهادئ الهادر قال:

- جئت إيطاليا منذ عشرين عامًا لتفتح لي ذراعيها، علمتني وضمتني ومنحتني كل ما أملك وما كنتُ لا أظنني يومًا أملكه، أو حتى أملك حق الحلم به!!

اليوم وبعد عشرين عامًا أقدم لهذه الأرض هدية، زهرة من أرض الشرق التي يلفظ ترابها دومًا أزهاره، قضيتُ معها أربعة أعوام، علمتها ما علمتموني، منحتها بعضًا مما منحتموني واليوم أقدمها لكم، وأدعو الله أن تقبلوها مني!!

حين استدار وأشار لها بيده، حين نهضت عن مقعدها ودخلت لتقف في النقطة التي أمرها أن تقف فيها شعرت بخوف لم تدرك كنهه، رفعت عينيها تنظر إلى صفوف الحاضرين، ووقفت عيناها على الصف الأول لتجد بوسكيكي تجلس وإلى جوارها ألتر وفرنو، أغمضت جفنيها في ألم، تذكرت كل ما مر عليها..

تذكرت أيام المعسكر ولحظات الهرب، تذكرت وجه بوسكيمي،
وسمعت صوتها الساخر يقول "لا تمارسا الجنس هنا" ..

رعدة قوية سرت في جسدها لتلك الكلمات، أو لبدء الموسيقى ..
لا تستطيع أن تقاوم، هذا هو وجه عزيز الغائب عن الوعي، وهذه
ألمها تعصر قطع القماش من الثلج، وتمسرها على ثنياه، وتنحني بين
من وآخر تضع على جبهته، أو شفثيه قُبلاً لم يشعر بها ..
الموسيقى خلفها يعلو صوتها وعيناها ما زالتا على وجهه وذكريات
حيثها مغلقة ..

لا تستطيع أن تفتحهما، لا تريد أن ترى بوسكيمي، وجه هذه المرأة
يحلب الألم والذكريات ..

كانت تحاول أن تفتح جفניה لكن عصياها، ومن عاه بقوى على
نمرد الألم؟! ..

شعرت بنائم رائحة بجاد تقترب منها كأنه ما وجد غير الاقتراب
منها وسيلة تعود بها إلى ألاسكالا ..

سمعتة يهمس باسمها في قوة، انتفضت تفتح عينيها، وهي تسمع
صوته خلف المسرح حين قال "لن نخذليني بعد أربعة أعوام" ..

فتحت عينيها لترطم بعينه النائرة ..

من تجرع الخذلان لا يسقيه كؤوساً!!

الأغنية الأولى بالإيطالية، وأعاد بجداد موسيقاه من بدايتها، والتقطت أنفاسها واستعادت وعيها وبدأ صوتها يعلو بكلمات "أداچو" ..

حين فتحت عينيها ما أصبحت ترى سوى وجه أوليجا، وهي تراقصها رقصات الباليه، ورغماً عنها سقطت دمعاتها وهي تصيح بصوتها الهادر تغني وهي تشعر أنها لأمرها تفعل:

"لا أعرف أين أجذك أو كيف أصل إليك ..

مازلت أسمع صوتك وأشعر بك داخل جدي ..

تحيا في قلبي وروحي ..

كل هذه الليالي بدونك

ومازلت أنتظر ..

أعلم أنك في اللحظة المناسبة تعود وأسقط بين ذراعيك ..

حاربت كثيراً .. جاهدت كثيراً وصليت كثيراً

من الحرب والصلاة اكتفيت ..

ما عاد عندي شيئاً أفعله سوى الموسيقى والغناء !!

عليك أنت أن تعجني قبل أن يموت الأمل ويتنحر الدعاء ..

لا تدع هذا الضوء يتلاشى

لا تدعني أفقد ما بقي من أمل وما أقتات من إيمان ..

فلنعد معاً ولأسقط بين ذراعيك ولو لحظات !!"

حتى بروفة الأمس النهائية كانت لا ترى سوى عزيز، وهي تغني لكنها الآن وهي أمام هذا الجمهور الكبير لا ترى سوى ذراعي أمها ورائحتها.. هذه الدموع التي ترحف على وجتها وصوتها الذي يهدر في جنبات المسرح يقشعون الغمام عن عينيها..

عزيز وإن كانت ما زالت تذوب فيه خائن كعمها وولده.. كغريب وأيامه.. أمها هي الأرض والسكن..

مع الكلمات الأخيرة في الأغنية، انثنت على ركبتيها على أرض المسرح، وما زال صوتها يهدر رغم عاصفة التصفيق الهوجاء التي هبت على المكان..

لم يصدق أحد من الجمهور أن هذه الغاتنة الصبية لم تولد وتنشأ في شوارع إيطاليا، حتى لكتها تؤكد أنها منهم..

وقفت بوسكيكي تصفق وتنظر إلى بجاد في انبهار..

خلفها من جديد في أربعة أعوام، ليست أبدًا تلك الفتاة التي لا تعرف سوى كلمات إيطالية بسيطة، ليست أبدًا تلك الكبيرة ذات الأصابع المتورمة.

هكذا تخرج النساء من تحت أصابع فيركال.

كان ألترو يصفق إلى جوارها، ويصبح لتسمعه يخبرها أنه لا يصدق أن هذه هي التي أرسلها لها لتغسل الصحون، وتمسح الملاعق والساكين..

لم يكن التصفيق يخبو، بل كان يعلو ويطلب منها أن تعيد الغناء،
واستدار بجأده إلى الجمهور يعلن أنها ستغنيها ولكن بالإنجليزية هذه
المرة..

إلى يسر ذهب ومنحها كفه لتهض ونظر إلى عينيها الدامعتين، يعلم
جيداً أنها لم تنحن راحة تأثراً بالغناء، أو الكلمات.
يسر تعاني الحرمان والضياع وأحياناً وحدهما من يصنعان العظمة
والعظماء..

نهض بها وبقياً معاً حتى عاد الهدوء، وعاد صوتها يعلو بذات الأغنية
الشهيرة التي غتها "لارا فايان"، وحين انتهت من إعادتها للمرة الثالثة
شعر فركال أن جمهوره ما صفق يوماً لفايان كما صفق ليسر، خلال
موجات التصفيق الحاد وما زال الستار مفتوحاً نظراً إليها وأخرج من
جيبه علبة صغيرة منحها إياها، وهو يهمس "تستحقينها وأكثر"!

دارت عيناها بينه وبين الجمهور الكبير ولم تقاوم، فتحتها وحين
رأت ما فيها نظرت إليه في شحوب كبير، وعادت تنظر إلى بوسكي،
وكل من خلفها ممن يظنون أنه خاتم زواج وبكت كطفلة صغيرة.

ضمها إلى صدره في زهو نحّات يرفع الغطاء عن تمثاله، ضمها في
قوة وسمعها من بين أنين بكائها تقول:

- أعد لي أمي كما أعدت لي قرطها.. أرجوك!



ضمته إلى صدرها في قوة وشعر أنها تودعه الوداع الأخير، ابتعد بها عن صدره ونظر إلى عينيها التي تقاوم دمعة، وقال:
- إليزابيثا، سأحضر دومًا في موعدتي..

بابتسامة صغيرة مريرة نظرت إلى عينيها، ومدت كفها تمسح على شعره الناعم، واستدارت تنظر إلى يسر التي تقف إلى جواره ترقبهما، وقالت:

- لن أنتظرك ولن تأتي، لن تركها أبدًا وتأتي، هو الفراق، حان دورها وانقضى عهدنا أيها العبقري!!

لم تنتظر أبدًا كلمة منه، بل خطت نحو يسر التي كان ألثرو يعانقها ويسكب قصائد انبهاره في أذنيها، وقالت:

- تجاوزت كل التوقعات أينها الساحرة الصغيرة..

لم تستطع يسر أبدًا أن تدعي أنها لم تسمع ما دار بين بوسكيمي ورجلها وفي كلمات بسيطة واضحة بالإيطالية أخبرتها ألا شيء بينهما، هو أستاذ وهي تلميذة لا أكثر..

ضحكة عالية صاخبة أطلقتها بوسكيمي، وهي تلتقط شالها الأسود من على المقعد الذي جلست عليه، وقبل أن تمضي أمسكت بذراعها تقول:

- بل هو طفل عبقرى شَكَّل بأصابعه دمية، لن يتركك يسر، ولن تعرفي أبدًا كيف تتركينه..

الأطفال والعباقرة لا يتركون دُمى صنعوها من الهواء، وإن فعلوا لا يتركونها إلا حطامًا وقطعًا متناثرة!!

على حافة بحيرة "كومو" جلست كعادتها تنظر إلى مياهها الفضية
في مسكون..

أصبحت يسر الغندور مسجينة داخل زنزانة من ذهب خالص..

سبعة أعوام مرت منذ دخولها مقاطعة فير كال..

أربعة أعوام من الدراسة والتعليم حتى ليلة غنائها الأولى على تياترو
الاسكاللا، وثلاثة أعوام منذ ذاك التصفيق الذي زلزل جنبات المسرح،
وهز مشاعر الشعب الإيطالي بأكمله..

عشرات العروض بالغناء.. أرقام كبيرة ووجوه كثيرة تطاردها..

كان بچناد في الشهور الأولى بعد ذاك الحفل يخبرها بكل شيء
يدور..

لم يأخذ رأيها يومًا، بل وحده حدد أجزرها ووحدته اختار لها أي
حفلة تغنيه بعدها وأي أوركسترا تجلس خلفها، وحتى لون ثوبها وحده
من يختاره ويقرره..

الشهرة والثراء جنباء إن عرفوا طريقك لازموك وطاردوك حتى تعمل
وجودهم، وإن كنت تكره غدرهم ورحيلهم..

ما زالت تقطن الملحق الصغير، حين توالى شبكات النقود عليها
سألته إن كان عليها أن تنتقل إلى سكن مستقل، أو تدفع نظير كل ما فعله
معهما وما أنفقه عليها من دروس موسيقى ولغة..

ضحك يومها، وقال ما لم تفهمه إلا بمرور الأيام..

قال لها، وهل نأخذ ما صرفناه على أرض بور حولناها إلى بستان؟!
في الأعوام الثلاثة الماضية أدركت أنه يراها مفرش الحرير الذي من
خيوط رخيصة متفرقة غزلناه..

يرaha كتمثال من حجارة، وصخر نحتناه، ثم في ميدان كبير وضعناه
ليس أبداً ليرى الزوار والمارة جماله، بل ليرى الخلق جميعاً قدرتنا
وعظمة أصابعنا..

تشعر أنها أجمل قطعة موسيقية كتبها، تشعر أنها عنده أغلى لحن
قدمه على مدى أعوام عمره..

تنهدت في ألم، وهي ترى "دونجو" يقترب نحوها ويجلس إلى
جوارها..

مدت ذراعها لتضمه إلى صدرها في حنان، أخذت تربت على
رأسه في حب كبير، واستدارت تنظر بطرف عينيها إلى غرفته الزجاجية
الكبيرة التي يعزف فيها موسيقاه ويكتب الجديد منها بين زواياها..

مسكين هو، بل مسكين كل مبدع يكتب موسيقى، أو يُلقي شعراً، أو
يرسم صورة..

شهور تراه يتمزق خلف جدران غرفته، أحيانًا تراه يشور ويصرخ في
الم حين تعصاه الموسيقى أو يكره ما أضاع أيامًا وأسابيع في كتابته..

بيكي كالأطفال وهو يكتب حروفه الموسيقية، بيكي وهو ينتظر
حفله السنوي وفي لحظة يضع قناع الكبرياء والجمود، ثم يخطو على
المسرح ويرفع عصاه الصغيرة لبدأ جمع الحصاد.. بائسة هي حياته
وأصبحت حياتها أشبه بها..

ثلاثة أعوام مرت، أقامت فيهم سبع حفلات بأغنيات خاصة بها،
وحده اختار كلماتها ومن يقومون بتلحينها ويتابع بروفاتها ويقف
كالجدار الأصم بينها وبين المتعهدين والصحفيين..

لكنها سجينة مثله، سجينة داخل هذه الشهوة الكبيرة التي تسيطر
على الناجحين..

شهوة البقاء في المقدمة!!

تعبت ولا تريد أبدًا أن ينتهي بها الأمر في بيت مجاور له ولكل
المشاهير..

ما زال بداخلها طفلة تبحث عن أمها، ما زال بداخلها عاشقة تشاق
إلى رجل أحبه، وإن سرقها وهرب..

تخشى أن تتزلق الأعوام من بين أصابعها كما انزلقت الأعوام
السبعة الماضية لكن كيف بالله تخبره وما البديل؟

أصبح بإمكانها أن تسافر كيف شاءت، بل وينقودها التي كسبتها
ولكن إلى أين؟

مصر؟!

غريب؟! من يعلم.. ربما مات وإن كان حيًا.. ماذا من لقائه تريد؟!
خذلها يومًا، فهل تقطع كل هذه الأميال لتخبره أنها ما زالت تحبه؟
وهل تحتمل خبر موته إن مات؟!

الغندور؟!

هل تذهب إلى عمها وتريه كيف أصبحت ومن أصبحت؟! هل
تبصق في وجه زوجة عمها وتخرج لهم أسطوانات حفلاتها ليروا
كيف يصفق لها الناس؟ وكيف تنحني لها الرؤوس وتدمع من غنائها
الأعين..

ما زالت تخاف الغندور!!

ما زالت رغم كل شيء تخشاه، وتعلم أنه سيشيخ بوجهه عنها
ويخبرها أنها فاسقة امتهنت الفجور والغناء كما كانت أمها تمتهن
الرقص!!

بكفها ضغطت على رأس "دونجو" في قوة..

آه بحجم الأرض والسماء..

آه عميقة جريحة تقطر دمًا وحزنًا ودمعًا..

أمها!!

كتبت اسمها على شاشة الكمبيوتر ألف مرة ولم تصل إلى شيء..

تضرعت إلى بجاد ألف مرة ترجوه أن ينفق كل ما كسبه في البحث عنها، وأخبرها أنه لم يصل إلى شيء..

كل التصنيف لا يعني لها شيئاً.. كل الصور والأخبار عنها.. كل الجمهور الذي أصبح يصطف على باب مسرح تغني فيه وتمر من بينهم على وقع صراخهم وترديدهم لاسمها يساوي صفراً كبيراً إن جاء اسم أمها على رأسها..

تريد أمها أكثر كما تريد عودة عزيز ليضمها وتضم تفاحته التي تحب..

تريد أمها أكثر مما تريد الحياة التي ترى نفسها فارقتهما يوم رأت حنان نموت غرقاً هي وطفلها..

هي وبجاد موتى برتبة مشاهير!!

كلاهما لا شيء أكثر من أدوات لإسعاد الآخرين..

هو لغوره يظن أنه وأنها يخلقون لهم حياة بالموسيقى والغناء لكن وحدها تعلم أنهم يمزقون أضلعهم ويفتون أرواحهم ويُزهقون عمرهم من أجل حفنة نقود وبعض أبناء وصور!!

أبعدت يدها عن رأس رفيقها في هدوء ونهضت تقف على قدميها وأغمضت عينيها التي التقطت بهما بجاد في غرفته الزجاجة يلقي كمادته ببعض أوراق ما كتبه في سماء الغرفة ويرمي برأسه بين كفيه في ألم ويأس..

نهضت ترقص على ساقها على أطراف البحيرة..

ما زال الباليه وحده أداة تعبيرها عن حزنها وفرحها وخوفها..

ما عادت أبدًا تريد احترامه..

عندما نحترف فنًا نحبه يقتلنا، وهي تريد فنًا من الموت والسجن

يحررها..

رقصت كثيرًا وطويلاً.. دارت وطار، انثنت وانحنيت.

هذا الثوب لا يناسبك يسر!!

لا تنظري إلى من يجلسون على المائدة التي خلفك!!

حين يطلبون النقاط صورة يجب أن تكون ابتسامتك صغيرة فهي

صورة رسمية..

لا تأكلي السكر فهو يؤثر على صوتك..

لا تسيري في الجزيرة على قدميك سيلنفون حولك..

كانت تسمع كل تعليماته في الأعوام الثلاثة الماضية وتتألم رقصًا

وحزنًا والمآ..

لا الفقر أسعدها ولا النجاح أنصفها!!

هي سجيئة منذ الميلاد، وإن بقيت هنا تغني ستبقى حتى الممات!!

حين أنهت رقصتها الطويلة، حين رفعت ظهرها ووقفت بعد

سقوطها على الأرض رأت مركبًا تحمل بعضًا من السياح ينظرون

نحوها مبهورين يلوحون بأكفهم ويصفقون.. رفعت يدها تلوح لهم..

لم يروا سوى رقصها لكن لا أحد منهم يرى دمعها، أو رأى تمزقها
وتفتتها..

استدارت تمضي نحو الملحق الذي تسكنه، ورأته من خلف زجاج
صومعته يلوح لها..

وقفت مكانها تنتظره وحين أصبح أمامها نظرت إليه في إشفاق
كبير..

هو يتألم ولا تريد أبدًا أن تفجعه في ما صنعه منها، هو أيضًا يعلم أنها
تتألم لكن لا يملك أبدًا أن يتركها تهدم كل ما بناه وخلقه..

كان صدرها يتهدج، وأنفاسها تتلاحق بعد طول رقصها، ومد كفه
يعود بخصلات شعرها إلى الخلف..

كيف لا يرى فيها سوى صوتها وموسيقاه..

كيف لم يلحظ أبدًا أنها أصبحت في السادسة والعشرين من العمر؟!
لكن هل رأى في نفسه شيئًا سوى الموسيقى؟ وهل حقًا يدرك كم
أصبح عمره وهو ما زال وحيدًا بعيدًا عن وطنه إلا من كلبه وذكرياته!!
كانت دموعها ترقص ذات الرقصة في عينيه، وسألها في صدق:

— ماذا تريدين؟!

دون وعي، أو شعور رمت برأسها على صدره وهي تبكي في جنون
تقول:

- لا أريد أن أكون مثلك، بل لا أستطيع .. لا أستطيع أن أكون مثلك ..
 لا أرى الموسيقى رسالة ولا الغناء نبوة .. لا أريد أبداً أن أفيق لأجد
 رأسي مكسواً بالشعر الأبيض كرأسك وأجد نفسي ما زالت سجيئة ..
 أريد أمي .. وحدها وطني وحرיתי !!

أتاه النبا العظيم من شفتي طفلة!!

يسر أخبرته بالفاجعة..

”هو سجين.. هو عجوز، وهي لا تريد أن تصبح مثله“..

رفع رأسه المتدلي فوق عنقه ونظر حوله نظرة سريعة ثابتة..

هذا القصر الكبير الذي يمرون من أمامه ويلتقطون له الصور..

هذا التاريخ العظيم وهذه الموسيقى التي تبقى إلى آخر يوم تدور فيه

الأرض.. طاقم الموظفين ومواعيد السفر.. حسناوات وصل إليهن،

وأخريات يحلمن بليلة بين ذراعيه.. كؤوس الكريستال وصحون

الفضة وغرفة الملابس والأحذية.. آه يا يسر!!

كل هذا السجين!!

لأنه صنع منها آلهة للغناء.. لأنها لم تحفر طريقها في صخور الألم

وخنادق الوجد.. هيا لها السكن والدروس حتى وجدت نفسها في

لحظة معجزة تتحدث عنها إيطاليا وسكانها..

لأنه ما زال حولها لكن يَم هو حولها؟!

لايمانه بها؟! لحيه لها؟! لكرمه وطيبة معدنه؟!

أبدا!!

الصغيرة على حق!!

فركال فعل كل هذا؛ لأنه سجين جنونه بنفسه..

جنونه بشعوره أنه من لا شيء يصنع كل شيء.. من الخيال يكتب
موسيقى تهتز لها الأرواح، ومن تلك البائسة ذات الأصابع المتورمة
خلق أسطورة الغناء..

هو سجين نرجسيته لكن ما اختارها، بل اختاره الله ليكون وتكون
من بعده الموسيقى والغناء!!

إن كان الشعراء يطلقون على أنفسهم أنصاف آلهة، فهو يرى أنه
تعدى النصف بقليل..

وطنه ووطنها لفظاهما!!

وطنه أوراق الموسيقى وجروفها.. هويته عصا الأوركسترا وآلاتها..
مع كل شعرة بيضاء تحدثت عنها خلق قطعة موسيقية يموت
وتموت أجيال وتبقى هي صفارة الشفاه، وزاد الأرواح!!

ملايين البشر تولد وتموت.. تأتي وتذهب ولا يبقى بعدها سوى
نقود ينفقونها، أو ثياب يتخلصون منها، أو حتى ذكريات يجترونها،
لكن هو وهي تأتي الأجيال وتذهب ويبقى ما قدماء خالداً لا يموت..

تريد أمها؟!

وعدها أن يجدها لها لكن يخشى إن فعل أن تتبعها وتمضي.. لا
يحتمل أبداً أن تمضي..

لو أنها مضت قبل أن تصبح ما جعلها عليه ما اكترث.. لكن يسر
اليوم ملك له وحده..

هي صغيرة، وللمصغار دومًا حلوى يذوبون فيها..
أخطأ حين ظن المجد يرونها..

عندما يكوها الشعر الأبيض كما كساه به قد تكتفي وله قد نفي!!
لن يتركها أبدًا تقتل ما خلقه منها.. هو وهي معًا الكمال في أجل
صوره!!

في هدوء رفع سماعة هاتف مكتبه وحادث أحد أفراد طاقم عمله
ليقول:

- نلتقي بعد ساعة في مقهى المدينة.. فلتكن معك قائمة بأسماء
أشخاص نختار منهم من يسافر إلى روسيا ليعود بأنباء امرأة أريد
الوصول إليها!!

حين أغلق باب الطائرة، وأعلنوا استعدادها للإقلاع، ومع ركض عجلاتها على أرض المطار شعرت بدموعها تركض وهي تنظر من النافذة الصغيرة إلى أرض مصر..

يومًا جاءت هاربة من تهمة قتل ويومًا عادت فائزة من استسلامها وتمزقها واليوم تعود أوليجا كسيرة بعد موت عصمت وغياب ابتها! مم هربت في المرة الأولى؟ هربت من شوقها إلى زوجها وكبريائها الذي تمنعها عنه.. هربت من تمزقها بين سقوط الاحترام وانتصاب الاحتياج..

فرت من رفضها لاسم أوليجا وشوقها إلى اسمها الحقيقي.. من موت عبدالرحمن وعجزها عن مساعدة أبيه..

كان في خزانة عصمت مبلغ كبير تركت منه جزءًا لابتها مع غريب، وظنت أنها بالباقي تجد محاميًا يدافع عنها.. لحظة وصولها المطار تم القبض عليها..

ماتت أوليجا باريشينكوف الحقيقية حسب السجلات، وظهر ذلك على شاشة الكمبيوتر التي وقفت هي أمام ضابط المطار الذي يعمل عليها ليتسم لها ابنسامة صغيرة، ثم بعدها إلقاء القبض عليها.. حتى

النقود التي سرقها من زوجها أصبحت دليلاً آخر ضدها، افتادوها إلى السجن لتنفيذ حكم المؤبد الذي سبق وصدر غيابياً..

في السجن سقطت كل الأقنعة التي ارتدتها على وجهها ومشاعرها.. علمت أنها ما كان يجب أن تعود أو تهرب..

علمت أن ذراعي عصمت على رائحة النساء التي تخرج منها أرحم بها من أذرع السجينات والسجانات حولها..

علمت أن الحرية ليست حكماً بالبراءة، أو عودة إلى اسمها القديم، أو تحررها من خيانة رجل أحبته.. الحرية هي أن ترقص إلى جوار ابنتها وتضمها على فراشهما لتناما معاً في سلام..

سامحت عصمت في أعوام السجن، واستغفرت ربها كل ليلة عن تركها لصغيرتها لوهم التحرر والبراءة..

هم في بلادها لم يسمعوها، وعلمت أنهم لا يختلفون عن الغندور في شيء.. الأرض مسكونة بالظلم ولم يعد قاصراً على دول وأشخاص!! أحكام صدرت يجب أن تنفذ..

الغندور كان يراها روسية هاربة، وراقصة ماجنة، وبلادها تراها هاربة من حكم قضائي لا تستحق حتى الدفاع عنها..

في ظلمات السجن مات فيها الأمل، وانكسر الكثير من الكبرياء، ورغم ذلك بقيت في كل عام وفي كل يوم تحلم بابتها وترسم لها صورة بملامح جديدة..

كتبت لابتها رسائل كثيرة.. ظنتها تقرأها بعد موتها في السجن لكن شاء القدر أن يختلف اللسان اللذان سرقا المرأة، وحين تم القبض على أحدهما في جريمة مشابهة أبى أن يُسجن وحده واعترف على رفيقه بالجريمة القديمة وبكل جرائمهما معًا حتى لا ينال العقاب وحده..

لم تصدق أبدًا أذنيها حين أخبرها مأمور السجن بالقصة.. أبعد كل هذه الأعوام والتجاعيد؟ أبعد اليأس وانتظار الموت يعلنون براءتها ويطلقون سراحها..

رقصت في زنزانها تلك الليلة رقصة فرح كبيرة، وعاهدت ربها أن تذهب إلى عصمت وترجوه أن يبدأ معها صفحة جديدة..

لا تظنه تزوج بعدها.. ولا تظنه رغم النساء نسيها..

في تلك الليلة، وحين سقطت في سجنها لتنام كانت تفتح عينيها كل لحظة والأخرى لتأكد أن ما كان هو الحقيقة وليس حلمًا من أحلام السجن..

حين غادرت السجن أخبروها أنهم سيمنحونها تعويضًا كبيرًا.. ظنت يومها أن السماء تعوضها..

استدانت ثمن التذكرة، وبجوار نافذة كهذه في طائرة كهذه حلمت أن تجد عصمت، وقد غل غيابها عن عيني الغمام ليأخذها هي وابنته بين ذراعيه..

بجوار نافذة كهذه في طائرة كهذه كانت تنتظر أن تلتقيه لتخبره أن نقود الغندور ملعونة وأنها ستأخذه هي وابنتها إلى بلادها، وينقود

التعويض ينسى كل منهما ما كان ويبدأن ويسر معهما حياة جديدة لا
آثام فيها ولا تهم!!

ها هي تعود إلى جوار ذات النافذة، وربما ذات الطائرة، وقد
أصبحت بريئة من تهمة القتل وفي طريقها إلى مبلغ كبير يغنيها عن
السؤال والتسول لكنها عادت أرملة كسيحة..

مات الرجل الذي أحبه، وقررت الصفح عنه، وضاعت الابنة التي
ظنت أنها بها تصفح عن الظلم والسجن والأثم.. لا تصدق أبدًا أنها
حُرمت من بسر إلى الممات..

”الله ليس قاسيًا.. كتب على نفسه الرحمة“..

آخر كلمات سكبها الغريب، وهو يودعها على باب المطار ويخبرها
أنه سيجد لها بيتًا في الإسكندرية تشتريه، أو تؤجره عند عودتها بمبلغ
التعويض..

هل تعود؟!؟

وهل رغم شكها في ظهور ابنتها أو كونها على قيد الحياة تستطيع
ألا تعود!!؟

هل الغندور الكبير سعيد؟! هل هو حقًا بموت أخيه وضياع ابنته
متشئ؟!؟

قلبها كهذا التراب الذي يكسو سماء مصر التي تحلق فوقها وبعيدًا
عنها..

كتب على نفسه الرحمة.. فليرحم الابنة أينما كانت وليرحم الأم
التي تحملها طائفة تلو الطائفة وما زالت لا تعلم أين المرسى!!
لمسة خاطفة سريعة شعرت بها على كتفيها لتتظر بعدها من خلف
غمائم دمعها نحو المضيفة التي قالت:

- سيدني.. هل أحضر لك شيئاً؟ هل أنت بخير؟
أرخت أوليها رأسها في انكسار وهزت رأسها بالنفي..
كل من حضرت من أجلهم غابوا.. والخير كله في الأمل..
الأمل في من كتب على نفسه الرحمة!!



كان واضحًا جدًا أنها لم تنم لحظة واحدة.. حين فتحت باب غرفتها
ترتدي ملابس الخروج انتفضت أمها في ذعر تركض خلفها وتمسك
بذراعها، وقالت كأنها تبكي:

- مازلنا في الفجر يا ابتي؟! أين تذهبين؟

نفضت يدها عن ذراعها، ونظرت إليها في غضب من خلف عيونها
الغاضبة الباكية، وقالت:

- إليه.. إلى من دمرني.. إلى الغندور!!

رمى والدها بكوب الشاي من يده، وأسرع يلحق بها قبل أن تصل
باب البيت، ووقف خلفه يمنعها عن الخروج قائلاً:

- لن تجني شيئاً أبداً، كفانا فضائح وقصص.. فقدت أختي وما عاد
أحدنا يطبق النظر في وجه الآخر..

قاطعته في جنون، وهي تصيح:

- فقدت أختك وقبضت الثمن، لكن أنا إلى متى أدفع ثمن ما
قبضتموه؟ إلى متى يطاردني؟!!

بقي واقفاً خلف الباب، وهو يردد في صوت داعم:

- الغندور لا ذنب له في فعلة عادل.

بكل الجنون رمت بجسدها على جسد والدها ودفعته بعيداً عن باب البيت، وفتحته وهي تصيح:

- لست غبية فلا تكن ساذجاً..

انطلقت كالمنجونة في شوارع القرية التي بالكاد أشرقت عليها الشمس..

ثلاثة أعوام منذ طلقها.. ثلاثة أعوام لم ينظر رجل إليها، أو يطرق بابها..

لا تعلم كيف فعلها الغندورة في البداية ظنت أن عزوف شباب القرية عنها لكونها مطلقة، أو خجلاً من الغندورة لأنها كانت زوجة ابنه، أو ربما لظن سكانها أنها عاقر لا تنجب.. حين يشت من الانتظار نسجت شباكها حول عادل، فاشل فقير لكنه وسيم سبق له الزواج والإنجاب.. طارده كثيرًا، وهي تعلم أنه ما كان ليصدق أنها وبعد أن أصبح لديها، وأبيها نقود وأرض وبيت تطمع فيه.. استجاب لها حتى ظته بها مغرماً، منحه مبلغاً من المال ومبلغاً آخر وآخر حتى يتقدم لخطبتها..

تريد أن تزوج وتصبح أمًا، تريد أن تنسى فريد وعمتها، وأسوار قلعتهم التي ذبحت أنوثتها وكبرياءها..

جاء عادل وطلبها منذ شهر، أخبروه ألا يذيع النبا حتى موعد عقد القران، وبالأمس جاء يعتذر متعللاً بسفره.

كالعاصفة خرجت إليه، كالعاصفة أمام والدها صرخت تذكره بما منحه من نقود وما منحها من عهد..

كان وجهه كالحا بارداً كوجه أفعى، نظر إلى والدها ونهض عن مقعده يرمي بيدها التي التفت حول معصمه، أخبرها أن ما منحته من نقود لم يبق منه مليم، أنفق كل ما منحته على تجهيز بيت الزوجية، لكن هي إرادة الله أن ساق له عملاً في بلد بعيد..

أخبر في مجون ووقاحة إنه يريد الزواج من امرأة تنجب له أطفالاً ليكونوا أخوة لوحيده من زوجته الأولى..

كانها ما بكث على صدره مرات تخبره بقصة فريد، كأنها ما تناثرت شظايا على ذراعيه، ترجوه أن يعجل بالزواج منها لتنجب وتسترد كبرياءها المسفوك دمه أمام عائلة الغندور..

نفذ عادل يدها التي منحته حباً ومالاً وثقة وخرج لتبقى وحدها لا تنام حتى أشرق الصباح..

لن تعود قبل أن تنهي حساباتها مع الغندور!!

حين وصلت بوابة يتهم الكبير وقف عبد الجبار ينظر إليها في سكون، وهي تعبرها دون حتى أن تنتظر منه حرفاً واحداً.. ما زالت تعرف كل شبر في هذا البيت رغم أنها ظنت نفسها نسيته..

حين طرقت الباب وفتحته لها أمينة دخلت دون حتى أن تلقى عليها السلام..

دخلت لتقف في ردهة البيت تبتسم..

لا شيء تغير، هم على حالهم.. على مائدة الإفطار يجلسون..

كل العتاة والظلمة على حالهم باقون!!

دوماً أيامهم واحدة وقواعدهم ثابتة..

شعرت بعمتها تتفرض، وهي تراها أمامهم شعرت بفريد يمتنع وجهه هو الآخر، وأدارت عينها بسرعة إلى كبيرهم الذي ألقى بكسرة الخبز التي كانت بين أصابعه، وقال في برود:

- أهلاً.. هل تريدان مشاركتنا الإفطار؟!

صاحت كالمجنونة تسأله متى يرفع عنها لعناته، كانت تبكي وتلعن وتقسم ألا ذنب لها في أقدار ولده، فلم يريد أن يكتب هو أقدارها..

نظرت إلى عمتها، وصاحت تسألها أما كانت يوماً تقسم لها أنها ابتتها، فكيف اليوم أصبحت معه تحاربها..

استدارت إلى فريد الذي نهض عن مقعده، واقتربت منه تبكي،
قائلة:

- احتملت أعواماً ثلاثة.. احتملت نوم يسر بيننا، احتملت لوم عمتي وعباراتها، احتملت أسئلة أمي وبكاء أبي.. احتملت حياتي وأنا أرى حبنا ميتاً على وسادتنا ولا أريد شيئاً.. لا أطلب سوى أن تتركوني أحياناً.. لماذا.. لماذا يجب أن أموت؟!

وحده الغنا.زر الكبير اقترب منها، وأمسك بذراعها في قسوة قاتلاً:

- لأنك قبضتِ الثمن، يوم علمت بقصة فريد بقيتِ تطليين أرضاً وتكترين مالاً وتشترين بيتاً!! لو أنك عند عودتك من طبيب مصر

أعلنت الحقيقة لاحترمانك، لعبت لعبة قدرة وقبضت الثمن كاملاً، ولن نزيدك عليه من هبة الغنادة أبداً..

أعلنتك ألا رجلاً يتزوج بك بعده.. أعلنتك بها يوم خروجك والغندور إن قال فعل..

كانت كالمذهولة تنظر إليه، وعاد يقول:

- تريدين الزواج؟! أعيدي كل ما أخذته إن كنت صادقة.. أعيدي الأرض والمال والبيت؟!!

هل يقبل والدك، هل تعود أمك إلى البيت القديم؟ بل هل أنت نفسك تفعلين؟ هل تعودين لافتراش الأرض بعد اعتيادك نوم الأسرة والوسائد الوفيرة؟

لا تظنها أبداً تفعل، وإن فعلت وقبل أبوها تعلم علم اليقين ألا رجل في دمرو حينها يتزوجها..

أرخص الغندور يده عنها، وقال:

- إن كانت حاجتك رجل.. يعيدك ولدي إلى عهته..

انتفض فريد يقول:

- بعد تمرغك بين ذراعي عادل لا أريد.. أخبرنا كل شيء!!

في قوة قال الغندور:

- بل إن شاءت تعيدها، ما زالت ابنة خالك، وما زالت زوجتك

السابقة.. هل تريدين العودة إلينا؟!!

في هدوء خطت نحو الباب..
 هي الآن تعلم ما ستفعل وما تريد..
 ما عاد أمامها سوى الرحيل عن دمرو بأكملها..
 حيث يحيا الغندور لا حياة ولا أمل!!

مها وجنينها في الجنة.. يعلم علم اليقين أنها هناك وما يدركه الآن
أن وأده لعشق يسر بداخله ليس وفاء لها، ولا عقابًا على نفسه ينزله..
هو لم يخطئ.. عجز عن حماية زوجته ليس لجنه، أو تقاعسه لكن
لأنه في نهاية الأمر ومتهاه إنسان ضعيف..

ليس حتى من حقه أن يعيد على نفسه ذات السؤاا الذي يجلد به
نفسه منذ أعوام..

لماذا أصرت مها أن تذهب إلى القاهرة.. لماذا بقيت أسابيع ترجوه
أن يأخذها إلى زيارة "الحسين" وتناول الطعام لدى "الجحش"..
ولماذا لم يصبر هو على رفضه..

لا أحد يعلم لماذا؟! حتى إن علم ما عادت الإجابة تغير مما كان
شيئًا..

كان سعيدًا وكان يريد لها سعادة.. وضع مبلغًا كبيرًا من المال في
جيبه وذهب بها إلى المحروسة.

زارت الحين، سمعها تدعوه ولجينها، وتتعهد أمام الله أن تطلق
عليه اسم أبيه..

اصطحبها إلى "الجحش" ثم إلى المحال الكثيرة الساهرة، اشترى لها ولوليدهما القادم كل ما أرادت..

في طريق عودتهما إلى محطة مصر ركبا سيارة "ميكرو باص" ليعودا إلى بلدتهما..

شعر أن سائقها ومن معه ليسوا بوعيبهم.. شعر بزوجته تضغط على يده خوفاً من نظراتهم لها وله..

لم يعبأ.. ظن لغرور شبابه أنه قوي وأنها معه، وأنهم لن يفعلوا شيئاً.. هم مجموعة من الحمقى الواقعين تحت تأثير ما اعتاده شباب البلاد من مخدرات..

غضب حين سمعها تسألهم لماذا هو الطريق طويل ومظلم.. ابتسم في ثقة كأنه يعلم صدقهم حين قال أحدهم إن الطريق مغلق، وهم يأخذون طريقاً مختصراً..

تحدث إليهم في بساطة، لكنه أدرك في لحظة أنها على حق.. حين وجدهم يقفون على أحد الطرق المهجورة، وحين حاول أن يفعل شيئاً أمسكوه كأنه قشة صغيرة، ألغوه خارج سيارتهم بعد أن أطلقوا عليه الرصاص وأفرغوا جيوبه..

لم يتعدوا بسيارتهم كثيراً، بقي يحاول أن يزحف على يديه ليصل إليهم.. كان يشعر أن ساقيه على خيطين صغيرين متصلتان بجسده، وكان يمتنى لو يعلم كيف يقص ذلك الخيط ويذهب لينقذها دونهما..

هكذا في لحظة أدرك أنه ضعيف، وأنها كانت طوال الأسابيع الماضية إلى هذه اللحظة السوداء تسعى..

كان يصرخ كلما سمعها تنن في ذاك الظلام.. لم يكن صراخه من نرف ساقه، ولا ألمها بل كان خجلاً من غبائه، وعجزه عن الوصول إليها..

ما عاد يذكر كم بقي وكم بقيت في الصراخ والبكاء؟..

كان يغيب عن وعيه ويعود، ويحاول أن يصل إليها..

ألقوا بها خارج سيارتهم بعد صوت رصاصة سمعها، وفي ذاك الظلام كان يرجوها أن ترد لكنها ما قالت حرفاً..

هزمه الألم، لم يستطع أبداً أن يصل إليها.. حتى صوته بدأ يخفت، وهو يردد عليها أن تصمد..

لا هي صمدت، ولا هو إليها وصل..

أفاق في إحدى مستشفيات القاهرة، علم أنها ماتت بعد نرفها إثر ما فعلوه بها، وبعد إلقائها من السيارة..

لحظات قد تصل إلى الساعة لكن يبقى سكينها، وتبقى ذكراها حتى قيام الساعة.. ما عاد بعدها على النظر في وجه أحد يستطيع..

ما عاد على النوم في فراش بيته يقوى..

أجروا له أكثر من عملية، بقي على عكازات يسير..

قرى دمياط جميعها وقفت إلى جواره، وعجز هو عن الوقوف بجوار نفسه..

حتى قبرها ما استطاع زيارته.. لم يكن هو من أغلقه عليها.. حين دفنوها كان غائباً في مخدر العمليات والتحقيقات..

تم القبض على الجناة ومحاكمتهم.. وهل يعيدها أن يُساقوا إلى السجن ما بقي من عمرهم؟! .

بقي كالشبح يسير في شوارع البلدة على عكازه حين ينامون، وينام حين يصبحون..

ما منعه عن الموت سوى علمه أنها في الجنة، وأنه إلى النار يساق..
 باع المحل، وحمل الثمن كاملاً إلى تجار الهجرة بعد محاولات كثيرة مع سفارات أوروبا انتهت جميعها بختم مربع كتب عليه "مرفوض".

وأي بلد تقبل زيارة ميت؟! .

ماتت فيه الرغبة في الحياة، وأيقظتها يسر.. مات فيه شعوره بالحب والنساء وحين نحسست تفاحة عنقه، علم وأدرك أن الله ما زال يريد، أن يعيا..

حين هرب منها منذ أعوام، وسرق نقودها، كان يخشى أن يبقى ويخذلها كما فعل مع زوجته..

مع نائم هذه البلاد أصبح يعلم أن من حقه وحفها أن يحييان..

كانت مها تصر على زيارة مصر؛ لأنها تسعى إلى قدرها فلم يجب
أن يهرب هو من قدره؟!

قدره أن يحيا رغم الرصاصات.. أن يحب تلك الفرائسة الراقصة
رغم موت قلبه ورحيل مشاعره..

الشجاعة أن يبحث عن يُسر.. الشجاعة الحقيقية هي الصنح
وليست إذلال النفس لذنب لا يد لها فيه..

منذ عادت رسالة بوسكيمي وبداخلها النقود التي ادّخر منها ما
ادخر، واستدان منها ما استدان من صديقه، وهو ممزق يتلوى بين السنة
لهب الجحيم، لا يعلم كيف يموت، أو يحيا!!

عزيز لن يهدأ إلا إن وجدها.. لقاءهما هذه المرة يختلف..

أصبح يعمل ويملك مالا، أصبح يدرك أنه يحبها، ويوقن أن مها في
الجنة أيضًا تغفر له..

يشعر أنه إن وجد يُسر وأعانها على عودة أمها، وعودتها إلى الغريب
واسترداد ميراث أبيها يجعله يغفر لنفسه، سيرتمي على قدميها، ويحكي
لها لِمَ سرقها وهرب..

سيكشف لها عن الرصاصات النائمة في ركبتيه، ويستعيد معها تلك
اللحظات التي كانت زوجته فيها تحتضر، وهو يعجز عن حتى الإمساك
بكفها..

ستسامحه وسامح نفسه معها، سيمنحها عمره، أو ما بقي منه وفي
الجنة لا غلّ في الصدور..

ستبقى معه هي ومها ووليدته الذي قتلوه جنينًا في بطن أمه في تلك اللحظات ..

لكن كيف يجدها وأين يبحث عنها؟

لا يظنها أبدًا عادت إلى مصر .. هي في إيطاليا، في كل إجازة يحصل عليها من عمله يذهب ويجرب الشوارع بحثًا عنها ..

سيدخر لها كل ما استطاع من نقود، ويذهب يوم يجدها ويشترى بغفرانها عنه صفحه عن نفسه وميلاده من جديد على كوكب الأرض قبل الرحيل إلى الجنة إن كانت الجنة حقًا مستفتح له بابها!!

اعتذر في أدب جيمّ، وأغلق هاتفه في ضيق..

تتوالى عليه المكالمات من كبار وأشهر مطربي أوروبا والأمريكتين
طلبًا للحن أغنية لهم..

ما كان أحدهم قبل ظهورها يجرؤ أن يطلب منه أن يلحن له أغنية
لكن لا أحد منهم يعرف الحقيقة..

يسر شيء آخر، هي معجزة حقيقية، توليفة سرية فيها من أم كلثوم
هديرها ومن فيروز حنانها، فيها من "جلوريا مايكل" قوتها، ومن
"ايدل" قدرتها على أن نبكيك إن شاءت، أو ترسم على وجهك بسمة
إن أرادت..

هي معجزة لفظها البحر كما لفظته الجزائر.. فقط معًا يكتملان!!
لكن غناءها في الحفل الأخير لم يكن أبدًا كما يريد.. صفق الحاضرون
كماداتهم لكن هي لم تكن كماداتها..

فيها شيء تغير، أصبحت أكثر ثقة وسعادة، منذ وعدّها بالبحث عن
أمها غاب عن صوتها رنة الألم العميقة تلك..

بالأمس أخبرته أنها حجزت تذاكر، وأنها أيضًا تخطط للسفر إلى
روسيا لتلتقي من يبحث عن أمها..

منذ شهر، وهو يعلم أن أمها بخير، لم يكن الوصول إلى أخبار "ناتاشا بافلوف" صعباً أبداً على المخبر الذي استأجره..

المرأة قضت أعواماً في السجن حتى شاءت الأقدار أن يتم الكشف عن الجاني الحقيقي ليفرج عنها..

سافرت الأم إلى مصر أسابيع، وعادت لتسلم التعويض، وتعود به إلى مصر لتستقر في مدينة الإسكندرية لتعمل كمدرسة باليه في مدرسة دولية صغيرة..

في لحظة كان سير كض إلى يُسر ويخبرها، بل كاد أن يحدث الأم، ويرسل لها تذكرة للحضور لكن بعد تفكير علم أنه سيفقدها إلى الأبد..

إن وجدت أمها، قد تركه وترك كل شيء وتعود معها.. حتى إن بقيت وبقيت معها ناتاشا يعلم أن شيئاً كبيراً في صوتها يموت..

شيء وحده يجعل من صوتها معجزة، شيء وحده يجعل من موسيقاه أسطورة..

الألم والانتظار!!

إن ماتا بداخلها وداخله أصبح "فيركال" موسيقياً عادياً كآلاف الرائيين ممن يملأون الأرض أنغاماً وألحاناً وأصبحت هي صوتنا جميلاً نسمعه، ثم نعود إلى يومنا دون اكتراث..

موسيقاه وصوتها بالألم وبالانتظار يبقيان حتى بعد أيام وشهور في صدر من سمعهما..

لم يستطع أن يخبرها أبدًا بالحقيقة عن أمها لكن حتى كتمانها الخبر
ما عاد يكفي..

زاد فيها الأمل عن الحد المطلوب، وعليه أن يعود به إلى معدله
القديم..

المعدل المقبول للأمل في حياة العظماء هو الحد الذي يجعل منه
ألمًا لا طوق نجاة!!



قد يبدو الأمر غريبًا كقصص الأطفال لكن حتى هي نفسها أصبحت
تؤمن أن لكل شيء هدفًا وغاية..

الغندور ما حاربها ليأخذ ميراث أبيها، بل حاربها لتصبح على حافة
صنع ثروة أكبر من ثروته!!

رصيدها وهي في هذا العمر يكاد يقترب من أرصدة الأثرياء،
أصبحت نجمة، أصابعها التي تورمت يومًا في تلميع صحون بوسكيمي
ترتوي اليوم من كريمات اللؤلؤ والأعشاب النادرة..

أصابع من يسمعونها وحدها تتورم من حدة التصفيق لها..
بدأت تعتاد الحياة أمام بحيرة "كومو" وبدأت تصدق أنها تألف
غياب تفاحة عزيز وبدأت تشعر بأذ. ليا على بهاد حقًا كبيرًا..

لا شيء بات ينقصها سوى أن يأتيها بأمها.. تثق أنه سيفعل..
من فعل كل ما فعله بإمكانه دون شك أن يجد امرأة غابت، ويعود
بها إلى ذراعي ابنتها، أو يأخذها لثراها إن كانت في السجن ما زالت!!
ستعود وأمها حين يطلقون سراحها بعد أن تجند للدفاع عنها كل
نقودها إلى بيت الغندور..

بل سترسل إلى فريد ووالديه تذاكر تدعوهم إلى زيارة إيطاليا وحضور حفل لها، وستكتب لهم في رسالتها "إن رفضوا منحكم التأشيرة فلتأخذكم أمينة إلى مراكب الهجرة، أو أرسل لكم دعوة مني"!!

قد لا تكون سعيدة بالغناء لكن بما وصلت إليه فانة حتى ظهور أمها..

ما زال عزيز في أوروبا، لا بد أنه سمع عنها، أو رآها.. تمنى لو يفعل، بل تحلم بلحظة يعود فيها إليها..

وضعت الثوب الذي كانت تحمله بين أصابعها لترتيبه في طريقها إلى الخروج لتناول العشاء مع بچاء، نظرت من خلف النافذة على ماء البحيرة وأرخت جفניה..

ماذا حقاً لو عاد عزيز؟

لِمَ تشعر أنها ما زالت تهواه؟

ما زالت تتمنى لو يضمها كما كان يفعل.. ما زالت في لبالها تمد أصابعها، وتحلم لو تتحسن ففاحة عنقه من جديد...!!

في هدوء أكملت ارتداء ثيابها، ووضعت زخات من أحدث عطور "توم فورد" على عنقها، وأطلقت شعرها، ونظرت إلى مرآتها في سكون..

"كوني صادقة مع نفسك لتجديني وأجذك" ..

تحسنت فرط أمها الذي أعاده لها، وابتسمت ابتسامة صغيرة
اعتلت بعدها حذاء له كعب، وحده أيضًا من علمها كيف تجيد الوقوف
عليه، خرجت إلى بوابة البيت الكبير حيث كان في سيارته ينتظرها،
ابتسم حين رآها ككل مرة كأنه يهنئ نفسه عليها وعلى ما صنعه منها..
دخلت إلى جواره، ولا تعلم لماذا تذكرت كلمات بوسكيמי
حين أخبرتها أنها دمية صنعها طفل عبقرى ولن يتركها أبدًا إلا قطعًا
صغيرة!!



حين وصلا إلى أحد أكثر المطاعم شهرة وأناقة.. حين تبعثهم
العين والتقط لهم البعض الصور.. حين ابتسمت والبعض يطلب منها
أن تكتب له كلمة، أو وهي ترى نساء كثيرات يضعن على وجنة فير كال
قبة بعد صورة، أو تحية هدأت..

هدأت على طاولة صغيرة في إحدى الزوايا اختارها بعيدًا عن باقي
أرجاء المطعم..

تحدثنا كثيرًا وطويلاً رغم أنهما في قلعة واحدة يعيشان، لكن هناك
لا يلتقيان إلا في عمل، أو من أجل عمل..

وضع كفه على يدها، وقال في هدوء:

- في وقت قليل حققت ما حققته أنا في عمر طويل.. قد تكونين
أصغر مني كثيرًا لكن أدرك وتدرकिन أننا أصبحنا وجهين لعمله إن غاب
أحد وجهيهما أصبحت لا قيمة لها..

كان أنيقًا وسيما جادًا كعادته، كانت تنظر إليه في حنان وامتنان،
وأيضًا ترقب كبير وأكمل يقول:

- ظننت أن تنقلي بين النساء والموسيقى بكفيني لكن وجودك هذه
الأعوام جعلني أزهدهن واحدة تلو الأخرى..

هو صادق رغم أنه يحمل لها في جعبته أكاذيب كبيرة، حقاً يريد الاحتفاظ بها، ويريد الإبقاء عليها والبقاء بقربها ما بقي من العمر، وضع كفه على يدها البضة، وقال:

- أنت أجمل قطعة موسيقية في عمري وأريدك معي ما بقي من العمر.. هل تتزوج؟!

لم تشعر أبدًا أنه فاجأها ولم تشعر أبدًا أنها تطير فرحًا، في أعوام عمرها القليلة رأت من الأرض وسكانها والبحر وأسواره ما يجعلها لا تطير، بل ترنو إلى الرسو على مرفأ..

تريد أن تحتمي به، وتعلم أنه على ذلك قادر، تريد أن تستند إليه وتعلم أنه يمنحها ما لم يمنحه يومًا لأحد..

ليست مجنونة به لكن كل من جنت بهم ذبحوها..

هي مجنونة بعزيز لكن العقل في ارتباطها برجل صنع منها شيئًا والأهم أنه سيعيد إليها روحها التي تملأ صدرها بحلم عودتها.

في صوت هامس قالت:

- لا أجد على الأرض من هو منك بي أولى أو أحق.. فقط أريد أمني أن تكون معي يوم زفافنا!!

شحن من صدره نفسًا عميقًا، وأمسك بكفها في قوة، وقال:

- حبيتي، ما عاد عندنا سوانا، ماتت ناناشا بافلوف بعد أعوام في السجن قضتها!!

حين غامت عيناها بالدمع، وشهقت وجدت نفسها رغبًا عنها تعض
على شفتيها في قسوة، ما عاد بكأؤها أمرًا مباحًا!!
علمها بجاد وأحسن تعليمها، هي الآن محط أنظار ومنية صور
وغاية قصص..

نهضت عن مقعدها وكل شيء يتراقص خلف دمعاتها ولحق بها في
روية، لا أحد استوقفه يطالبه بحساب، أو نقود.. دخوله هو و«يوسر»
كما يدعوها الإيطاليون في حد ذاته كنز كبير ويعلمون أنه سيرسل لهم
شيئًا بضعف حسابه..

هم فقط جميعًا بأعينهم تبعوه وتبعوا الباكية حتى أصبحت خارج
باب المطعم الشهير تقف..

ماتت أمها! ماتت آخر أحلامها وأكبرها!!

شعرت بكفه على كتفيها، وحين استدارت رأت في عينيه ألمًا صادقًا
كبيرًا ورمت بنفسها على صدره تبكي قائلة:

- أمي؟! لو أنني مرة عانقتها، لو أنها مرة سمعت غنائي، أمي..

كان يبكي معها على مرأى من كل من تجمعوا حولهم في سكون
بحاولون أن يفهموا ما يدور غير مصدقين أن توأمي الموسيقى والغناء
أمام أعينهم يكيان..

ضمها إلى صدره في قوة كأنه يهم بتكسير ضلوعها، وصفك شعوره
بالخزي والألم من كذبه الكبيرة..

ضمها في قسوة كأنه يقتل آخر ما بقي من ضميره الذي كان يرجوه
أن يخبرها الحقيقة ..

ضمها في جنون كأنه لا يفهم لِمَ يجب أن يعذبها ويتعذب بها ومعها
إلى هذا الحد ..

كانت له مستسلمة كأنها تريد ألماً أكبر من ألم الخبر، كأنها تريد
وجعاً ينسيها النأ والوجع الذي استيقظ كالوحش في عروقها ..

أبعدها عن صدره قليلاً، وأمسك برأسها بين كفيه ينظر إلى دمعها
من خلف دمعته ولم يجد ما يربت على ضميره وعليها سوى أن قال:

- لم ترمني الجزائر سدى، لم يلفظك البحر جزافاً .. كان هذا
لنلتقي .. لنكون معاً .. هل تسمعين؟! لن أتركك لحظة ونفس من
صدري يخرج، أو إليه يعود، هل تسمعين!؟

كانت رغم الألم تحاول أن تتماسك، ورغم الحزن تحاول أن تفهم
كالأطفال رجته ألا يتركها .. رجته أن يبقيا معه ..

وحده بها من الأقدار أرحم!!

أعادها إلى صدره، وهو يبكي قائلاً:

- فلتزوج يا حبيبتى!!



دق بعصاه التي أصبح يحملها في يده على الأرض في قوة ونهض
عن مقعده، يقول:

- لا أحد سواي يشتريها، في السابعة نلتقي صاح العد أمام مكتب
الشهر العقاري، وتأخذ المبلغ الذي ذكرته.

استدار إلى ولده يطلب منه الهوص عر مقعده. وعاد حبسهم
يقول في صوت مرتعش.

- لا أريد أن أبيع الآن سيد بهحت.. فلينتظر..

بذات القوة. ودون أن يهتز له جفن، استدار إلى طريق الخروج
مردداً:

- تبيع وغدا موعدا!!

حين خرج فريد خلفه، وفتح له باب السيارة حاملاً له مساقه إلى
داخل السيارة ليعود ويجلس خلف مقودها ساد بينهما صمت كبير.

كل منهما في أفكاره غارق، الغندور الكبير غاضب؛ لأن جاره تار
.. يد أن يبيع الأرض للجار الآخر، وهو يرى أنه بها أولى، بل يعلم علم
الأمين أنه بشرائه لهذه الأرض سيرغم الجار الآخر على بيع أرضه؛ لأنها

ستصبح كالفشة في كوم أراضيها، ربما كان هذا هو السبب الرئيسي في تردد جاره ورغبته لبيعها للجار البعيد..

ما زال الكثيرون في دمرزو يحملون له الكراهية، يظنون أنهم يحاربونه ثأراً لأخيه وابته.. ثأراً لهادي شقيق قدرية بعد هرب ابنته من البلدة، وبكاء أمها وعويلها في البيوت ولعناتها له ولولده..

حمقى جميعهم، حمقى وأغبياء!

متى كان عصمت صديقهم؟! متى كانت يُسر حبيبتهم؟! وكيف أصبحت خديجة الآن ووالدها اللذان كانوا يأنفون السلام عليه قبل ما حملته إليه من ثروتهم صديقاً لهم؟!

هو الحققد.. هو الحسد.. هو دم دمرزو وسكانها!!

لن يهزمه أحد.. هو بأرض هذه القرية أولى.. هو بدمه الذي لو فتحوا عروقه لوجدوه من ترابها وطمى أرضها بها من كل الكسالى والأغبياء أولى..

يومًا يكتبون إلى جوار كلمة دمرزو كلمة "سابقاً" و"الغدور" حالياً!!

إن كان ولده عاجزاً عن إنجاب من يخلد اسم هذه العائلة، فليكن اسمها على أبواب القرية مكتوباً!!

في قسوة أدار وجهه إلى فريد، وقال في قوة:

- كنت أتوقع منك أن تزجره، توقعت أن تهدده فلا أريد أن أقوم بالأدوار جميعها وحدي..

في جنون أوقف فريد السيارة، واستدار نحو والده يقول في صوت مبحوح جريح:

- لماذا أفعل؟! بل لماذا في كل يوم نكسب عدوًا يكرهنا؟ من أجل من؟!

أشار بيده إلى رأسه، كأنه يجذب شعراته وعاد يصيح:

- يا أبي أصبح رأسي يكسوه الشيب، لِمَ تفعل كل هذا؟ من يركك ويرثني؟!

يُسِر هربت أو ماتت، خديجة تبعثها وذابت حيث لا نعلم.. لمن نقاتل.. ألا تكتفي؟!

ما عاد في دمرو من لا يشيح بوجهه عنك وعني.. لماذا ولمن؟! ما عدت حتى أطيع العمل وشراء الأراضي والمزارع.. ما عدت أعرف رصيدك، أو رصيدي..

لو أنني أعرف طريق يُسر لمنحتها نصيب والدها.. بل لو أجد خديجة أعدتها إلى أبويها ومنحتها ما تريد، وأحضرت لها زوجها، ودعوت لها بالذرية..

صاح والده يقاطعه:

- ليست من الغنادرة.. هي رخيصة فاجرة!

قاطعه فريد، وهو يدير محرك سيارته صائحًا:

- نحن لصوص، يوم نموت لن يترحم علينا أحد.. بصدق ما عدت أعلم من يرث كل هذا لكن أثق أن من يرثه سيبقى مع كل مليم ينقله يلعننا.. أصبحنا لعنة كفر الشيخ بأكملها..

التقط فريد كف والده وقبّلها وأكمل:

- أستحلفك بالله ألا نذهب في الغد.. دعه يبيع الأرض لعائلة الطويل.. فليرث من يرث؟! لن يرث أحد من أعدائنا شيئًا.. يُسر ماتت وخديجة أيضًا..

سيموتون جميعًا قبله، عاش والده طويلًا وسيحيا مثله.. لا يشرب المخدرات ليموت كأخيه.. سيبقى على قيد الحياة حتى تصبح أراضي القرية باسمه سيقاتل حتى اللحظة الأخيرة..

ليس مانجنيه من المعارك هو المهم أحيانًا، الأهم أن نبقي نقاتل ونتصر حتى اللحظة الأخيرة..

في ألم وقسوة نظر إلى وحيد قائلاً كأنه يصدق ما يقول:

- أرثك أنا، وإن وجدت أن عليّ الإنجاب أنجب من جديد غندورا غيرك يستحق أن يحمل الاسم ويقاتل من أجله!!

لا شيء في هذه الحياة أسوأ من الاعتياد!!

هو قيد يؤلمك ولا تملك إلا أن تحكم إغلاقه حول معصمك رغم أنك وحدك تملك المفتاح!!

اعتادت أن تحصل له طعام الغداء كل يوم حتى أصبح قيداً وفرضاً عليها، إن حاولت التملص منه اتهمها زوجها وأمه بإنكار الجميل..

ما زالت أمه بين الحين والآخر ترمي لها بكلمات تخبرها فيها أنها صنعت فيها معروفاً كبيراً حين قبلت زواج مطلقة هاربة لا أسرة لها من وحيدها الذي ينفق عليها وابتها، بل وقبلت أن تحيا معهم!!

نظرت خديجة إلى بطنها المتفتح وابتسمت في مرارة.. ربما أمه على حق..

عام قبل زواجها وهي تنصيد رجلاً يتزوجها في أزقة وشوارع الإسكندرية لتعود كل ليلة بخيبتها إلى الغرفة التي قامت بتأجيرها بعد هربها كالمجرمين من دمرو..

عام كامل التحقت فيه بالعمل كمشرقة على باص أحد مدارس الأطفال، التقت شاباً كثيرين.

لم يقبل بها أحد منهم؛ لأنها لم تخبر شاباً فيهم أنها تملك نقوداً..

أم زوجها على حق.. هو معروف كبير أن تزوجها ربيع، وذهب بها إلى أمه لتحيا معهم نصف زوجة.. أخبرتهم كل شيء عدا الاسم الحقيقي لقرينتها، وعد: أنها تملك مبلغًا كبيرًا، أو دعتة أحد البنوك.. لن تنفق مليماً من هذه النقود إلا على جنينها حين يكبر..

أصبحت خطواتها ثقيلة، لكن ما زال خروجها بطعام الغداء إلى ورشة زوجها القديمة أرحم من البقاء مع أمه وأخته في البيت.. ربيع ليس سيئاً، ليس فيه من فريد شيء.. لماذا دوماً تقارنه بفريد، وتنسى كل من تمرغت بين أيديهم..

رغم كل شيء، وأي شيء يبقى فريد حب طفولتها ورجلها الأول.. رغم تسلط عمتها، وغرور الغندور، لم تنحن يوماً في بيتهم تمسح البلاط، أو تقف ساعات لتغسل أكواماً من الثياب، أو الصحن.. عاشت رخاء ممزوجاً بالألم، واليوم تعيش فقراً مخلوطاً بالذل والمَن..

ليست نادرة، بل تفعل أكثر مما تفعله إن كان عليها أن تفعل لتكون كما هي اليوم "مشروع أم"!!

لا يضير أن تموت المرأة دون أن تحيا في بيت كالذي عاشت فيه زمناً، لكن تموت دون أن تحيا لحظة إن لم تشعر بحركة جنين في أحشائها، أو تعد ثوباً صغيراً وتنتظر من يرتديه وتحمله بالقرب من صدرها ليرضع منها حليباً وحياة!!

عرض عليها زوجها كثيرًا أن يأخذها إلى أمها، أو أن يرسل في طلبها إليها لكنها تخجل أن تفعل.. تخجل أن ترى أمها كيف عادت تحيا في بيت أكثر فقرًا من بيتهم القديم..

لم تفهم أمها يومًا حاجتها لأن تكون أم..

غالبًا تنسى الأمهات هذا الاحتياج فور حصولهن على أبناء ويستنكرونه على سواهم..

ستذهب تحمل ولدها هي وزوجها عندما تلد.. ستدخل إلى دمر و تحمل طفلها ليعلم كل من يراها أن فريد الغندور عقيم، وأن أباه كاذب كبير!!

حين وصلت إلى ورشة زوجها الصغيرة الضيقة في أحد أزقة الأنفوشي رآته يتصبب عرقًا مثلها وهو يقف على آلة الخراطة..

ورث الورشة الصغيرة عن والده، تعلم أن دخله منها بالكاد يكفي هو وعائلته، وأن دخولها إليهم عبء ما كان يحتمله لكن هي صفقة ناجحة..

أصبح زوجًا، وأصبح لأمه وأخته خادمة أكثر منهم تحضرًا ورقيًا، وأيضا يصبح لهم حفيد..

التقط بعينه حبات العرق على وجهها الجميل، وأغلق آله وتقدم نحوها يلتقط منها "عامود" الطعام ثم دفع بقدمه مقعد خشبي صغير إليها لتجلس، وقال:

- تأخريت، ارتاحي قليلاً ثم عودي إلى البيت، أظن أُمي تحتاجك هناك أكثر..

اعتادت أن تلبي لهم ما يحتاجونه دون أن يفكر أحدهم ماذا هي تحتاج؟ لكن كل ما كانت تحتاجه من الدنيا أصبحت في أحشائها تحمله..

السؤال الكبير الذي يلاحقها منذ خرجت هاربة من دبرور. هل يستحق جنينها حقاً كل ما فعلته وتركهم بها يفعلونه!!

ما زال يتجول كعادته في مدينة "ليجولاند"..
 ادخر عزيز مبلغًا لا بأس به لكنه ما زال يتألم..
 شفيت الجراح، وأصبح يهفو إلى النساء من حين إلى آخر، لكن
 وحدها الروح ميتة في الضلوع..
 ما زالت قصة زوجته هي وجنينها تطارده في أحلامه على فترات
 متباعدة، لكن ما عادت كسابق عهدها تبكيه!!
 ما زالت أصابعه تتحسس جراح ركبته لكن ما أصبحت نوبات الألم
 تهاجمه كسابق عهدها..
 عمله الجديد لا يسمح لها أن تصل إلى حد التكشير عن أنيابها، ولا
 هو عاد بالشعور بالذنب يجلد نفسه كل ليلة..
 الزمن يقتل صوت الضمير!!
 الضمير صوته يخبو لكن الحنين والشوق يعلو صوتهما مع الأيام!!
 عشرة أعوام مرت منذ ركب البحر، والتقى يُسر، ثم سرقها وهرب..
 عشرة أعوام بعيدًا عن وطنه وقريته التي ظن أنه لن يجرؤ يومًا على
 العودة إليهم..
 بدأ صوت الحنين يغالبه حين بدأ صوت الضمير يخبو بداخله..

لو أنه فقط يعلم كيف يصل إليها..

معها قد يصفح عن نفسه، معها قد يصبح حتى للجنس الذي استعاد قدرته على ممارسته طعمًا آخر..

رفع رأسه، وأخذ يجوب بعينه أركان المتنزه الذي يجلس فيه..

كل شيء في الدانمارك أجمل وأرقى، لكن هو كحديقة الحيوان التي ينقلون إليها الحيوانات..

الطعام متوافر، والحياة دومًا موجودة لكن الغابة دومًا تناديهم.. بمخاطرها.. بظلمتها وبالبحث فيها عن مأكّل ومشرب..

الحرية في الغابة وإن كان الموت فيها!!

لو أنه فقط يعلم كيف وأين يجدها؟

سيأتي على قدميه أمامها، وينص عليها كيف قتلوا زوجته وجنيهه؟ وكيف صوبوا رصاصهم إلى ركبته ليقتل عاجزًا عن إسعافها، أو حتى الوصول إليها ليمسك بيدها وهي تموت..

يُسّر لم تعد إلى مصر.. لم تعد إلى الغابة.. يشعر بأنفاسها في هذه القارة..

كيف يصبح من حق بائع الحليب أن يراها، ومن حق بائع الجرائد أن يتحدث إليها ومن حق أي إنسان أن يناديه باسمها، وتستدير لتنظر إليه، ويكون عزيز وحده أكثرهم لها احتياجًا وعن أي من هذا يعجز!!

هربها من مطعم بوسكيمي يخيفه.. ربما اضطرت إلى بيع جسدها
وربما ما زالت تفني أصابعها في مسح وغسل أدوات مطعم آخر..

كيف يصل إليها؟!

عهد عليه إن وجدها أن يأخذها إلى مصر، أو روسيا لبيحثا عن
أمها..

أصبح ما معه من نقود يكفي لشراء تذاكر إلى أحد البلدين، بل ربما
كلاهما معاً!!

لو لم يسرق نقودها ما جاء ولا التقى وليد وأصبح لديه نقود..

يشتاق أناملها التي كانت تهوى مداعبة فتاحة عنقه.. يشتاق رائحة
برائها، وطهرها، وهي تنظر إليه في خجل ينام على سرير مقابل
لسريرها كأنها تتمنى لو يدعوها إلى ذراعيه!!

لو أن الأيام تعود، والأعوام تمنحه فرصة واحدة لما تركها ليلة تنام
على الفراش البعيد.. لضمها كل ليلة إلى صدره.. ترى على أي صدر
هي اليوم تنام، وهل تراها حقاً تعرف كيف تنام!!

لِمَ لا يذهب بنفسه إلى إيطاليا ويلتقي بوسكيمي.. إن كان ضميره
غفا فلا بد أن غضبها عليه هدأ..

سيخبرها أنه لا يريد سوى خيط إلى يُسر يقوده..

هز رأسه في ألم..

لن يفعل.. يعلم أنه لن يفعل!!

هذا الحديث الذي بقي يكرره على نفسه كل هذه الأعوام غداً وحين
بداية الأسبوع سينساه، وسيأتي في عطلة الأسبوع القادم ليعيده من
جديد، ويمضي عامًا تلو عام حتى يأتي اليوم الأخير في عمره..
لا هو وجد يُسر، ولا أخذ بشار روجنه .

هكذا يموت الناس جميعًا يتظرون تحقق أحلامهم. وهم على
مقاعدهم يتألمون!!

وضعت قدريّة كروب الشاي أمامها كأنها تكاد تلقيه، أو تحطمه..
ماذا جنت؟! مات أحد أخويها، وانقطع عنها الآخر بعد فجيعة في
هرب ابنته بعد طلاقها منذ أعوام..

فريد كالشيخ منذ هربت منه يُسر، ولفظته خديجة!!
زوجها الذي كان كالمارد لا شيء بقي منه سوى نقود، لا يعرفون
لمن ستؤول بعد أن غابت شهيتهم جميعًا في الاستمتاع بها..
بهجت الغندور يزداد نحولاً وشحوبًا.. ساقه المعتلة استبدلها
بعكاز يتوكأ عليه..

وهذا النحول الذي بدأ يدب في جسده يحاول أن يستعين عليه
بعزيد من الأطعمة لكن لا شيء..

ما زال عنيذًا عتيذًا يرفض الذهاب إلى الطبيب، ما زال كل صباح
يصطحب ولده، ويتفقد أراضيه ويشتري المزيد منها..

هي ووحيدها أدركا الحقيقة لكن ما زال الغندور يحارب في
شراسة..

العمر لا يُحارب.. الشيب لا يُقهر!!

أقسم عليها ألا تذهب إلى أخيها لكن لا تريد أبداً أن تموت، أو يموت هادي وهما على خصام.. ارتدت ملابسها واليوم تذهب وليفعل الغندور ما يفعله.. ما عاد شيء يعينها علّ عودة الأخ تعينها!!

خديجة هربت واليوم تراها قد رية على حق!!

كسرها عقم ولدها.. شطرها نصفين لكن ما زالت كراحتها لأوليها وابنتها قطعة خرسانية كبيرة..

هي لعنتهم التي حلت بالغنادرة، ولحقت بها وبأخيها!!

ستذهب إلى أخيها، وليفعل زوجها ما شاء..

أصبحت حتى رؤيته، وهو يتحول إلى شبح تخيفها!!

حين نهضت من مكانها تشحذ كل قواها للخروج إلى بيت أخيها قبل حلول الظلام سمعت هاتفها الصغير يدق وحين أجابت ولدها سمعته على الهاتف يقول في ألم ودون حزن:

- سقط والدي ونحن الآن في مستشفى كفر الشيخ يبدو أننا نواجه مرضاً خطيراً.. هل تأتين؟!

أخبرته بعد تردد أنها ستأتي ومضت نحو السيارة بعد استدعاء السائق في ألم..

حتى في اللحظة التي قررت فيها تحطيم أغلال الخوف والذهاب إلى أخيها بعد أعوام القطيعة والخصام يقف الغندور بينها وبين ما تشتهي حائلاً، وإن كان بضعفه وما يدعو ولدها مرضاً خطيراً!!



حملت كوب الشاي بعد أن أطفأت فرن مطبخها الصغير، وخرجت من باب البيت الصغير الذي يقع على أحد أسطح العمارات القديمة بمنطقة "جليم" في الإسكندرية، جلست على المقاعد التي تآثرت حولها أصيصات الزهر والرياحين التي وضعتها لتصنع من "رووف" شقة قديمة متهاككة حديقة صغيرة رائعة تطل على بحر الإسكندرية من بعيد..

نصف ما حصلت عليه "ناتاشا" من التعويض الذي صرفته لها حكومة بلدها وضعته في هذا المكان وليست نادمة..
خمسة أعوام منذ عادت بعد تلك الليالي التي ظنت أنها تلتقي فيها زوجها وابتتها..

ما كان من الممكن أن تعود للحياة في روسيا أبدًا..
وطنها وضعها في السجن ظلمًا أعوامًا طويلة.. وحين اكتشفوا براءتها رموا لها بحفنة نقود ذاقت الأمرين حتى الحصول عليها..
ظلمها الغنادرة هنا.. ذبحها بهجت بأطماعه وتسلطه، وطعنها عصمت بخياناته واستهتاره..

حتى ابتتها تشعر بها ظلمتها يوم عودتها والبحث عنها!!

فلتظلمها هذه الأرض وسكانها كيف شاءوا.. ظلّمهم أهون من
ظلم الوطن!!

ما زال الغريب يحيا.. ما زال في عينيه لها حب وفي صلاته لها
نصيب..

تجاوز الثمانين لكنه يزورها كل أسبوع في يوم إجازتها من
المدرسة..

يأتيها دومًا محملاً بالفاكهة، وقطع اللحم التي تحبها، وتحب أن
تشويها له ليتناولها معًا ثم يصليا..

هو يصلي العشاء، وهي تصلي لربها وبعد أن يتها تسمعه يردد
دعواته بصوته الرخيم روجه الله أصبح كقطعة من وجه القمر..

هذا الرجل كلما زارها تشعر أنه اقترب من الموت.. لا يمكن أبدًا
أن تحتل الأرض كل هذا النور الذي يزداد ضجيجًا في حضوره..

في كل مرة وبعد أن ينهي طعامهما يخبرها مبتسمًا أنه لن يموت إلا
بعد أن يرى يُشر..

تصدقها ناتاشا، تصدقه حتى باتت في بعض الأحيان تخشى ظهور
ابتها؛ لأنها تعلم أن فيها غياب الغريب عن أيامها..

أيامها؟!!

قتل السجن فيها أشياء كثيرة.. ما عادت على الرقص تقوى، ولا عادت تسمع الموسيقى، أو تشتهي الغناء.. ما بقي لها سوى تدريب أطفال مدرستها كيف يرقصون الباليه..

تُعلم أطفال مصر أن الرقص من هذا النوع فئاً وليس ابتداءً.. هو تحرر وليس مجوناً!!

كل فن لا يشير فيك غرائذك هو رسول سلام ورقى!!

ما زالت ترى يُسر ترقص بينهم كما كانت تعلمها، ما زالت تنسم رائحتها في كل صغيرة منهم ترتدي "التوتوز"، أو تصلح لها ناتاشا "اليوبار" الذي ترتديه..

لا يقتلها سوى الإجازات الصيفية وغيابها عن غرفة التدريب وأذرع الصغار..

في العطلات الطويلة تشتعل السنة غضبها على الغندور، وتتمنى لو تذهب إليه وتنشأ أظفارها في عنقه، وتصيح تخبره أن ابنتها ما زالت غائبة، وأنها عادت تريدها لكن الغريب دومًا يعيدها إلى عقلها..

عدم النظر إلى وجهه أفضل وحسابه مع خالقه أكبر..

ستبقى تعمل، العمل والحب وحدهما من يأخذك من كل شيء تعجز عن الهرب منه، أو تعجز حتى عن مواجهته!!

هل تموت ناتاشا دون أن تضم ابنتها إلى صدرها؟!

لا تعلم..

رأته يقبل نحوها، وهو يلتقط أنفاسه الضائعة، ونهضت بسرعة تذهب إليه..

المصعد لا يصل إلى "السطح"، وعلى غريب أن يصعد بعض الدرجات الضيقة بعد الدور الأخير..

نظرت إلى لحيته البيضاء، وعينيه المغسولة بالحزن والرحمة، التقطت منه ما يحمله وضمته إلى صدرها في حنان ليستند عليها قليلاً، ويخطو نحو مقاعد حديقته التي يحبها قائلاً:

- صنعت جنة من ذاك المكان يا أوليجا..

نظرت إليه في عتاب ليكمل:

- ما زالت ناتاشا صعبة عليّ.. كيف أمورك؟

أخبرته ألا جديد، وغابت عنه تفسل قطع اللحم التي أحضرها لتضعها في "التبيلة" التي جهزتها وعادت إليه لتجد أنفاسه هدأت، وبدأ ينظر نحو البحر البعيد، وقال:

"سنت تكاليف الحياة ومن يعيش.. ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم" وضعت على رأسه قبلة حانية، دوماً يردد أبيات "زهير بن أبي سلمى" ودوماً ترجوه ألا يفعل وقبل أن تقول سمعته يقول في صفاء:

- أريدها أن تعود.. في عودتها راحتي وأوان رحيلي..

قبل أن تفتح ناتاشا فمها بكلمة قال غريب:

- الغندور مريض.. شهوور وهو يعاني أوليجا.. يدرسون سفره إلى
الخارج.. أظنه يحتضر!!

دون وعي منها رفعت عينيها وفيهما بريق تشف وفرح ونكس
الغريب رأسه قائلاً:

- حاولي أن تسامحيه علّ الله أن يرد لنا ابتنا!!

ضمته إلى صدرها في حنان، واثنتت تفتنرش الأرض إلى جواره
ترقب بحيرة كومو..

وضع رأسه على فخذيها في تراخ وكل، ابتسم يُشر، وهي تربت
على شعره القصير، كان كلب بجاد لا يقترب من أحد، وأصبح يقترب
منها، ويلتصق بها أكثر من زوجها..

أصبحت شهرتها كبيرة، وأصبح في كثير من الأحيان تخونه السيطرة
على مشاعره فييدي غضبه من نجاحها الذي أصبح يضاهي نجاحه إن
لم يكن أكبر..

هو دومًا وبين الحين والآخر يخبرها أن الموسيقى أرقى من الغناء
لهذا عدد من يفهمونها أقل، هو أيضًا دومًا يتهمها بالتبسط المبالغ فيه
مع المارة والمصورين والعامة والأطفال..

لا تغضب أبدًا من انتقاداته ولا تشعر قط أنها تنافسه..

رغم احترافها الغناء ونجاحها العظيم فيه، رغم تجاوزها الثلاثين
ورغم استدارة جسدها وبهاثها إلا أنها ما زالت ترى بعينيها الحقيقة..

دروس القدر لا تقاس أبدًا بعمرها الزمني، صفعاته لا تقاس أبدًا
بكثرتها، بل بقوتها وفي أي مكان تصيبك..

هناك أناس تصيبهم أقدارهم بصفعات كثيرة عشوائية متفرقة لا تترك فيهم أثرًا وهناك صفقة واحدة قوية موجهة نحو الرأس تقشع عنه الوهم ونحو القلب تطهره ونحو العين لنبصر، أو نعمى..

دروس القدر ليست أبدًا بتكرارها، بل بقوتها وتركيزها..

هناك محظوظون يأتون الحياة ويغادرونها، وهم يحاربون كثيرًا كالبلهاء، وتساء قلائل يرفعون للألم قبعاتهم ويرون الحياة على حقيقتها!!

كثيرًا ما يعاتبها زوجها حين يراها لا تكثرث لكل ملابسها التي يشتريها، وتحلم نساء الأرض بمجرد المرور عليها بأصابعها.. كثيرًا ما يرفع حاجبيه حين يرى دمعة تتجول في عينيها وهي في قمة نشوتها عارية بين ذراعيه..

لا هو يفهم ولا هي تستطيع أن تجهل!

قست عليه الأقدار، وصنعت منه أسطورة، لكن جميع دروسها له ما أصابته في عين أو قلب!!

ليست ناقمة، بل هي هادئة، هو يفتت على موسيقاه ويفنى ليبقى الأعظم أما هي ما زالت تتعلم كيف تستمتع بما يُلقى في طريقها، وتذكر أن كل ما هي فيه يومًا يغيب، وكل ما تظنه خالدًا لم يعد لها فيه أي حق!!

بؤساء من يدركون الحقيقة، إلا أنهم رغم بؤسهم هم دومًا إلى قلوب الناس أقرب!!

جالت بعينها على البيوت والقصور التي تجاور منزلها وابتسمت.. منذ أعوام اشترى "جورج كلوني" البيت المجاور لهم..

كثيرًا ما كان يقف حين تمر من جواره ليحييها، أو يتسم في انبهار.. لا تنسى أبدًا كيف أرسل زوجها له دعوة للعشاء في منزلهم ليعلم الرجل أن يُسر زوجته، وأن عليه أن يتعامل معهما كشخص واحد..

جاء "كلوني" يحمل هدية رائعة وقبّل كفها، كانت وكان يعلم أنها زوجة فركال، ما عاد أحد من مشاهير أوروبا لا يعلم.. لكن على وجهها مسحة لا توجد على وجوه جميلات الأرض ومشاهيرها.. لمحة لا أحد يعرف كيف يفسرها..

يفسرونها بالبساطة، أو الطفولة لكن وحدها تفسرها بالألم..

رحيل والديها دون حتى أن تراهم، غدر عزيز وخديعة أمينة، رحلة البحر تلك، صرخات حنان ما زالت تهدر في أذنيها..

كلما أخبرها زوجها برصيدها الجديد بعد كل حفل كبير يقيمونه، أو كلما رأت صورها في الجرائد، أو شاشة التلفزيون، كلما وقف لها الناس في الشوارع التي يسمح لها زوجها بالسير فيها، ورأت كيف ينهقون حد البكاء عندما تبسم لهم في حنان، أو تحمل عنهم أطفالهم وتضع على جباههم قبلاتها.

كلما حدث شيء من هذا شعرت أن شيئًا في رأسها يهمس أنها عن الناس تختلف لكن تنتصب أمامها كل الصور القديمة ودومًا أبدًا حين

يهدر بكاء حنان في أذنيها تعلم أنها أدركت الحقيقة ومن يدركها لا يكون أبدًا في غرور بجاد، أو حتى زهو "كلوني"!!

نعم تألم زوجها، وترك أرضه لكن ألمه جعله ناغمًا على الأرض شاعرًا أنه أفضل من فيها!!

وحدها تعلم أن الأرض بكل من فيها فقاعة هواء في لحظة تتبدد.. سعيدة هي وزوجها، سعيدة دون شك بحياتها نكن حتى العادة لهؤلاء الذين عاشوا الموت لها معنى آخر!!

في العام الأخير زاد تمرداها على أوامره.. أصبحت تخرج كثيرًا وحدها لتسير في شوارع الجزيرة بصحبة كلبهم، أصبحت تتمرد على ثياب بيوت الأزياء الكبيرة وترتدي ملابس بسيطة كأماها.. وأصبحت أيضًا أكثر خجلًا من نفسها..

ما زالت تحلم بلقاء عزيز.. ما زالت تتمتم "يا عزيز عيني" ما زالت تسأل نفسها كيف تحب سارقًا، وتراه حتى وهي بين ذراعي زوجها..

جعلها خجلها أكثر رقة..

بل جعلها أقل حديثًا وأكثر إنصافًا..

ليس استسلامًا، بل هو رضا وقناعة.. زوجها يتولى أمر كل شيء ودوما يخرج من يده كل شيء في أبهى صورته.. يختار لها ومعها الكلمات والألحان، يقف حين تغني خلف ستار المسرح بذات الرعدة التي يقف بها قبل دخوله إلى تقديم عرضه الخاص..

الفارق الوحيد والكبير بينهما أنه يشعر بالزهو والسعادة حين يصفق له الناس مؤكدين له أنه معجزة وتشعر هي بالزهو والفرح؛ لأنها أسعدتهم حتى التصفيق..

كل الأشياء التي تسعدها غابت لتبقى تمنح وتسعد الآخرين!!
أزاحت رأس صديقها النائم عن فخذيها، ووقفت ترقص كماداتها كلما أنهكتها الذكريات..

أخذت تدور كالفراشة، وهي تذكر كلمات أمها الأخيرة، وصحن البيض الذي كان يصنعه لها والدها..

طارت في الهواء، وهي تذكر عناق عزيز وتفاحته، وكم عشقته وكيف بدناءته حرما منه..

انثنت وتكورت وهي تذكر لطمات عمها على وجهها مرة يوم هربت أمها ومرة بالماء بعد موت أبيها!!

أخذت تدور دوراتها المجنونة تلك كأنها تسأل هل نسيها الغريب أم أنه بقي يذكرها ويذكر أمها حتى الموت!!

كل شيء يسعدها، ويحييها محرم عليها، وبعيد عن الأرض!!
يبدو أن من تلفظهم أوطانهم ويستعفف البحر حتى عن ابتلاعهم هم أشقياء حتى يأتيهم ملك الموت!!

كانت هائمة مغدضة العينين ما زالت حول ذكرياتها، وأسألها
تدور حتى شعرت به يحاصرها بذراعيه، وفتحت عينيها في دعر لثراء
يضمها، ويقول مبتسمًا:

جاوزت الثلاثين، ومازلت ترقصين كالمرّة الأولى..

احتمت بذراعي زوجها فوحده من جعل منها مصلدًا للإسعاد
الآخرين، أغمضت عينيها وأنفاسها ما زالت من رقصها نائرة،
وهمست:

- بعد حفلنا القادم سأخبرك أمرًا كبيرًا..

أخذ شفتيها بين شفتيه في قبلة طويلة كادت تغيب فيها عن كل
شيء، حين يقبلها، أو يمارس معها الحب تشعر به يفعلهم برأسه..
بخبراته وبكل تجاربه.. يريد دومًا لكل شيء أن يخرج من بين يديه
ومن تحتها حد الكمال.. رغم أنها يسعدها ويطربها ويُنشئها إلا أنها
دومًا تحلم بعناق مبشر يتخطى في تلقائته ويكتشف وتكتشف معه
أغوار أنوثتها ورغباتها..

لن تفكر في عزيزه، لن تفكر في المستحيل..

ضغطت رأسها إلى صدره، وعادت تلتقط شفتيه، وهي تهمس:

- أخبرك أمرًا كبيرًا هو بداية لعهد جديد..

كان صدرها يتهدج، وكان يشعر أنها تريده، بل هو لا يشتتها قدر
اشتتهائه لها حين يشر فيها رغبتها وجنونها..

ضمها يقول:

- لا أكبر من حفل الشهر القادم، رئيس الوزراء الإيطالي والسفير الجزائري وأيضًا.. أيضًا..

نظرت إليه في دهشة، وقال في زهو مشيرًا إلى وجته بأصبعه:

- ضعي على وجنة فركال قبلة من شفئك لأخبرك.

قبلته قبلة مريحة ووضع ذراعه حولها يخطو بها إلى غرفتهما، وهو يقول:

- دعوت السفير المصري، سيأتي هو وعدد من الجالية المصرية..

أليس هذا شيئًا مثيرًا؟! فليصطفوا ليرا من أنت ومن هو فركال وماذا صنع منك!!

على باب أحد المحال القديمة في حوارى "الأنفوشي" وقفت
ناتاشا تشتري توليفة الأعشاب التي ترقد فيها قطع اللحم التي تناولها
هي وغريب في عشائهما الأسبوعي..

حين استلمت مطلبها ومنحته نقوده دون حتى أن تسأله مضت
تخطو نحو الشارع العام تنظر حولها في دهشة..

هذه الأزقة المليئة بالمحال والورش لا بد أن فيها ألف قصة
كقصتها..

كل القصص جذورها الفقر والخوف والحاجة إلى الأمان..
لولا خوفها ما هربت من بلادها، ولا التقت الغندور، وفقدت حبًا
وعمرًا وابنة..

لولا فقرها ما اضطرت إلى الحياة مع تلك المرأة التي اتهموها
ظلمًا بقتلها.. ولولا غياب العدل والضمير ما سجنوها ظلمًا، ولا فعل
الغندور بها، وبابنتها ما فعل..

اليوم يأتي الغريب، وتسأله عن آخر أخبار بهجت.. ما زال يطربها أن
تعرف أنباء مرضه وما زال يقرأ تشفيها في عينيها ويرجوها الصبح عنه..
ما زال وما زالت وما زال كل شيء كما كان عدا عمرها وعمره..

الغريب يموت، وهي تخطو نحو الشيخوخة.. اليوم تعبت في تمارين مدرستها، ارتمت على مقعدها تلتقط أنفاسها كما تفعل الآن، وهي تبحث عن ملامح الشارع العام لتوقف سيارة تعود بها إلى بيتها.. رغم أن عينيها كانتا زائفتين إلا أنها رأت المرأة الشابة التي كانت تحمل في يدها "عامود طعام".. رأتها تخطو باتجاهها، كان واضحاً أنها على وشك الولادة، أو ربما هي بالفعل تعاني آلام المخاض.. كانت تعض على شفتيها، وقطرات غزيرة من العرق تتساقط من جبهتها السمراء..

فلتعبها وتمر من جوارها، ناتاشا لا تفتح فمها بالحديث خارج أسوار المدرسة مع أحد سوى الغريب وذكرياتهما، قبل أن تمر من جوارها سمعت صرخة صغيرة تخرج من فمها ليقط عامود الطعام كأنها ما عادت تحتمل الألم..

أمسكت بها بين ذراعيها في لهفة، وقالت في عربيتها الواضحة رغم لكنتها المختلفة:

- هل أنت بخير يا ابنتي؟!

نظرت خديجة إليها في ألم تقول:

- ابق معي.. حادث زوجي وسيغادر ورشته ويأتيني.. كنت أظنني أصل إليه لكن..

صرخة أخرى صغيرة أطلقتها لتستند على ذراعي ناتاشا التي سارت بها حيث رآها البعض وأحضروا مقعداً للمرأة الحامل التي رفعت رأسها تنظر إلى أحد الحواري، وأشارت بيدها تقول:

- هذا هو زوجي قادم..

صاح أحدهم يقول:

- ربيع.. تعال.. هي هنا..

ابتسمت ناتاشا في حنان تربت على رأسها، وتخبرها أنها ستكون بخير.. يسعددها كثيرًا أن ترى كيف يعرف المصريون أسماء بعضهم البعض، وكيف في لحظة الاحتياج يمدون يدهم، وإن كان لمن كانوا يناصبونه العدا.

حين جذب ربيع زوجته، وهو يتمتم بكلمات شكر على مسامح السيدة، ومضى بزوجته سمعته يسأل زوجته ماذا تريد؟ وأين عليه أن يذهب بها؟

سمعت بأذنيها زوجته ترد بأكية:

- افعل ما شئت لكن أرجوك أحضر لي أمي.. خذ رقم هاتفها وحادثها.. لا أريد أبدًا أن ألد دون أمي!!

هناك أسئلة قد لا نعرف إجاباتها تمامًا كما هناك وجوه قد نلتقيها ولا نعرفها، أو تعرفنا رغم كل ما يجمعنا بها ويربطنا!!

أرخت رأسها، وهي تخطو نحو سيارة أجرة وقفت لها وشعرت بدمعة تطفق في عينيها..

ما تراها يسر فعلت كل هذه الأعوام بدون أم!!

لا يحب قضاء يوم إجازته في بيتهم، هو اليوم الوحيد الذي يتجول فيه عزيز في شوارع "ليجولاند" ويفتح صندوق ذكرياته ليحتر من الألم ما شاء لكن أصرَّ وليد اليوم على حضوره ليحتفل معه وزوجته بعيد زواجهم..

شكرته زوجة وليد على هديته وبدأت في التحضير لمائدة العشاء، يخجل أن يطلب منها خفض صوت التلفزيون الذي لا يفهم الكثير مما يدور فيه ولكي يهرب من الصراخ لسمعوه أو يسمعهم دخل إلى المطبخ ليقوم بتقطيع خضراوات "السلطة"..

قضى في هذا البيت شهورًا طويلة في بداية حياته في الدانمارك، كان وليد مع زوجته يعدان المائدة ليدخل إلى عزيز ويخرج ببعض الصحون ويعود إليه مرة أخرى..

ليت إحداهما معه، ليت مها عاشت لتأتي وليت طفلهما عاش لياخذه إلى "الليجولاند" وليت يسر تعود، أو يعرف لها طريقًا وتقف هنا معه ويخرج بها إلى وليد وزوجته..

أضاع أغلى امرأتين إحداهما رغبًا عنه، والأخرى رغبًا عنها!!
يعلم أن يُسر أحبته، بل ربما أحبته أكثر مما أحبها في تلك الأيام التي كان قلبه فيها بصارع فكرة دخول أخرى إليه..

الآر هو يحبها أكثر!!

كان صوتها في أذنيه، وهي تغني وأغمض عينيه لتسقط دمعة صغيرة منها رغم أن يده ما زالت بسكينها تهوي على قطع الخيار، لماذا لا يفهم كلمات الأغنية هذه المرة؟!

فتح عينيه، وهو يصرخ صرخة صغيرة، أصابته السكين بجرح صغير لكن ما صراخه لهذا أبداً!!!

كان ينظر حوله في جنون، صوت يُسر لا يخرج من ضلوعه ككل مرة، صوتها من صالة بيت صديقه يأتي!!

كان وجهه باهتاً كأن قطرات الدم التي تسقط من إصبعه هي آخر ما بقي في جسده من دماء، ركض نحو مصدر الصوت، واستدارت أنيتا زوجة وليد إليه، صاحت حين رأت قطرات الدم ليركض صديقه يسأله إن كان بخير..

في ذهول أخبرهم أنه سمع صوتاً يغني، كان يبكي وهو يظن أنه جُنّ، أمسكت السيدة بإصبعه تضغط عليه لتوقف تسرب قطرات الدم. وقالت في عربيتها الضائعة التي تعلمتها من زوجها:

- هي من بلدكم لكن أنتم لا تعرفون.. حتى وليد لا يستمع إلى أغان، أو موسيقى.. ليست الأغاني، أو الموسيقى مجون، أو سد فراغ بل..

قبل أن تكمل نظر إليها يستجديها، وهو ينظر إلى شاشة أخبار التلفزيون في ذهول قائلاً:

- أين ذهب الصوت؟ أين؟!

أخبرته أنه كان خيرًا عن امرأة أصبحت من مشاهير الغناء في إيطاليا وأوروبا بأكملها وصاح يستجديها أن تجد له طريقة يسمع ما سمعه، أو يرى صورتها..

شعرت أننا أن القضية أكبر من إعجابه بصوتها الذي يأسر كل من سمعها، ونهضت قائلة:

- سأحضر لك جهاز الكمبيوتر.. لو أنكم أيضًا تستعملونه لما غاب عنكم شيء..

كان وليد يرقب في ذهول، وحين عادت زوجته، وكتبت حروف اسمها كما يكتبونها، وحين أطلت رقيقة روحه على "اليوتيوب" تغني إحدى أغانيها باللغة الإنجليزية، بكى ومد أصابعه بتحسس شاشة "اللاب توب" في ألم، وهو يهمس:

- هي يُسر الغندورا!

ابتسمت أننا ابتسامة صغيرة، وأردفت:

نعم هي "يوسر"!! هل تعرفها؟!

من خلف دموعه سألتها ماذا كانوا عنها في الأخبار يقولون، وأجابت:

- ستقيم حفلًا كبيرًا هي وزوجها بعد أسابيع!!

من عينيه فهمت ما يريد أن يسألها عنه، وأكملت تقول في خجل:

- هي زوجة لبيجاد فير كال أشهر موسيقي أوروبي .. معه تحيا في جزيرة كومو عزيز .. أعلى مكان في القارة بأكلها ..

كانت عيناه تتبعان أصابعه التي تتحسس وجهها على الشاشة، ونظر إلى صديقه قائلاً:

- أريد تذاكر لهذا الحفل، هل تساعدني؟!

في سكون أجابه:

- بإمكانك أن تشتريها "أون لاين" أليس كذلك أننا؟!

نهض عزيز، ونظر إليه يقول:

- بل تشتريها لي أنت، أسافر إلى مصر غداً لأعود بالغريب إليها، وحده قد يجعلها تغفر لي ما فعلت!!

لم تعد أبدًا تستطيع أن تلعب دور القديسة "تيريزا"، لم تعد ناتاشا
أبدًا تكتفي بأخبار الغندور التي يخبرها بها الغريب، أصبحت تحادثه
كل يوم لتسأل عنه، يجب أن يعلم أنها هنا.. يجب أن يعلم أنها تعرف
كم يتألم، بل تريد أن تخبره أنها فيه شامته، ليس تشفيها فيه بغضًا، أو
سوادًا، هو إعلان بقوة الله، بعدله وقصاصه..

بإمكانها أن تستشهد نه بآيات من كتاب ربه، آيات هي فهمتها، وهو
يقرأها كل يوم ولم يع منها حرفًا..

فلتذهب إليه؛ ولتتلو على مسامعه بعضًا منها، ولتملأ عينها من
ألمه، علّ روحها الشريفة تهدأ..

أطرقت برأسها لحظات، ثم نهضت تفتح درجابه أوراق أخذت
بعضها، وجلست تمسك بالقلم..

لن تذهب إليه، تخشى أن يرق قلبها لحاله.. الغريب أخبرها أنه عا
من سفره وأجرى عملية كبيرة، أصبح بعدها كالشبح..
شكّبت له رسالة..

بدأت رسالتها بكلمة **بسم الله العزيز المنتقم**..

كُتبت، واستشهدت بأية من القرآن الكريم الذي لو وعوا حرفاً مما فيه ما وصلت إلى أن تكتب وهي خاوية الذراعين من وحيدتها تخشى الموت على مشارف الستين..

حين وصلت إلى آخر سطورها التي قالت فيها:

تألم، تألم كثيراً وطويلاً..

ثم تألم أكثر وأكثر علّني أشفق عليك وأخبرك عن الدواء..

دعنا الآن فقط نحتفل وننتشي كلُّ بطريقته..

أنت بأملك في الشفاء، وأنا بأملك في الموت والانتظار..

هل عرفت من أنا؟

توقفت لحظات عن الكتابة، وأعادت قراءة ما كتبه مرات عديدة..

صور كثيرة ركضت على السطور.. صور يُسر وهي طفلة تبكي،

صورها وهي في السجن وصورها يوم أطلقوا سراحها..

صورة الغريب، وهو على عصاه يتوكأ، وعلى ضوء وجهه يخطو ما

بقي من أيام عمره..

كانت آخر وصاياها لابنتها هي الصدق مع النفس فكيف لا تكون

مع نفسها؟!

لا تريد شماعة، أو تشفيًا، قصتها مع الغندور أكبر من أن تتولاها، أو

خنمها برسالة.. هي لا تريد سوى ابنتها..

ما زال بداخلها شيء يتمنى لو تكمل السطر الأخير وتقول "أنا أوليجا" لكن من خلف دموعها أمسكت بالورقة، ومزقتها قطعاً صغيرة..

يكفيه ما أصابه، ويكفيها ذل الانتظار!!

حين نهضت تحمل قصاصات الورق بين يديها سمعت طرقات متالية على باب بيتها، سمعت صوتاً من خلف الباب يصيح:
- أنا غريب يا أوليجا.. غريب..

ركضت نحو الباب في جنون، ويدها ما زالت على فتات كرهها مغلقة..
هو صوت الغريب، لماذا أتى وكيف وماذا أصابه؟!
حين فتحت الباب وجدت معه شاب وسيم نظر إليها، وقال في أدب:
- عزيز الفوال سيدة أوليجا..

نظرت إلى الغريب لتجده يبكي، وهو يقول:
- وجد يُسر، وجدها..

فتحت كفها في سكون لتسقط رسالة الغندور من أصابعها في تداع كبير!!
هي رسالة لن يقرأها ورسالة عوضاً عنها جاءتها!!
فلتلق من يدها رسالة لن يقرأها..
ولتفتح رثيها وذراعيها لرسالة أعواماً انتظرتها!!



انتهت الوصلة الأولى التي عزف فيها فيركال قطعة موسيقية جديدة،
وبعضاً من مقطوعاته الشهيرة، هو في كل حفل تشاركه فيه يُشر يعزف
بجنون، ويقود أوركستراه بجنون أكبر كأنه في تنافس عتيد معها يدخل..
ترقبه من خلف الستار وتبتسم دوماً، هي لا تفعل مثله، هي فقط
لا تغني إلا ما يلامس أوتار وجعها، وتترك الوجد يقود القصة، ودوماً
الآلم صوته حتى من العبقرية أقوى..

بعد وصلته الأولى قدمت أغنية جديدة باللغة الإيطالية.. ألح
الجمهور في سماع أغنية "أداچو" بعد أن أنهت وصلتها التي استمرت
ساعة..

شيء غريب تشعر به في جنابات "تيا ترو ألاسكال" اليوم.

هل هو عصف التصفيق؟! أبداً اعتادت أن تسمع هذه الغواصف
وتبتسم، لم تركز يوماً معها كما ترى زوجها يفعل كأنه يقارن دوماً
بين حصاد ما سبق وحصاد الليلة، أو بين حرارة تصفيقهم لها ليقارنها
بتصفيقهم له..

ما شعرت به على المسرح اليوم شيء لا تفهم كنهه، هناك نائم لها
رائحة لا تفهمها!!

هناك أعين تشعر بها ترقبها غير سائر الأعين..

هناك دقات عذبة في صدرها لا تفهم سرها..

بعد انتهاء الأغنية الأخيرة التي ستقدمها باللغة العربية بعد لحظات
كتحية لكلا السفيرين الجزائري والمصري ستخرج هي وزوجها لتناول
العشاء..

ستخبره النبأ العظيم!!

نعم تخشى غضبه، أعدت له خطبة كبيرة لإقناعه..

تريد أن تحمل في أحشائها جنينًا تطلق عليه اسم أحد والديها..

لا شيء يحيرها إلا ماذا تسميها إن كانت فتاة؟!

هل تطلق عليها أوليجا أم ناتاشا!!

يجب أن يقبل فكرة الإنجاب التي أعلن كرهه لها ورفضه، لن
يضره، أو يضر الناس غيابها عنهم عامًا لكن هي بحاجة إلى من تضمه
وقت شاءت لا حين هو يقرر أو يشاء!!

في خوف انتفضت حين اقترب منها زوجها هامًا:

- توقعت أن ينفض كثيرًا من الجمهور بعد الإفصاح عن كونك
تغني بالعربية، لا أحد ترك مقعده، هيا يا صغيرتي أري القادمين من
بلادنا من نحن؟ وماذا أضاعوا منها ومنهم!!

نهضت تلتقط من يده الميكروفون الذي منحها، وتقدمت من بين
الكواليس نحو المسرح..

كانت الموسيقى تعزف لحن الرحبانية وعينها على حداثها الأبيض
واقفة..

كان ثوبها الأبيض مطررًا بأكمله بحبات لؤلؤ متدلية كدمعات على
فراق أرضها ووالديها تتراقص حول جسدها في حيرة..

تزداد جمالاً وثباتاً رغم أنها تزداد شوقاً وضعفاً!!

كانت الإضاءة خافتة تكاد تكون مظلمة على صفوف الحاضرين،
وعلى المسرح وخشبتة..

دائرة الضوء الوحيدة كانت حولها، وهي التي تلتف حولها الأبصار،
في هدوء علا صوتها يغني "ردني إلى بلادي" ..

مع نسائم الغواوي	ردني إلى بلادي
عند شاطئ وادي	مع شماعه تغاوت
قد ذبلت من بعادي	مرات وعدت تأخذني
من طفولة غداي	ارم بي على ضفاف

كانت تظن أن عشرات "البروفات" التي أجرتها ورددت فيها كلمات
الأغنية ستجعلها أكثر ثباتاً لكنها ضعفت أمام ذكرياتها.. ضعفت أمام
وجه حنان، وزوجها ووحيدها.. عادوا إلى وطنهم جثًا وها هي هنا
تغني ولا تعلم كيف تعود، أو هل تراها تدفن هنا..

تلون صوتها الهادر بالدمع، وهي تقول:

نهرها ككف من أحبت خير الوصادي
لم نزل على وفاء ما سوى الوفاء زادي
شلع زبق أنا اكسرنى.. اكسرنى
اكسرنى على ثرى بلادي

بقيت تردد بيت القصيدة الأخير مرات عديدة حتى شعرت وشعر الجميع أن جنات لاسكالا وجدرانها تهتز لهدير صوتها ومعها تكاد تردد وتصلي..

كانها غابت وكانهم جميعاً معها غابوا، ما صفق أحدهم حتى رآوها تستعيد أنفاسها، وتفتح عينيها ليبدأ ضوء خفيف يظهر على صفوف الحاضرين الذين نهضت إحداهن عن مقعدها وتقدمت في خطوات سريعة في الممر الذي يتوسط الصفوف..

رأتها وظلتها أحد أضغاث أوهامها، لكنها كلما تقدمت نحوها خطوة سكنت هدير التصفيق في أذنيها، وعلا هدير الأمل في ضلوعها.. كان زوجها من بين المستأثرين يناديها كي تدخل؛ لكنها كانت تتقدم نحو حافة المسرح حيث وقفت المرأة أسفله، ورأسها مرفوع نحو ابنتها كأنها تستجديها ألا تُنكرها..

حاول رجال الأمن المصاحبون لوفدي البلدين أن يطلبوا منها العودة إلى مقعدها، وقبل أن تذعن رأت بعينها الضائعة عزيز يقف إلى جوار أمها، ومن خلف دموعه هو الآخر صاح قائلاً:

- هي أمك يا يُسر!!

لم يجد بجاد مفراً من غلق الستار، وفي طريقه إليها كانت قد نسلت خارجه، والتقت التائهتان على سلال المسرح القليلة وسط سكون الجمهور..

قبل أن تقول إحداهما كلمة كان يقف إلى جوار زوجته ينظر إلى وجه ناتاشا الذي كانت تكسح عنه الدمع بأصابعها التي مدتها بعدها نحو أذني ابنتها تتحسس القرط الذي منحها إياه يوماً!! ورغم هذا بقيت يُسر تنظر إليه، لم ترف في عينيه دهشة، بل رآته يرخي رأسه في خجل وعلمت أن الوحيد الذي ظنته لم يكذب عليها هو وحده من اغتال من عمرها أعواماً بأكبر وأقسى كذبة!!

في هدوء ألقت رأسها على صدر أمها، وقالت:

- أمي يا وطني وأرضي!!



أغلقت حقيبتها في سكون، واستدارت تنظر من خلف زجاج غرفتها إلى بحيرة "كومو" .. لحظات وتوجه إلى المطار مع أمها..

يجب أن تذهب إلى الغريب، رفضت ناناشا أن تجعلها تحادثه، أخبرتها، وهي تكاد تبكي أنها تخشى أن يموت وحيداً إن سمع صوتها.. ما بقي حياً طيلة هذه الأعوام من أجل صوت، يجب أن يراها..

حاول عزيز أن يشرح لها، أخرج لها مظروفاً، وأخبرها أنه أرسل لها رسالة فيها ما سرقه منها.. حاول أن يقص عليها قصته التي يوماً قصها على مفتش المباحث فها هو الهرب، حين بدأ قصته يخبرها أنه فقد زوجته وجنيه أمام عينيه، ولهذا جئنا عن البقاء معها والاستسلام لمشاعره، رفعت كفها في وجهه، ونظرت إلى تفاحة عنقه، وهي تسمع بكاء عروفا تستجديها لو تضع أصابعها عليها مرة أخيرة..

هناك قصص يجب أن تبقى مجهولة، وإن كنا نريد معرفتها، وهناك رسائل تكتب ويجب ألا تصل أبداً كرسالة أمها..

طلبت منه ألا يكمل أبداً، ابتلعت جيوشاً من دمعها، وقالت:

- لو أنك لحظة فكرت في كم احتياجي لك، لو أنك لحظة سألت نفسك هل أحتمل غيابك لعلمت كم هو الجرح عميق، والحاجز كبير.. كان حقاً يبكي، وهو يرجوها فقط أن تصفح عنه، يعلم أنها زوجة ويعلم أنها بالقطع تحب زوجها، هو فقط يريد كلمة..

مسكين عزيز، ومساكين من يظنون الكلمات سهلة!!
 انتفضت، وهي ترى بجاد يقف أمامها في عينيه حيرة وألم.. لا أحد
 يدرك كم هو صعب عليه أن يعترف بخطأ، أو ذنب قدر ما هي تعلم..
 رآته يرخي رأسه في سكون، ويقول:
 - كنت أعلم أنها على قيد الحياة، نعم كذبت.
 لن أبرر، فلا أظنك تفهمين أسبابي.. فقط سأخبرك أنني أخطأت،
 وأني أعتذر، وأني أرجوك أن تصفحي وتعودي..
 في ألم نظرت إليه، وقالت:
 - نعم صنعت مني شيئاً كبيراً، لكن غيت من أجلك.. لم أكن أبداً
 أريد أن أخذلك.. وحدك خذلتني بل قتلتي.
 سكنت لحظات، وأكملت في هدوء:
 - حانت ساعة الصدق مع النفس..
 ما جمعت بي لم يكن حباً.. كان إنجازاً وستصنع سواء..
 ما جمعتني بك كان عرفاناً وثقة، وأحمل جثة كليهما على يدي..
 هو الفراق، ولنبقى أصدقاء كما لم نكن!!
 من صوتها علم أنه قرار، وأنه لا عودة..
 أرخى عينيه، وابتعد عنها، وأرخت، غيبتها عندما سمعت صوت أمها يناديها..
 حملت حقيبتها الصغيرة، ومضت تقف في الحديقة تحتضن كلب
 زوجها في صدرها، وعادت تفكر..
 لا معروف يطوق عنقها تجاه أحدهما!!

أحدهما صنعها، والآخر أعاد لها الروح!!
 خلق منها بجداد امرأة ناجحة وشهيرة لكنها أشبعت فيه ذاك المارد
 المجنون لشعوره بقوته..
 أعاد لها عزيز روحها، لكنه ما كان ليفعل أو حتى يملك ثمن شراء
 تذكرة الحفل إن لم يسرق نقودها..
 بضعفها وحبا شفي هو من ضعفه وحبه.
 بين طرفي رحي تقف!
 الكذب والخذلان!!
 أيهما تختار؟ وهل تتبع القلب إن خذلوه أم نستسلم للعقل إن هم
 في ذكائه أهانوه!!
 قررت أن تتحرر منهما معاً..
 فقط تريد أن تغتسل من غضبها..
 تريد أن ترتوي من أمها والغريب..
 هناك حب هو الحياة، وجميعهم من الموت اكتفوا!!
 أفأقت على كف أمها تربت عليها، واستدارت تضمها إلى صدرها
 بقوة ما مرت به ومر عليها وقالت:
 - ضمني كثيراً.. امنحني من الصدق ما يكفيني لأنسى الكذب..
 امنحني من الأمان ما يقتل بداخلي هدير البحر واليأس والموت..
 أريد أن أولد معك من جديد عل الصدق يجدني أو أجده!!

مشت

إصدارات سابقة

- 1 - ديوان "وعادت سندريلا حافية القدمين" دار نور
- 2 - رواية "الحرمان الكبير" الدار المصرية اللبنانية
- 3 - رواية "نساء ولكن" دار نور
- 4 - رواية "رغم الفراق" دار نور
- 5 - رواية "أريد رجلاً" دار الساقى
- 6 - رواية "أحلام ممنوعة" الدار المصرية اللبنانية
- 7 - رواية من جزئين
- "أنا شهيرة"
- "أنا الخائن"
- 9 - رواية "صولو" دار الساقى
- 10 - رواية "ذكريات محرمة" دار نور

للتواصل:

Web-site: www.noorabdulmajeed.com

Facebook: www.noor-abdulmajeed.com

Twitter: @noorabdulmajeed

عندما يرسم لك أحد من تحبهم طريقك
لا تتبعه...

هو يريد أن يرى نفسه فيك !!
العرفان و الاستسلام لا يصنعان
صروحاً كبيرة!

بداخلك شيء يختلف..
شيء يستحق ان تأخذ بيده
لأنه خلق لك وحدك
وله وحده أنت خلقت!!

نور عبد المجيد

أديبة وروائية صدر لها عشر روايات منها "نساء ولكن"،
"صولو" ورواية "أريد رجلاً" التي تم تحويلها الى عمل
درامي لاقى نجاحاً كبيراً. لها أيضاً رواية من جزئين "انا شهيرة"
و "انا الخائن" التي اثارت جدلاً كبيراً في الأوساط الثقافية
والاجتماعية رغم كونها قصة واقعية، لاهمية و جرأة القضية
التي تناقشها في العالم العربي. جارٍ تحويل روايتي: ذكريات محرمة"
و "رغم الفراق" إلى أعمال درامية لعرضها على الشاشة.



سها
للطباعة والنشر

دار نور